الهيئة المصرية العامة للكتاب
سلسلة الجوائز
سلسلة الجوائز
٨١

رواية

لويز دين

أن نصبح أغرابا

ترجمة: مجدى عبد المجيد خاطر

الكاتبة

لويزدين روائية بريطانية.

• ولدت عام ١٩٧٠ فى إنجلترا.

• نشرت ثلاث روايات بعد روايتها الأولى "أن نُصْبحَ أغراباً". ولاقت جميعها قبولاً كبيراً. صدرت لها "هذا الموسم البشرى" عام ٢٠٠٥ و"فكرة الحب" عام ٢٠٠٨. وآخر رواياتها "الرومانسى العجوز" عام ٢٠١٠.

• حازت روايتها الأولى "أن نُصْبحَ أغراباً" نجاحاً كبيراً فور صدورها عام ٢٠٠٤. ففازت بجائزة "بيتى تراسك" عن أفضل رواية أولى فى العام نفسه، وجائزة الأمير موريس عام ٢٠٠٦. وظهرت فى القائمة الطويلة لجائزة المان بوكر الدولية وترشحت لجائزة الجارديان للكتاب الأول، وكانت ضمن خمس روايات هم الأفضل فى عام ٢٠٠٤. وفقاً لاستفتاء صحيفة الأوبزيرفر الشهيرة.

الجائزة

جائزة بيتى تراسك.

جائزة بريطانية مهمة. تأسست عام ١٩٨٤ بهبة ووصية من الكاتب المتوحد "بيتى تراسك" الذى كتب أكثر من ثلاثين رواية رومانسية. وظلت الجائزة تمنح من قبل جمعية المؤلفين البريطانية طوال أكثر من ربع القرن باسمه وبانتظام للرواية الأولى لمبدعين تحت سن الخامسة والثلاثين من مواطنى الكومنولث. وهى تخصص للروايات الرومانسية أو ذات الطابع الكلاسيكى سواء أكانت تلك الروايات منشورة أم لا. ولا تدخلُ فى مجال اهتمام الجائزة الروايات التجريبية على الإطلاق. وتبلغ قيمة الجائزة الإجمالية خمسة وعشرين ألف جنيه سنوياً.

أن نصبح أغرابًا

دين، لويز.
أن نصبح أغرابًا: رواية/ تأليف: لويز دين؛ ترجمة وتقديم: مجدى عبد المجيد خاطر. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٢٥٦ص ؛ ٢٢ سم .
تدمك ٣ ٧٣٢ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
أ ـ خاطر، مجدى عبد المجيد (مترجم ومقدم)
ب ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٢١١/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -732 - 3
ديوى ٨٢٣

أن نصبح أغرابا

رواية

لويز دين

ترجمة: مجدى عبد المجيد خاطر

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٠

• الكتاب: أن نصبح أغرابًا

becoming strangers

• تأليف: لويز دين

Louise Dean

• ترجمة: مجدى عبد المجيد خاطر

• الطبعة الأولى ٢٠١١.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

مقدمة

هل ثمة وجع أعمق من إدراك المرء أن حياته، وهى على وشك الأفول، قد راحت هباءً، بالنسبة إلى أولئك الذين لا يحدقون مباشرة بالموت، يظل السؤال قائمًا: كيف يمكن التعامل مع ما نحن عليه، ما لم نرغب أن نكونه، أو ما لم نعد أن نكونه، أو ما لم نعد نرغب بالحياة معه؟ البعض يلجأ إلى العطلات، لكن بالنسبة إلى الويز دين مؤلفة «أن نصبح أغرابًا» تبقى العطلات، «مسكنًا مقبولاً لعلة بشرية تعرف بالكاد كيف تشكو منها، الحياة التى صنعناها».

بالنسبة إلى جان وآنيمايك، يتسبب قضاء أسبوعين فى منتجع مدارى بمنطقة الكاريبى، فى نهاية كارثية لزيجة سيئة بالأساس. جان هنا، فى المرحلة لما قبل الأخيرة من السرطان، ويحاول بشكل ما إضفاء بعض من المعقولية على مسألة انفصاله عن زوجته، سوى أنه لا يتوقع أن يدفعها ضجرها الوحشى (وقد أمضى ست سنوات طوال ينتظر الموت بأية

لحظة) لاكتراء رجل ليمارس معها الجنس، وحين تتكشف مُتلبسة تدعى أنه «اغتصاب» سوى أن جان لا يصدقها.

رواية تتحرى الطرف الإنسانى، أو بالحرى تتأمل الأساليب الاستثنائية التى نتعامل عبرها حين نُجابه بالموقف الأكثر صعوبة، وهى هنا المراحل الأخيرة من السرطان، والأولى من الزهايمر. والإجابات التى تطرحها جانبًا، وأولئك الذين يخسرون ما طالما اشتاقوا إليه أو من نالوا ما تمنوه، يصيبهم الإحباط بصدد حقيقته.

حققت الرواية فور صدورها عام ٢٠٠٤ نجاحًا كبيرًا، ففازت بجائزة بيتى تراسك عن أفضل رواية أولى فى نفس عام صدورها وجائزة الأمير موريس عام ٢٠٠٦، كما ترشحت لجائزة الجارديان للكتاب الأول، وكانت ضمن القائمة الطويلة لجائزة المان بوكر فضلا عن كونها واحدة من أفضل خمس روايات صدرت عام ٢٠٠٤ حسب صحيفة الأوبزيرفر، رغم ذلك تعترف دين أنها لم تكن دائمًا بمثل هذا النجاح: «أظن أن الكتابة تشبه كثيرًا عمل الفطائر المُحلاة، الفطيرة الأولى أو الثانية، فى حالتى، نالها الكثير من السمن، لذا تجد نفسك مُضطرًا لإلقائهما بعيدًا، سوى أنى حين كتبت «أن نصبح أغرابًا» عرفت أنها عمل مُغاير، ربما بسبب شغفى الكبير بالشخصيات التى كتبتها، وخصوصًا جورج وآنيمايك».

تشتهر روايات دين مقاربتها للجانب الأكثر إظلامًا من الحياة بشكل هزلى، ممتلكة القدرة على : «اكتشاف بعض من خفة الروح والدماثة فى أكثر الأماكن إثارة للوحشة» وهى ميزة تفتخر الروائية بها، بالنظر لأهمية الجانب الساخر لا فى الأدب فحسب بل بالحياة عمومًا : «أظن أن القدرة على الضحك فى ظروف بالغة الصعوبة هو الانتصار الأكبر للنوع البشرى. وحتى فى روايتى عن الاضطرابات فى أيرلندا الشمالية، حيث يقضى الرجال نحبهم من أجل ما يؤمنون به، استعمل السخرية. أظن أن ثمة بطولة وجمال فى القدرة على الضحك فى مواقف عسيرة أو قاسية، وهو ما يحافظ على سلامة عقولنا فى كثير من الأحيان!».

الرواية حكاية اثنين من الأزواج يقضون «عطلتهم الأخيرة» يتعاملون مع حالة إقصاء تُفرق بينهم فى مسعى للعثور على ما يعزيهم، بين ذراعى غريب، أو فى مناجاة مع أغراب، أو فى الرفقة التى يتيحها تقاسم خبرات من المعاناة شخصيات تبدو فى الظاهر لا جذابة ولا سعيدة على خلفية فخمة بمنتجع كاريبى من الفئة الأولى، لكن فتنة الكتاب تأتى من قدرة المؤلفة على دفعك إلى إعادة النظر فى أفكارك بشأن الجنة أو الزواج أو ما يتألف منه الحب (الشهوة، الولاء، وربما النفور!)، وتعكس الجمل والفصول القصيرة عجز شخوص الرواية عن التواصل بكفاءة فيما بينهم، وتمصلهم من تحليل طول للنفس ربما

يضعهم بمواجهة غير مرغوبة مع ذواتهم. مع ذلك، ترسم المؤلفة شخوص روايتها، مع كل أوجاعهم، بشكل مُشرف عبر حوار رائق وسُكات مُريك، متفحصة أبطالها خلال قائمة من مشاعر الخيانة والفقدان والذنب والحسد لتسجل ردود أفعالهم ببراعة ملحوظة.

لويز دين روائية بريطانية واعدة أصدرت ثلاثة كتب - عدا هذه الرواية - لاقت جميعها قبولا كبيرًا «هذا الموسم البشرى» عام ٢٠٠٥، تبدأ أحداثها فى نوفمبر ١٩٧٩ فى ذروة اضطرابات أيرلندا الشمالية، وقد اقتيد شين ابن كاثلين موران للتو إلى عنبر فائق التأمين بسجن بلفساست سيئ السمعة؛ حيث بزغ نجمه سريعًا باعتباره قوة شابة لكن مهمة فى الاحتجاج، جون دن هو الآخر وصل حديثًا للسجن مضطلعًا بمهمة الحراسة وهى طريقة وحشية لكن مؤثرة ليدعم تأسيس بيته الخاص وصديقته. الحلم العائلى، لها أيضا «فكرة الحب» (٢٠٠٨) وفيها تتبع، عبر منظور متهكم، مجموعة من العشاق المترددين بين الرغبة واليأس والإدمان يعيشون حياة خاوية بلا جذور، ريتشارد وزوجته الفرنسية فالريا هاجرا من بريطانيا إلى بروفانس بجنوب شرق فرنسا، حيث يؤمن له عمله كمدير مبيعات بشركة أدوية كبرى دخلا معقولاً من تعبئة السعادة فى زجاجات لأجل الزبائن الأثرياء المكتئبين، فى الوقت ذاته الذى لا تعمل فيه رتابة العمل إلا على تعميق اكتئابه الخاص، يتجلى

سخط ريتشارد وفالريا فى مرآة صديقيهما جيف وراشيل اللذان هاجرا نيويورك برفقة ابنتهما الصغيرة بحثًا عن فردوس برفانس، يعمل جيف رسام كاريكاتير فى حين حلم أن يكون شاعرًا، وراشيل مسيحية متدينة راودتها فكرة، عقب بعض كئوس النبيذ، التوق إلى إفريقيا والحلم بإنقاذ بعض الأطفال السود، وعنها تقول المؤلفة، «رواية عن أول طبيب نفسى فى كينيا فى ثلاثينيات القرن الماضى. إنه كتاب بدأ عن الجنون، وراح يتحول بالتدريج لكتاب عن الحزن». أما آخر روايتها فمن المتوقع صدورها فى أغسطس ٢٠١٠ عن دار نشر بنجوين بعنوان «الرومانسى العجوز» وتُعد أولى رواياتها التى تدور فى إنجلترا بالوقت الحاضر.

ثمة لحظات مُشرقة فى الرواية، سوى أنه المطر ـ العلاقات طويلة الأمد التى استطالت عبر السنين فى ضباب إنجلترا أو بلجيكا، دائهما الصارم ـ هو ما يسكن تحت جلد الشخوص هنا، وبشكل فريد يبدو أنه ما يفتقدونه بدرجة أكبر فى فردوسهم الكاريبى، هذه الرواية، فى جانب منها، تمجيد للمعاناة الطويلة التى شهدها جيل شهد تحولات مهمة بأوروبا وتكأة لإعادة النظر بقدرة المرء على التعاطف وإظهار قدر من الرحمة لمن هم أقرب وأعز بالنسبة إلينا.

مجدى خاطر

"هى المُعضلة البشرية الخاصة الكبرى:
الموت باعتباره خَسارة الذّات. لكن ما الذّات؟
إنّها خلاصة كل ما نتذكّره. وهكذا، فما يرعبنا
بشأن الموت ليس خَسارة المستقبل بل خسارة
الماضى. النسيان شكل من أشكال الموت
الحاضرة دائمًا فى زخم الحياة ".

ميلان كونديرا

- ١ -

كان قد ملَّ حياته من قبل أن يصيبه السّرطان. وبدءاً من اللحظة التى أخذ فيها مسألة احتضاره على محمل الجدّ، صار مشغولاً؛ استغرقه فهم المرض وتدريب جسده على مقاومته. لكم كان بدنه قوى الاحتمال. ست سنوات من العمليات والاستئصالات، بدأت بصدره ، ثمّ راحت الخلايا السّرطانيّة تنبّثُ برئتيه وفى كبده. باحت حزمة من الاستئصالات المُبكّرة بكل مُخيّم فى سبيله أن يصير ـ فى جزءٍ منه ـ ورماً خبيثاً . لكنه أصرّ على النضال. كان الأطباء والأسرة فى كل مرّة يكاشفونه، أنّ فرص الشفاء تكاد تكون معدومة وأن معاودة ظهور المرض العُضال مُرجّحة. وعاماً تلو الآخر، كانت مجموعة من الخلايا الجديدة تظهر وتتلوها عمليّات استئصال، وقد عاش. وظهر وكأنّ تقطيع جسده قد منح إرادته للبقاء زخمًا عنيدًا.

كان تشبّثه بالحياة فى جزءٍ منه نابعاً من قناعة مفادها أنّ حياته لابد وأنّها راكمت لنفسها قيمةً ما بمرور العمر. ماذا عن كل التنهدات والأصوات التى

سُجّلت ، وكل تلك الأفكار التى اقتفى أثرها؟ لابد وأنّها تساوى شيئاً. لابد وأنّها تضيف لحياته معنىً ما. بلايين الكلمات عبر السنين طرّزها لتنسج حفنة أفكار بسيطة. أمّه! بلده! الصواب والخطأ! .

كفّ عن العمل، والتجأ إلى القراءة. سياسة، فلسفة، تراجم ذاتيّة.

منذ أسبوعين فحسب، أظهر مِجسّ استكشافى لبنكرياسه أنّ المرض تفشّى بدرجة أكبر، وكاشفه الأطبّاء أنّهم لن يتمكنوا من إجراء الجراحة مرّةً أخرى. شدّ على يدّ الطبيب اليمنى بيديه كلتيهما وأومأ برأسه متفهمًا. لاحقًا فى مساء اليوم نفسه، تناهى لسمعه، عبر باب المكتب، الموصد، صوت زوجته آنّيمايك تتقاسم الأنباء عبر الهاتف «لقد تفشى المرض فى جسده، ولن يتمكنوا من عمل شىء له الآن».

بعد نحو ثلاثة أيام، مرّ عليهما ولداهما الراشدان، يحملان تذكرتين لمدة أسبوعين فى الجنّة، أوتيل بمنتجع مترف فى إحدى جُزر الكاريبى. بالغ الخصوصيّة، من الآخر. صافحهما بيديه كلتيهما ونكّس رأسه، وباستهما آنّيمايك.

قالت وهى تتفحّص زوجها: «جسده يَضْعُف» وأردفت:» لن تكون الرحلة يسيرة، سوى أنّى قويّة كفاية لكلينا»، ثمّ استأذنت كى تردّ على الهاتف.

جلس مع ولديه، ممسكًا الهدية بين أصابعه، زامًا شفتيه، مداعباً شاربه، مدمدمًا بنبرات عميقة، يفكر

ملياً فيما ينصت لما يحملانه من أنباء. كان الابن الأكبر يدير مشروعه الخاص بمحرك بحث على الويب نطاقه أوروبا، أمّا الآخر فينهى رسالة الدكتوراه فى الفلسفة فى جامعة بروكسل . كان يجرّب أن يراهما كرجلين حقيقيين.

فى الوقت نفسه، تمكّن من سماع نُتَف من كلام زوجته المنفعل فى الحجرة الأخرى.

كانت تكرر بنبرة تشديد : «بعدئذٍ».

أعاد قراءة التذكرتين الهدية، كانتا تحملان توصيّة أن ،! Vermaak julli(*) متّعوا أنفسكم كان التّضمينُ بالنسبة إليه واضحاً: فبمجرد أن يتبع التوصيّة، يمكنه العودة والموت على نحو لائق.

ستكون تلك بمثابة عطلتهما الختاميّة. كانا قد أمضيا عدة عطلات أخيرة فى السابق، لكن تلك ستكون حقّا النهائيّة. كانت طريقة زوجته فى التشديد على هذا وسيلة لتذكيره الآن، على متن الطائرة، أنّهما قد أمضيا بعض الأوقات الرائعة خلال السنوات الست وثلاثين، عمر زيجتهما. كانت تتنهّد بين الفينة والأخرى وهى تقلّب صفحات مجلتها قبل أن تنحيها جانباً.

أراحت فكّها على راحة يده تُنّعِمَ النظر فى وجهه، وغمغمت: «حاجات كثيرة، لكن فارغة، بلا معنى».

وافقها دون أن يبادلها النظر.

(*) بالإسبانية فى الأصل.

أردفت: «مليحة جدًا، جيدة الصناعة، لكنها تصيرُ بلا قيمة فى العام التالى، ولوكُنتَ فى سبيلك لإنفاق الكثير على حاجة منها...آه، هذا الأمر يقودونى للجنون».

أخبرته، وهى تنزع قشرة فول سودانى تعلقت بضرس خلفى، مُتنبّهة لطلاء شفتيها ـ لا كانت امرأة جذّابة ـ قبل أن تبتلع أخر جرعة من كأس الجِنّ مع الصودا، أنّها قدّرت عدد العطلات التى أمضياها معًا منذ زواجهما ففاقت الأربعين.ناولت المضيفة الكوب البلاستيك والزجاجة الصغيرة وعلبة الصودا، أمّا كيس الفول السودانى فطوته وحشرته فى فتحة العلبة.

تخيّل الكُتب ذات الغلاف الورقى مثنيّة الأطراف، مبلولة ورخوة عند حافة المسبح. فُتات المحار المتبقّى فى أطباق العشاء. مساعى ساعات الليل لركل الشراشف البيضاء المُثبّتة بعناية. الأوتيلات والمستشفيات كلاهما يتطلّب منه درجة من الإذعان. زوجته لم تذعن.كانت ذقنها صارمة، وكانت تستعملها فى إنهاء عباراتها. وقد تلألأت عيناها؛ فلوكانت براجماتيّة فلديها السبب لذلك، ففى البدء توقّعوا ألا يعيش أكثر من ستة أشهر وقد عاش ستة أعوام . لقد جعلها هذا صلبة.

فكّر جان: «سِتُ سبعُ سنواتٍ تقريباً من الصفاء» مُتصيّداً عينيها برهةً قبل أن يطرفَ بناظريه بعيداً .

«كان النقاء يغمرنى مثل كلمة الرّب».

«عفوًا» قال، وقد اصطدم مرفقه بمرفقها على مسند الكرسى الّذى يتوسطهما بطريق الخطأ. كان إيمانه قد تأكّد، أثناء مكوثه المُتكرر بالمستشفى، أن العلاقات الإنسانيّة تونِع إذا ما أديرت بكياسة، لقد كان ممتنّاً للأخلاق الحميدة. أمّا وجود الحبّ، الحبّ غير المشروط، فهو محلّ شكّ. إنّه حتى يرتاب فيما يُكنّه ولداه. كما أنّه يفتقر لفكرة ما إذا كان جاهزاً للموت؛ فهى لم تخطر بباله تدريجياً على العموم، متيحةً المجال للمرء كى يألفها. إنّ الموت علاقة ثنائيّة، وليست تراكميّة. تشغيل وإيقاف، إنْ هى إلا ثانية تتلو ضغطة الزناد وتنطلق الرصاصة.

الآن، وقد أضيئت أنوار «ربط أحزمة الأمان» وزوجته تدسّ زجاجة فودكا صغيرة احتياطيّة داخل الحقيبة المركونة قدّامها، ذكّر نفسه بعزمه أن يحزم الحقيبة من أجلها.كان بالكاد يعرفها، وقد وقع فى مشكلات جمّة بسبب معرفته البسيطة بها فى السنوات القليلة الماضية. كان أمراً معقولاً التفكير بأنّ ما من أحدٍ منهما يمكن إلقاء اللائمة عليه بالكامل، وكان من الممكن، حتى الآن، أن يهجر كل منهما الآخر كصديقين. لقد كان هذا ما يأمله من تلك العطلة، لم يصارحها بالكثير، سوى أنّه افترض شعورها بالأمر. خصوصاً وأنّه، فى الحقيقة ، كان يحتضر الآن.

رأى، على يساره، قطاعاً من رفاق الرحلة من شمال أوروبا ينزوون ويجفلون من الانغماد المُباغت

لأشعّة الشّمس الاستوائيّة. بسط ذراعه عبر زوجته وبحركة أنيقة ـ مُستخدماً سبابته وإبهامه ـ رفع السّتار المرن ليغطي نافذتيهما.

-٢-

ازدادت بهجة آنّيمايك أثناء ارتفاع المِصْعَد، ونطق وجهها بابتسامة حين أضاء النّور حرفى «PH» ففلذتا كبدها حرصا على مستوى لائق للإقامة. كانت الحجرة تتوافق مع معاييرها للرفاهيّة، مناشف بيضاء كثيفة الوبر، شراشف دقيقة الغزل ، فولاذ لا يصدأ و خشب مصقول .ذلك ما كانت على قناعة بأنّه الأمثل .

جلس زوجها فى غرفة النوم برفقة كتاب، يشذّب شاربه ويجرع كأساً تلو الأخرى مع كل صفحة يقلبها، وقد أخفض كتفيه مانحاً عنقه بين الفينة والأخرى هزّة خفيفة .

«كنتُ أظنُ أنّه من المُفترض أن تُريحك القراءة "، قالت آنّيمايك تردد جملتها المكرورة .

كانت قد خرجت لشمّ الهواء، واستعدت لتأخذ جولة حول المكان لتقف على ما يُقدّمه، سوى أنّ زوجها خلا إلى الكتاب. هو يقبع فى مكانه وهى تنبضُ بالحركة ، لطالما سارت الأمور بينهما على المنوال نفسه، أمّا مرضه فقد عزز ببساطة هذا التباين كما يُظهرُ الضوءُ شريطاً فوتوغرافياً .

خرجت لترى المنتجع . كل شيء مُنظّم فضلاً عن نظافته. ألِف لسانها أن يلهج بصوتٍ عالٍ، بشكر الله ، على النظافة التى كانت تلقاها بكل ركنٍ قصدته. مطاعم، بيوت أصدقاء ، مدارس، وطبعاً، على وجه الخصوص ، الحمّامات.

بإمكانى رواية الكثير عن مكانٍ ما ، بمجرد أن أدخلَ الحمام" ، أعلنت أمام حشدٍ من الحضور، ما جعلَ جان يبتسم و يتمتم فى هدوء:" Summa Summarium (١) .

لدى عودتها لحجرتهما، راحت تصف بدقّة العصافير، وهى تُشيح بيديها فى الفراغ، السقوف العالية و المراوح الخشبيّة والنوافذ الزجاجيّة المستطيلة المُطلّة على مغطس سباحة لازَوَرْدىّ يُتاخم حمام جاكوزى رخامى. كانت تملك عيناً خبيرة بالتفاصيل؛ فمغطس السباحة نصف مسقوف على طراز القصور الإيطاليّة(٢)، تحوطه فراندة مطليّة بالقرميد تطلّ على منحدَر صخرى شاهق يرى صخب المحيط الأطلنطى، "ويا جان، ذلك هو ذات القرميد الّذى لدى لينى وإيريك فى حمامهما، لكنه هنا ملصوق فى الخارج. تحبُ لينى فكرة ألا أحدَ سواها يلصقُ قرميد الواجهات داخل المنزل، سوى أنّى رأيت ذلك مسبقاً، حين كُنّا فى إجازة فى الشارنتيه. لقد قلتُ لها " .

(١) عبارة لاتينيّة تعنى تماماً أو الكُل فى الكل. (المترجم) .

(٢) فى الأصل Tuscan - effect palazzo، وهو طراز معمارى يستلهم عناصره من الطبيعة. (المترجم) .

كانت قد شاهدت شلّة رجال يتسكّعون حول المسبح كابحين بطونهم . كانت زوجاتهم فى الجاكوزى، يتحدّثن على المشايات الجانبيّة ، وقد حافظنّ على وجوههن مكشوفة للشمس .

أخبرته عن بار مسقوف عند نهاية جادة تحفّها الأشجار، يشبه إسطبلاً إيطالياً يسع نحو ثلاثين كرسيّاً عالياً بلا مسند تتحلّق حول منضدة مصقولة بالأجرّ . فى المنتصف فرن بيتزا ، وقد جعلتها رائحة نبات إكليل الجبل المخبوز وجبن البارما الطرى السّاخن ، تشعر بالجوع . كانت ثلاث شابّات، من المنتجع ، يلبسن فساتين ، تتشاركنّ فطيرة بيتزا مُسطّحة كبيرة الحجم ، ثمّ عادت نظاراتهنّ تعكس كوكتيلاً أحمر اللون يملأ دورقاً يكسوه الثلج. بلغت، عبر بساتين يغطيها عشب مورق و تتدلى منها ثمار مكتنزة ترويها مرشّة ضخمة، مرجة خضراء تتوسطها بركة ماء مستديرة وراءها باحة فيها ممشى إلى بعض الغُرف بالطابق الأرضى ودَرَج مفروش بالرّمال البيضاء يقود إلى الفندق الرئيسى. ثمّة مطعمان فى الطابق الأول، أحدهما غير رسمّى على طراز المطاعم الفرنسيّة الصغيرة، كل ما فيه مصنوع من الخشب الثّقيل والألومنيوم ، والآخر مؤثث بشمعدان زينى وكراسى بمساند عالية قدّام مناضد مدوّرة واسعة وعارية ، وقد جلس بعض الموظفين إلى إحدى الترابيزات يتكلّمون بصورة جديّة. تسمّرت برهة عند الباب تحدّق بهم. وضع المدير ـ الوحيد الّذى يلبس

بلا تكلّف، والوحيد صاحب البشرة البيضاء ـ ذراعيه اللتين سفعتهما الشمّس فوق الترابيزة مُمسكاً بمفكرته المخطوطة كى يرى الموظفون المكتوب فيها. بدا شاباً سائغاً ذا وجه مُعبّر مُفْعَم بالحياة. تمتمت، وسيم، محققة نقلة صغيرة بالرأى. هنا توقّفت.

التقط جان كتابه مرّة أخرى .

غمغم: "طيب .. .طيب" مردفًا: " يبدو المكان من النوع الّذى تفضلينه ".

رأت، زوجين شابين بملابس السباحة يتبادلان القُبلات فى مدخل حجرتيهما. كان بإمكانهما التريُّث قليلاً ليصيرا بالداخل، سوى أنّهما رغبا أن يتباوسا بكل ركن. كانت الفتاة إسبانيّة الطلعة بشعر داكن طويل مُجعّد، والفتى غضّ كفاية ليحوز بشرة ناعمة، خلت من الشعر. تُرى ما مدى الطراوة التى يحسّها جسداهما حين يتضامّان ؟. ممتلئان بالصحّة، غادرا المسبح نظيفين جدًا، تحوطهما الأناقة من كل جانب. تساءلت ما إذا كانا يغفران لبعضهما حين يتجادلان. ربّما لا يتجادلان أبدًا، أو أنّ حاجتهما للمس بعضهما غمرت أى تبرّم .

كان جان ينوس فوق الكتاب. لم يكن المشهد صامتاً بالنسبة إليه، بلّ ناطقًا، أنصت و أظهر رد فعل، حتى و هى واقفة هناك أمامه، تُطلّ الإثارة من عينيها مبهورة الأنفاس، وهى تحدّق لصورتها فى المرآة. لم تعر سنها انتباهاً ـ خمسون عاماً ـ سوى أنّها سرعان

ما ستنتبه، وساعتها كل تلك الفورة لتنتهى بالنسبة إليها. لقد ودّعت حياتها بكل الصور الممكنة، برقّة و بغضب، أمّا هو فلم يسمعها أبدًا، بأى شكل .

غادرت الحجرة و قصدت مكتب الاستقبال حيث انتظرت الشّابة طويلاً؛ حتى تُجيب أسئلتها بشأن ركوب الخيل .

كانت عيناها قد وقعتا على الكتاب المُقدّس فى البيت، بين كُتبه. " لن أحيا كميتة " رددت لنفسها، وأردفت:" فى انتظار العيش بالحياة الآخرة ("عجزت عن إيقاف نفسها عن التفكير بتلك الأمور، وقضت الليل مستيقظة تقنع نفسها بحقّها فى الاستياء .

كانت الآن قد حشدت بعض النّشرات الدعائيّة، وصار بوسعه الفُرجة عليها إن أراد الخروج وعمل ما يحبّ أثناء الفسحة . لديه القدرة على خدمة نفسه، وكانت فى سبيلها لتمضيّة الإجازة التى تناسبها، وستتمتّع بكل ركن بالمنتجع ؛ فصحتها تستحق بعض الرعاية. ألم يقل الأطباء إنّه فى كثير من الأحيان ما يتم تجاهل صحّة القائم على رعاية مريض كليّا؟ أمسكت كُتيّب المنتجع بذراعين مفرودتين، وكانت فى الغالب تستعير نظارة جان .

ثمّة رجلٍ مُقزّز يسجلُ اسمَه، حرّان و مُتضايق. ألقت نظرة سريعة على الخاتم المنقوش فى خنصره الأيمن ، وعلى المحاليق المُتعرّقة تحت قبعته البانميّة والمدِرَأ الّذى تعرّقت نقوشه فوق ظهره. قال: إنه من جنوب إفريقيا سوى أنّ لكنته كانت أيرلنديّة تحمل

ثقةً زائدة بالنفس تنقلب لكوميديا بنبرات الصوت. ترقّبت أن يعيرها انتباهاً ، وقد فعل .

"أهلاً.. طقسٌ لطيف، أليس كذلك ؟ أظنُ أنّى بمفردى قد رفعتُ درجة حرارة هذه الحجرة الصّغيرة جداً نحو خمس درجات" مُردفاً كلماته بابتسامة عريضة .

أعطت جان لدى رجوعها إلى الحجرة، الكُتيّبات الدعائيّة المُتعلّقة بالشأن الثقافى. اختارت تلك التى اعتبرتها أكثر مدعاة للسخرية، جولة تاريخيّة للمستعمرات النباتيّة و قضاء ظهيرة بالزخرفة الخرزيّة.

"تبدو تلك الأمور أثيرة لديك " وتابعت" كان ثمّة جنوب إفريقى سوقى يسجّل اسمه بالطابق السفلى، وقد تخطّانى، ربّما فكّر نفسه فى نادى ميد تج.

نظر جان لزوجته الآن و كانت تقف قبالته، ترتكن على طرف الكرسى، يتفحّص صورتها بالمرآة المستطيلة. يقدر على رسم المشهد الّذى جرى بمكتب الاستقبال. كانت تستعمل مرفقها الأيسر لتسند جسدها وقد مالت فوق الطّاولة ، مُفسحة مسافة دقيقة مقصودة بين الطّاولة وصدرها. كانت أصابعها الطويلة تلعب بعُقدها ، وحين التفت الرجل ناحيتها كانت لتمنحه تلك الابتسامة المتباطئة نفسها التى تعكسها المرآة الآن، نظرة تجعل رجلاً يُمعنُ النظرَ مرتين.

-٣-

في الصّباح التالي، هاتفت آنّيمايك مكتب الاستقبال للتثبُّت مما إذا كان ثمّة أماكن شاغرة لتدليك كامل الجسم ذلك اليوم. كان بوسعها أن تروح الآن؛ فجان قد صحا ، يقرأ ، ويسجّل بعض الملاحظات في نوتة صغيرة كان قد اشتراها، وقد جلس في الشّرفة مع فنجان قهوة وسيجارة. اضطرّت للابتسام وهي تشهد جان خارج الحجرة برفقة كتابه عن المظالم. سبق و قلّبت صفحاته مرّة أو مرتين في غياب جان، كان عامراً بملاحظات شبه فلسفيّة وتعليقات بشأن ما يقرؤه، القليل منها متعلق بالفضيلة الإنسانيّة ، وبعضها اقتباسات بارعة الإسناد، أمّا البقيّة فظهرت وكأنّها أفكاره الشخصيّة. قرأت بينها وفرة من الانتقادات الموجهة لشخصها، كانت ليست أكثر من امرأة من الطبقة الوسطى، "برجوازية"، مُتعيّة(*)، الماديّة التي سبق وأحال إليها. غمغمت في نفسها، حين يموت ، يموت معه كل شيء، حتى اللوم،

(*) Hedonist تؤمن بأنّ اللذّة والسعادة هي الخير الأوحد الرئيسي في الحياة.

والـولـدان مـا كـانـا لـيـرغـبـا فى كـتـبه ومـلاحـظـاته وتعليقاته.

"فكّرتُ أنّه من الجائز أن نقوم بنزهة قصيرة " قال بلهجةٍ ودود، وأردف": يمكن أن نستأجر عربة ونستطلع الجزيرة ".

"لستُ من هواة الفُرجة ، كما تعلم".

غسلت نفسها جيدًا؛ أرادت أن تحسّ أعضاؤها بالراحة فحسب حين تتمدد فوق أريكة التدليك، سوى أنّ تلك الانغماسات كانت محفوفة بالمخاطر بأكثر من صورة . سرسوب فلوس ووقت ينصرم و أنت تتلمس إحساساً بالرّاحة، مُدلّك غير مبال أو عاملة تجميل، سلوك جاف، معالجة أو فرك عميق مؤلم، مناشف خفيفة، أو ، رؤية نفسها تحت الأضواء البراقة فى مرآة بعرض الحائط : أى من تلك الأمور قد تفسد الحدوتة كلها .

كان واقفاً حين غادرت .

"يمكن نأكل فى الغذاء معًا" قال.

"خلّ بالك لروحك ، لا أرغب فى تأخيرك ".

مُتعريّة داخل روب، تنتظر مع كوب شاى أصفر برّه غرفة التدليك، كانت عصبيتها تزداد أكثر فأكثر مع انتقاء موسيقى انطلقت حادة عبر مكبّرات الصوت. كانت موسيقى شابة، ملؤها نبض و دقّ وخشونة وإلحاح ، ما كانت لتريحها أبدًا .

ارتخت أعصابها، مع الأمر المعتاد أن تخلع ملابسها وترقد تحت الشرشف الأبيض الوحيد، وكانت المدلّكة تهرول خارج الغرفة . كانت الأضواء خافتة، والموسيقى خفيضة. سألت المُدلّكة آنّيمايك، لدى عودتها، بصوت رتيب و بلكنة شرق أوروبيّة ، مُرصّعة أسئلتها بملاحظات عن الزيوت التى تستخدمها، دون أن تغيّر لا إيقاع ولا نبرة كلامها .

"إذًا فقد جئت هنا برفقة زوجك. هذا النارولى، زيت زهر البرتقال والليمون الإجّاصى مفيد جدًا فى تنشيط الحواس و إنعاش الرّوح. إنّهما كبيران إذًا ، ولديك. لقد غادرا المنزل ".

"برأيك، كم أبلغ من العمر ؟"سألتها آنّيمايك .

"تجاوزت الأربعين بقليل .. بدايات الأربعينات".

كانت آنّيمايك متنبّهة لخيار نفح المدلّكة بقشيشاً، وقد أقلقها ذلك مثل حُرقة بالمعدة. شرعت تتساءل عمّا مرّ من وقت و عمّا بقى، وفتحت عينيها تلف عنقها قليلاً لترى ساعة الحائط. تصلّبت عضلات عنقها وندت عنها آهة ألم ، فتكلّمت المُدلّكة بلطف .

"إنّكِ تؤذين عنقك، لديك حياة يطؤها ضغط كبير. كانت قد مرّت عشرون دقيقة كاملة .

"نعم" قالت آنّيمايك وأطبقت فكيها مغمضة جفنيها.

غرزت المُدلّكة أناملها فى صدغى آنّيمايك وراحت تدلّكهما فى دوائر صغيرة ، بنعومة لكن مع

كبس يزداد تدريجياً . رأت آنّيمايك، بعين خيالها، وجه جان متورّماً بأحزانه. أنهت المُدلِّكة عملها بنقرات عميقة من إبهاميها فوق باطن إحدى قدمي آنّيمايك الناعمتين، شابكةً القدم مثل جائزة ، ضاغطةً الأصابع نحو عظم ترقوتها.

وقّعت آنّيمايك الفاتورة على عجل، ملفوفة بالروب وواقفة فى مكتب استقبال المنتجع، مولية نظرها صوب الكاونتر، لا إلى الفتاة. دون أن تدفع بقشيشاً .

إنْ هو إلا لوطى أو عجوز متصابى يلبس شورتات قصيرة ، فكّرت آنّيمايك ، منتصبةً فى سُكات أمام الرجل. شدّ الجنوب إفريقى شورته القصير من حول كاحليه واضعاً حيوانه بجرأة داخل شركه الجوانى. كان مصنوعاً من نايلون داكن الزُّرقة بشقّين علويين محددين باللون الأبيض على الجانبين .

كانت آنّيمايك ـ عن قصد ـ قد أخطأت حجرة تبديل الملابس بعد جلسة التدليك. لاحظت أنّها الحجرة المُخصصة للرجال؛ فأرخت روبها قليلاً لتصنّع سبعة مكشوفة بعيدة الغور قبل أن تدخل. كانت بالأمس، أثناء انتظارها المصعد عائدة لغرفتهما، قد سمعت الجنوب إفريقى يرتّب جلسة تدليك فى منتصف النّهار ـ أو حسب تعبيره ـ دعك تحتانى ـ وكما يليق بصدفة، كانا معًا، بمفردهما فى حجرة تبديل ملابس حليبية مطبقة ، وروبها ينزلق .

ما كان لرجلٍ مثله أن يرفض .

"لابد وأنّى أخطأت المكان " قالت وقد تعرّى كتفها ، ورأت على قسماته أنّه يتذكّرها وفهمت من انعطافة فمه البلهاء أنّه كان يستوعب الموقف كلمحٍ بالبصر وأنّه يحصل على انتصاب .

أوصدت الباب عليهما بضغطة بسيطة على المفتاح المدوّر فى المقبض. اقتربت منه ووضعت يدها داخل شورته، مُطلقة العنان لصيدها من شركه. كان بتلك الأثناء يرسم ابتسامة ابن زانيّة . بلا تعبيرات على ملامحها، راحت تجذب حيوانه الدافئ المُشعر خفيفاً ليفهم مرادها من المعابثة، بضِعَة و حذر دسّ يديه فى صدرها، كأنّه يترقّب الخطوات التالية ليتواصلا. رفضت أن تتخطى الحدود مع رجل مثله بمنحه دغدغات تحتانيّة، و أرشدت يده اليمنى المتصنّعة لما بين ساقيها .

"حسن" وقد رسم ابتسامة تودد، واضعاً كلاً من إبهاميه فوق جانبى خصره رافعاً شورته فوق عضوه العامر ، وبتباه جامح بوركيّه، ترك شورته ينزل حتى الرّكبتين. رجّة أخرى و صار قُرب كاحليه حتى بدا أنّه على وشك التملّص منه. جلست، الرّوب مفتوح حتى فخذها، يداها وراءها، ظهرها مقوّس، ثمّ شرعت يداها ترجعان للخلف ببطء .

جثا فوقها، وقد ثبّت جسده بيد واحدة، مانحاً صديقته القديمة خبطة وجلّ اهتمامه عمل ما يلزم

لمضاجعة امرأة فى منتصف العمر فى تواليت مُتكلّف
الفخامة قبل موعد الغداء فحسب ، فى يوم إثنين.

ـ ٤ ـ

اصطحب جان كرسيه عند نافورة المشرب بالخارج؛ حين رأى تلك السحنة السّاخرة لرجل عجوز، ورّدت حرارة الجو خدّيه ، مُفترضاً أنّها حدود نطاق تنصّته. كان ، فى السنوات الست الأخيرة ، قد أمضى وقتاً طويلاً بين عدد هائل من الحانات، لا لأنّه مولع بالشرب ، لكن لأنّه استساغ العزلة العلنيّة. استساغ أن يستقطع فترة راحة معقولة بين الحين والآخر من حياته ، يستمتع بخلوة منعشة و رؤية الأمور من منظور مُغاير .

كشّر العجوز حين رأى جان وقد جيء له بزجاجة سان بيلجرينو مع كوب طويل رفيع و شريحة ليمون حامض . مال على جانبه ، باذلاً جهداً كبيرًا وفظّا ليرى بشكل أوضح ما كان جان يرتديه .

تقاطعت نظراتهما، وافتر وجهيهما عن ابتسامة خفيفة .

"حار قليلاً " صاح العجوز يروّح بياقته.

نظر جان بوجهٍ خلا من التعبير، رافعاً حاجبيه، يوجّه أذنيه اليمنى واليسرى ليغطى افتقاره ردًا.

"أوه ، هه ".

أومأ رفيقه العجوز دون أن ينبس بحرف، ثمّ، وقد تجلّى أنّه أعاد النظر، حرّك كرسياً ليدنو من جان." أعجز عن سماعك يا رفيقى . ماذا قلت ؟".

"نعم. إنّه حار ".

"هل زرت المكان هنا سابقاً ؟".

"كلا . إنّها المرّة الأولى".

"لوحدك ؟". شاهراً أنيابه .

" كلا. بل برفقة زوجتى. أنا أترقّب وصولها الآن "رجع جان يتفحّص كأسه ، وهكذا ، ما كان الرجل ليرى أفكاره. أصابه تطفّل الرجل بالامتعاض. لديه الكثير ليمعن فيه التفكير دون أن يكون لديه الوقت الكافى. هل من المحتمل بالنسبة إلى رجل عجوز كهذا أن يكون ممارساً للواط ؟ جّائز ، لديه شارب، سوى أنّهم فى الغالب ما يكونون كُتّاباً أو فنانين ، و هذا الرجل لا يبدو عليه أنّه من أيهما . كان إنجليزياً أو ربّما أسترالياً ، كانت لهجته خشنة.

"الشيء نفسه هنا".

ارتجى جان أن ينتهى الكلام عند هذا الحدّ. كان مُستعداً للنهوض والانصراف بشكل مهذّب، يوقّع على عجل إذناً بالغياب ، ويترك ثُلُثى زجاجته المتبقى.

"أقول، هل لاحظت أن النساء هنا يمشين مُتعريّات الصدور؟" التمعت عيناه الزرقاوان، لافظاً

كلماته بملء أنفاسه و كأنه يخاطب ضابطاً، ومرتكناً فوق حافة المشرب يُلعِّب حاجبيه .

ابتسم جان بفتور :"كلا ؛ لم أذهب للمسبح حتى الآن. لست سبّاحًا ماهرًا " .

"كلا . ملعون أبو السباحة. لكن من حيث أجلس، لديك ما يسمونه إطلالة عين الطائر. ملءُ البصر " .

أغمض جان عينيه وأخذ نفساً عبر أنفه. كان قد عقد اتفاقاً مع نفسه، مُذ أصابه المرض أولَ مرّة، أن يتجنّب البشر؛ فلا وقت لديه للانغماس معهم. حرّك كُرسيه ليواجه الرجل و راح يوارب عينيه ببطء جاهزاً لإبداء تعبير صارم. كان العجوز قد أوقع بحاجبيه فى سلسلة من الانتفاخات و مؤخرة رأسه تحتك بجبينه. تذكّر الأفلام الإنجليزيّة فى الخمسينيات والستينيات، أفلام كارى أون تحديداً . وضحك .

"ماذا تشرب ؟" قال الرجل منحياً كوب الماء من يده جانباً .

"طيب ، لو كنت مصرًا، شويّة بيرة خفيفة ". قال الرجل بابتهاج ، عائدًا للقعود يحدّق جيدًا بصديقه الجديد .

"هل تشترى؟" .

غمز ، رافعاً رأسه:" ثمّ سأجرع بعض الويسكى مع نفسى" .

ـ ٥ ـ

قعد جورج ديفيز فى الخارج على حافة المسبح طاوياً طرف بنطلونه، يفكّر. كان قد صحا، هو وزوجته دوروثى، منذ السادسة. لم ينم طويلاً أبداً، وهو الآن بالكاد ينام . لديه الكثير من الوقت للتفكير فى الماضى مُذ تقاعد فى السبعين، سوى أنّه بدا بئراً بلا قرار؛ مع تعدد زوايا الرؤية للشىء ذاته. فى السابعة، كان جورج يقف عند مشرب الخبّازى، يجرع من بيرة صهباء فى كوب قصير. كان مستاءً؛ بسبب توقه المعتاد لتخفيف البيرة الصهباء بحبّة ويسكى. كانت عيناه مثبتتين على ساعة أمامه، كانت ساعة سكة حديد قديمة، مؤطرة بخشب البلوط وقد ميّز سنة صناعتها فوقها ، ١٨٥٦ . كان ينتظر الظهيرة من أجل التأنُّق.

ما من عطلات كثيرة أمضاها، كى يتكلم عنها . الأولى كانت برفقة توبوهاينز عبر بريتون، سافرا لها ممتطين درّاجتين بخاريتين ، ممضين الليل فوق دِكّة. كانت أياماً مجيدة عامرة بالفتيات، وكان محض المشى خلف مجموعة منهن أمراً حافلاً بالإثارة، كُنّ يمشين متشابكى الأذرع مستبقين ما لديهم سرًا وقد رفع، جورج وتوبى، قبعتيهما مثل سيدين حقيقيين. لديه قوام

مثالى، طويل، بشعره الأحمر الزيتى وشاربه المبروم. كان يأخذ زوجاً من الفتيات، وأحياناً برفقة أمهاتهنّ، ويدعوهن لتناول المثلجات فى واجهة المحل. ستُ سنتات للمخروط ويعبث توبى فى جيوبه بخفّة بحثاً عن الفكّة. لطالما كان جيبا جورج عامرين بالعملات البرونزية. كان يكدّ وكان حريصاً، وكان صاحب العمل العجوز يعطيه ما يستطيع وقتما استطاع.

مدّ بصره صوب المحيط ساتراً عينيه، ثمّ عاد يلتفت نحو الأوتيل. كانت شمسُ الكاريبى تحدّق به من بين سنّامى المبنيين الرئيسيين للفندق، مُربّعة ونحاسيّة.

"لقد أحبّنى الرّجل العجوز. دون أسئلة ".

لم يكن دليل الهاتف البريطانى تيليكوم يدرج رقماً لطوماس هاينز فى منطقة لندن. رغب فى مهاتفته منذ أسابيع قليلة مضت، كان يفكّر فى تولى هاينز والآخرين من شلّة الرّفاق القديمة يوميّاً تقريباً. كلّهم ماتوا، حسب ظنّه؛ ما دام قد عجز عن اقتفاء أثر توبى، أو كثيرين منهم. كان الأخير، الذى لا يزال حيًّا، وحيدًا مع ذكرياته.

كانت زوجته تقول، لإثارة أعصابه فحسب:" كلّما أجريت مكالمة هاتفية تلك الأيام جاءك خبر فُلان من أصحابك العجائز، أنا مبسوطة أنىّ تخليت عن أصدقائى من زمان، من يوم تزوجتك ".

"يطلب منك أحد التخلى عن أصحابك، يوم تزوجتنى".

"طيب، ألم ننتقل للعيش بالريف ؟".

"بعد الحرب، وكانت لديك فُرص جمّة لعمل صداقات أثناء الحرب حين كنتُ غائباً ".

"لقد غادرنا لندن ولم أر جلينيس جوثراى أبداً بعدها، لا هو ولا أومن الأخريات من معمل الورق قالت دون أن تنظر فى وجهه.

استفزّه كلامها، لذا فقد أوقفها عمّا كانت تفعله و نهض فى مواجهتها ليصفى حسابه.

"لقد أردت تربية الأطفال فى الرّيف، حيث الهواء العليل حسبما قلتِ، وأنا من جعل هذا ممكناً بفكرة الحضانة. ثلاثون عاماً فشلت خلالها فى عمل أى شىء سوى الالتصاق بالرّيف لا لشىء إلا لأنّك قلت إنّها رغبتك ".

"لم أطلب أبداً منك أن تلصق فيه" بكت بصوتٍ حاد وكأنّ صفارة انغرزت فى حقلها.

لطالما تعاركا بشأن ماضٍ لم يبد أبداً أنّهما قد تقاسماه.

أحسّ بقلبه يخفق لمجرد التفكير فى ذلك، لماذا أهمّه الأمر لتلك الدرجة والحكاية برمّتها فات أوانها بكثير؟ كأنّه يحتج على حياته .

"لقد تزوجتِ رجلاً يعلق بالأشياء. حظّ شَكِس، ألم تكتبى رسائل لجلينيس جوثراى المجروحة ؟".

"كتبت". وقد تهدّج صوتها ، وتداعت شفتها السفليّة .

"آن ... هو.. نيفاه ... كتب ... عاد... إلى ...يه" كان صوته قد بلغ لندن حين وصل لنهاية انفلاته .

"لقد نسيت أن أضع العنوان".

"بل لأن لديها أموراً أخرى تنشغل بها. جميعنا لديه ما يشغله. أنا مثلاً ينكسر ظهرى فى هذا الوحل الدموى، أقتلع خساً وحشائش تفوقه حجماً من الأرض مرتجياً بعض الفلوس، والشىء تلو الآخر يفسد، هذا يحتاج إصلاحا وهذا لشراء جديد.. انظرى لى، ما إنجاز حياتى؟ ".

رآها على وشك أن تستكين، فعاد يكرر ما قاله؛ مستظهراً فحسب، لكليهما، إن شيئاً قد بقى يتقاتلان عليه :"أخبرينى، ما إنجازُ حياتى؟".

"لديك نفسك فحسب تلومها!". قالتها و تهاوت بمجرد النطق بها .

لأنّها الآن، لتنطلق من مسألة الأصدقاء باطراد، كانا يمسكان بخناق بعض كل أسبوع تقريبا. كان يجهل مشكلتها، تُلحُّ على ذات الأمر. توجّب عليه أن يكون قادراً على تركه يمرّ ؛ و هو يرى أنّها لم يبد عليها أنّها سمعت شيئاً مما قاله، لكنه يوقن كفاية أنّها تشرع بالأسبوع القادم قائلةً :" طبعاً، توجّب علىّ ترك صديقاتى".

"إنّكِ تفقدين مآثرك ". قال .

"وأنت تصاب بالصمم. هذا يجعلنا متعادلين» ردت بنبرة حادة وأسنانها تصطك ببعضها بشفتين

مضمومتين، مفعمة بنشاط وبهجة بردّها المفحم، يشبهان ما تحسه حين تدرك معنى كلمة بها حرف غامض فى لعبة السكّرابل.

الأسبوع الفائت تكرر الشّجار، وقاطعها ثلاثة أيام، حتى مرّت بنتهما الصغرى صدفة لتأخذ بعض شتلات الغُرنُوقى، التى كانت جزءاً مما يجىء آخرون لأجله من صور وميداليات و كسرات من أوان فخاريّة و تذكّارات، كأننا متحف به محل بقالة، قال لصديقه نورمان .

ما يقرب الستين عاماً معاً تقاسما فيها الحبّ، بطريقة عمليّة، لكن ثمّة كراهية أيضًا. لن تستطيع مكاشفته أنّه ما من زيجة لم تتساو فيها درجات الحبّ والكراهية . هكذا سارت الأمور وقد مزقتك أشلاءً ، وجعلتك جاهزًا من أجل النهاية، مثل لحم مطبوخ فى قدر .

"ضع هذا فى غليونك ودخّنه " قالت ، وهو أحد الأمور التى لاحظ أنّها تفعلها مؤخراً ولم تكن تفعلها من قبل . صارت ميّالة للإغاظة و كانت تبتهج لذلك، لم تكن لترضى بأن تكون لها الكلمة الأخيرة، بل إن تكون لها مرتين . لهذا خرج قاصداً الحانة، أخبرها أنّه اعتزم الخروج طلباً لبعض الهواء العليل ورفقةً ما، سويّة .

"اذهب إذًا وانظر إذا ما كنت سأهتم. حتى لو وجدت من تتكلّم معهم ، لن تُنصت لهم" .

وهكذا، تركها وغادر الحجرة وبمجرد أن وطأت قدمه خارج الباب أحسّ بالانزعاج ، غاضباً من نفسه ومنها ، وحانقاً من الحكاية كلها. أينبغى عليه أن يستدير ويتصالح معها ، لكن الأوان قد فات جداً على هذا . سترافقهم عاداتهم السيئة لقبرهما الآن .

"لم تكن متحمّسة للمجىء إلى هنا ، زوجتى".

قال مُعترفاً لجان. وأردف" إنّها من النوعيّة التى تفضّل القعود فى البيت، تجلس فى الحجرة الآن. وماذا بعد، ربّما نقعد ساهمين بالبيت. تنسجم جداً إذا جلست برفقة كتاب وكوب شاى، فاضطر لجرّها معى أيّاً كان ما نفعله. لم تكن أبداً داجنة دائما، لكن أحوالها ساءت مؤخرًا، تستسيغ الجلوس على عجيزتها طوال اليوم، تفكر حسبما تدّعى، أو تقرأ". رفع حاجبيه وتنهد ، وتابع " تبدودائماً وكأنّها تقرأ الصّفحة نفسها".

"المفترض أن زوجتى تحسّ الأمر نفسه بشأنى". قال جان مُنهياً شرابه.

"أحقّا؟".

"أكيد؛ فأنا أحبُّ رفقتى هذى".

"لستُ متأكّداً أنّها الحالة ذاتها مع امرأتى العجوز. أحيانًا يكون من العسير النفاذ خلال امرئ حتى ولوكنت تعرفه طوال عمرك. كأنّ السنين تجعلهم أصلب، فى حقيقة الأمر. كأن تكتشف آلاف الطُرق

لتدور حولهم ، والانعطافات ، تعرف، الطريق مُغلق ، اتبع التحويلة . هل تعي ما أقصده ؟".

"نعم".

"هل سنلتقي مرّة أخرى ؟".

نظر جان صوب السّاعة. كانت الواحدة والنّصف. ما كانت آنيّمايك لتبقى بالمنتجع حتى الآن، لابد وأنّها توصلت إلى قرار بشأن الانضمام إليه. ويجوز عثرت على غدائها الخاص.

-٦-

كانت دوروثى ديفيز تحكّ أصابعها فى جوربها الطويل، جاثمةً على حرف السرير، وحقيبتها بجانبها.

" لا أحسُّ بشهيّة للأكل الآن، ولدىّ بعض فُتات الطعام من أجل الغداء. لا شكراً. أطلب منهم إرساله لأعلى. مع ذلك،لوكنت قد رتبت أمراً سنضطرُ للنزول. كنتُ أفضّل تناول شطيرة فى الحجرة،لكن ما من مشكلة نتشاجر لأجلها ،أليس كذلك ؟".

"لن تُذعنى، أليس كذلك". قال جورج وهو يخلع قميصه وينشّف به إبطيه من العرق،ثمّ حطّه جوارها فوق سرير الأوتيل الحجم الكبير .

"افتح الشنطة يا جورج، ستجد كيس الملابس المُتّسخة فوق ".قالت.

"نحن فى إجازة". وهو يرمى غلاف قطعة حلوى فى منفضة السجائر فوق الكومود، فاتحًا الباب الّذى يقود للشرفة،متفحّصاً جودة الباب أثناء مروره. صناعة مُتقنة. كان قد منح نفسه حفنة من قطع الحلوى الساخنة من مكتب الاستقبال .

"الملاحظات هنا تقول إنّ كلّ شيء خلا المشروبات الكحوليّة قيمته محسوبة بفاتورة الإقامة". كانت المرأة التى تعقد شعرها على هيئة كعكة بالأسفل فى الاستقبال قد أخبرته بذلك،مثل ممرضة،فأرخى كفيه وكبش من الحلوى .

كانت حفيدتهما قد باغتتهما بتلك الفسحة. كانت،بالثلاثين من عمرها، تعمل موظفة فى بنك وتكسب ثروة. اعتادت أن ترسل لهما هدايا من وقت إلى آخر، مع تعليقات غامضة،على شاكلة "فقط لأن" أو "ثلاثاء سعيد". الآن زوّدتهم الحفيدة بأول وآخر فسحة مترفة . كانت قد غادرت مخلفةً الكرّاسة بينهما فوق ترابيزة القهوة فى حجرتهما الأماميّة. تتبّع جورج هابطاً بأصبع واحد عيّنة من أوصاف قائمة البوفيه،يقرأ منها بصوت عالٍ، بسرعة،مع مدفأة الغاز والمطر يلطم الشبابيك .

"محار طازج،سرطان البحر،قريدس صدفى،فيليه مينو، شرائح لحم التونة المشويّة، مجموعة مُختارة من الخضراوات الجذريّة المطهوّة على نار هادئة،سلطات عشبيّة، وخضراوات عضويّة مقطوفة للتو تلك بعض المفردات التى قد تجدينها على ترابيزة البوفيه".

ارتعشت. "لقد مشى حالاً مُغفّل فوق قبرى" ونحت كتابها جانبًا .

ردّ جامد الوجه، دون أن يرفع بصره:" ما من مُغفّلين، لكن أنصتى لهذا، الأطباق نفسها من شيفنا

جان مارتن على قائمة فوق صحن تضم، لحمًا بقريًا بصلصلة البورجينيون، طيور غينيّة مشويّة على نار هادئة وبطّ بالبرتقال. تُرى هل يقشّرون البرتقال اليافاوى قبل أن يحشوا به البطّ ؟".

"إنّها نكهة".

"أعلم ذلك "قال متنهدًا، مُزيحًا ساقه المعطوبة بخفّة عن مسند القدمين الزنبركى؛ كى يتجنّب أذى عفريت العلبة إذا لطم قفا رَبْلَة ساقه. سمعت جلبته بالقرب من حجرة المؤن ،التى يصنعها عمداً بقصد إثارة انتباهها، مُلمحاً ـ كانت تبلغ من العمر خمسةً وخمسين عاماً تستأهل إدراك مغزى التلميح ـ ذكى تدركه بالمطبخ وتعينه على عمل كوب شاى .

"هاتفها". قالت له فى المطبخ ، ورأسها بالقرب من باب حجرة المؤن " رِنّ عليها وقلّ لها إننا لن نستطيع الذهاب بسبب التهاب مفاصلك، فهى لم تدفع التكاليف حتى الآن ".

لم يحوّل نظره عن الأرفف ،بل التقط نظارته من جيبه العلوى ليتفحّص الملصق فوق برطبان مخلل .

"بل دفعت. وجُلّ ما ستعمله فكرتك هوالفضيحة "وناولها البرطمان الّذى وضعته على جنب وراحت تحضر قطعة من فخذ خنزير مملح وبارد من البرّاد. لم يكن ثمة مزيد يُقال .

والآن، كانا جالسين هنا، فى تلك الحجرة البيضاء بسجاجيدها البيضاء الناعمة المفروشة فوق

أرضيّة حجرية باهتة، وستائرها التى ينفخها الهواء، وشرفتها المُطلّة على البحر. غرباء فى المكان، وعن أنفسهم. بلا كلمة يتبادلانها، أو عمل ينشغلان به، أو شاى يُعدانه، ما من مسيرة مكرورة لبرامج إخباريّة بالراديو والتلفاز ـ نشرة السابعة صباحاً ، والحادية عشرة، والواحدة بعد الظهر، والخامسة، والتاسعة مساءً. أنباء تقدّم القصص نفسها بعدّة أشكال طوال اليوم حتى صارا ببرودة الحجر، ماذا لديهما ليفعلاه ؟.

"انظر يا جورج لوكانت ثمّة مكواة ؟" سألت زوجها الواقف ، مُكتسياً بصدارى وبنطلون صوف مضلّع ،فى الشُّرفة ،يراقب المسبح تحت .

"مُتعرّيات الصدور "قال مُتجهّمًا، فرفعت حاجبيها .

"وما حيلتك ؟ ولم تعد الرجل الّذى كُنته " .

دخل الحمام تلحقه دوروثى. تفحّص الدُّش بدرجة الاهتمام نفسها التى يوليها للمبرّدات والسيّارات المعطوبة، وراجع المصفاة مُعلناً أنّها آمنة للاستخدام وقتما تشاء، أمّا هو فاكتفى بحمام سريع وتنظيف أسنانه بالفرشاة ،ثمّ نشّف جسده بحيويّة. رَنَتْ دوروثى فى المرآة لشعرها الخشن فوق فمها المتغضّن، وصاحت " يا الله" مُتحسّسةً حقيبة أدوات التجميل عن أصبع أحمر الشفاه .

سمعا نقرة فوق الباب ودخلت امرأة سوداء ، تلبس عباءة مهندمة خضراء تعلوها مريلة ، وأخبرتهما

أنّها تعتزم طى سريرهما استعداداً للمساء. خرجت دوروثى من الحمام وراحت صوب جورج ، ليقفا معًا أيديهما جوارهما مستندين على الحائط ، ينتظران المرأة أن تفرغ من عملها. أومأ لها شاكرين وقد تنبّه كل منهما لنبرة الآخر مصحوبة بارتجافة أو اثنتين، أنيقة .

"لقد تركت قطعتى شيكولاتة فوق المخدّة " قال جورج وهو يهمّ بالتقاط واحدة . "إنهما باردتان" وقد فضّ تغليف واحدة وقضمها" بنكهة النعناع. هل ترغبين فى قطعتك؟" . هزّت رأسها نفياً وخرج إلى الشّرفة ؛ كى يتركها تنهى تبرّج وجهها .

بلغا المشرب عند دقّة السّادسة والنصف. كانا قد أنفقا العشرين دقيقة الماضية بالتجوّل فى الحدائق. وجدا مكانيهما معزولاً تقريبًا عن البارمان. كانت تلك طريقة جورج للالتحام مع الموظفين، أينما كان، فى الثرثرة، سوى أنّ الرجل لا يتكلّم ولا حتى ينظر إليهما نظرة مباشرة . أحسّت دوروثى بطرحتها الكشمير ـ هديّة عيد ميلاد من حفيدتها ـ تجثم فوق روحها كأنّها فرو القاقم فى قيظ الصيف .

ناولها جورج كوكتيل الترحاب الخاص ونزع مظلّة البارسول الورقيّة الصغيرة من كأسها حين لكزتها للمرّة الثانية فى أنفها. بعد أن أفرغ كأسه لآخرها، صرّ على أسنانه وقطب جبينه ، محدّقاً بالبحر. كان يشبه مونتجمرى، بدنيًا.

حين توالى مجىء الناس، وأغلبهم أزواج، أفسحت دوروثى وجورج مجالاً يسمح لهم بالوصول للمشرب ثمّ عادا مكانيهما نفسه بعدئذٍ. فى السّابعة بالضبط، راحا للمطعم.

-٧-

كانت دوروثى تفرد الزّبد فوق رغيف دونما فكرة عمّا تطلبه، حين جاء النادل ليأخذ طلبهما من المشروبات. كبس جورج ذراعها نافد الصبر، وقد أحسّ بالعطش.

"هيا يا عزيزتى، السيدات أولاً " قال مؤكّدًا على مخارج الحروف، مُديرًا عينيه فى محجريهما صوب النادل الكاريبى. كانت المراوح تدور سريعة وقد دوت موسيقى الجاز ، فأحسّت بالصخب يدهمها . كانت تفكّر بالجهد المبذول فى رصّ الترابيزات، وأولت البوفيه التدقيق ذاته الّذى يوليه رياضى للعبة يمارسها. كانت تنظر لهذا الجهد من ناحية الساعات المهدورة كأنّ ساعديها قد غطسا فى عصير الأناناس، أو أنّ جبناً قد انحشر تحت أظافرها، أو دقيقًا علق فى شبشبها .

"شِرى"(*). قال مُتعجّلة، ترتجى أن تكون مُصيبة فى اسم المشروب البارد الّذى تستطيبه .

(*) خمر إسبانية.

"بيرة، وشكراً لك" قال جورج بابتسامة دمثة لكن مقتضبة. كانت تعلم أنّه يخشى النوادل، فبالنسبة إليه، قد يكون القديس بطرس يراقبه من زاويةٍ ما، و يقدّر تصرفاته .

"شكلك حلو ".

كانت تلبس فستانًا طويل الأكمام سابغ الأطراف كانت قد اشترته لأجل عيد زواجهما الخمسين .

"آه، هذا. هل تذكره، اشتريته من إيستبورن مع البنات، مغسول جيدًا، أليس كذلك " وابتسمت مُردفةً " يبدو أنّك قد تأنّقت أنتَ الآخر".

كان يلبس حمالتى بنطلون منقطتين فوق قميص بنّى مربعات وسترة بيج خفيفة استدعت غسيلها بالبخار قبل مجيئهما . كان ينقّر بأصابعه فوق الترابيزة ، فانزاحت مزهريّة هشّة قليلاً، ويمطّ عنقه صوب الأبواب المزدوجة .

"أفكّر ما إذا كان ينبغى علىّ مهاتفتهما بالغرفة" قال وهو يلقى نظرة على ساعة معصمه .

"لا تزال السابعة".

"كان يريد تناول العشاء فى الثامنة، حسن. لكنّى قُلت له إننى و زوجتى نفضّل المضى فى السابعة إذا ناسبه ذلك، وقد وافق، سوى أنّ المرء لن يعرف أبداً ما إذا كان وعى الكلام ".

"ألا يتكلّم الإنجليزية إذًا ؟". قالت دوروثى بشفّة مرتعشة:

"بلى. بل ولديه لكنة حقيقيّة، بلا هراء zis وzat القديم".

"وزوجته ؟".

"لا أعرف؛ فلم ألتق بها .كانت فى جلسة تدليك بالمنتجع كما قال لى ".

"هى شابّة إذًا ؟".

"لم يقل لى".

"طيب، عُمره كم ؟".

" لا أدرى، إنّما يبدو لى بين الأربعين والستين ".

"آه ".

لفّ جان وآنّيمايك الأبواب المزدوجة، جنبًا إلى جنب، وقد وضعت آنّيمايك يدها فوق ذراعه كأنّها ترشده. كان الرّجل البلجيكى يلبس سترة رياضيّة وبنطلونًا كاكيًا، أمّا زوجته ففستان محبوك على خصرها بخرزات على طوقه وفتحة واسعة ذات أهداب. كانت فى كامل مكياجها ، ساخنة الألوان ، وقد طلت جفنيها باللون الأخضر، وفوق محجرىّ عينيها بالبنّى الدّاكن ، وباللون الأحمر البرّاق عظمتى الوجنة البارزتين. كانت تضع طلاء شفاه أسمر مصفرّ لامع ، يشبه مربى برتقال تجمدت .

"امرأةٌ عجوز " فكّرت آنّيمايك، مُلقّية نظرة على دوروثى ثم جان، ترتجى أن تتصيّد عينيه كى يعرف أنّه لم يترك لديها انطباعاً؛ فلو كانت ترغب فى

العشاء برفقة عجائز فى فسحتها إذا زارت أمّها. "هذه فُسحتى" راحت تكلّم نفسها ، تُعد حواراً كانت تنخرط فيه لاحقًا .

كان جورج مُبتهجًا، وقد نهض ليسحب كرسيًا لزوجة صديقه، مُشيراً فى الوقت نفسه للنادل ليجىء.

"شراب" كان يقول وقد كوّبَ كفّه ورفعها لشفتيه ، مُردفاً " عطشان ..."

"كمبارى وصودا " قالت آنّيمايك تلمحٍ بالبصر ، وقد أسندت وجهها فوق يدها المدهونة بطلاء الأظافر.

"الآن هذا هو الشراب" صاح جورج وقد اتسعت عيناه مُشيراً ناحية نادلهم .

كانت الغرفة عبارة عن ساحة نظيفة واسعة محفوفة بعمدان، يغطى الرّخام أرضيتها ، وترابيزات مُدوّرة ثقيلة، كل منها مكسوّة بثلاثة شراشف للمائدة ومناديل كبيرة متناسقة الألوان، فوقها ثلاث كئوس. كانت النوافذ الزّجاجيّة تعكس وهج لمبّات الترابيزات الوفيرة والثُّريّات المُتدليّة ، لكنَّ أماكنَ أُخرى كانت تحتفظُ لنفسِها بمساحاتٍ حالكةٍ خالية تُشرفُ على نوافذ مفتوحة؛ لمن تاقت عيناه للراحة. على طاولة تُحاذى شباكًا مفتوحًا، كانت امرأة فى الستينات، تجلس قبالة رجل أسود شاب. نشّف فمه بشكل مرهف، وقد دأبت عيناه على الحركة مثل يمامات بيضاء جفلت جراء ضجّة مُباغتة ، لكنها أعادتهما

بيديها الكبيرتين الناعمتين اللتين تلوّحان بهما فى الفراغ. كانت العجوز، ذات الذقن المنتوفة بشكل ردىء وثديين مرتخيتين، تدفع بقطع وكسرات إلى طبقه بسكينها و شوكتها، وتهزّ رأسها فى إصرار على إطعامه.

جاء النادل وأشار إلى بوفيه المأكولات البحرية، قرنفليّة بصليّة الهيئة ، لمّاعة ، ممزوجة مع خسّ مقطّع مُقدّم فوق صوانى من مكعبات ثلجيّة منثور بينها شرائح ليمون.ابتلع جورج ريقه بصعوبة وقصد البوفيه لا يشغله إلا الأطباق الفضيّة الضخمة مكوّماً الطعام فى طبقه، الّذى قعد إليه بمجرد أن أخذ مكانه على الترابيزة. أكل سريعاً دون أن ينبس بحرف.

كفّت آنّيمايك عن الأكل و انتظرت برهة قبل أن ترفع كأسها وتصيح: "ابتهجوا"نظر إليها جورج وقد ابتلّت شعيرات شاربه الخشنة وصاح :"فى صحّتك " .

"تناولى طعامك يا عزيزتى " وحطّ جورج يده على مرفق دوروثى التى حدّقت بطبقها التى أعدّته بنفسها تُقلّب شوكتها فوق شرشف المائدة مرّة أو اثنتين.

سألتها آنّيمايك:" المحار لذيذ يا دوروثى، ألن تجربيه ؟" .

"لا" .

"ماذا اخترتِ؟" .

"لا أدرى:" .

توجّه الجميع بالنظر إليها تاركين عشاءهم، فسارع جورج بالقول، وصوته يتأرجح على الحافة الوعرة للغضب .

"طبعاً يا حبيبتى أنت تهذرين؛ فأنت تدرين جيداً ما اخترتِ".

"أعجز عن التفكير فى الكلمة المناسبة، رغم ذلك. أقصد اسمه"قالت و الشّوكة تهتز فى يدها جدّاً فأعادتها فوق المائدة .

"إنّه الجمبرى، أكلتك المُفضّلة التى اعتدنا تناولها على الشاطئ كل أسبوع" تنهد بصوتٍ مسموع وهتف:"لدى جوردون بينيت".

"يبدو أنّى عجّزت".

رَنَتْ آنّيمايك نحو زوجها، دون أن تنجح فى تصيّد عينيه، ومسحت فمها بخفّة، وهى تقول لدوروثى:"إذًا فتلك هى أول مرّة لك فى الكاريبى ؟".

"نعم".

"بالنسبة إلينا ،لا. فقد كُنّا بالجوار عدّة مرّات. جُزُر فلوريدا، المكسيك ، ورُحنا سانت مارتن وترينيداد قبل أن تصير شعبيّة لتلك الدّرجة، قبل أن يعرفهم أحد، طيب، إلى ما صارت تلك الأماكن الآن.. حزمة أماكن على بعضها بقصد الزيارة السريعة ... نُمضى إجازة صيد طويلة سنويًا ، أحيانًا مرّتين، طبعًا فضلاً عن الإقامات القصيرة فى أوروبا. لكن، بلى، نستطيب

الذهاب إلى المنتجعات الرّاقيّة أسبوعاً أو أكثر. أظننا نستحق تلك الأسابيع القليلة. كُنتُ أرجو لو أمضينا المزيد من العُطلات ورأينا الكثير، سوى أن عمل جان يأتى بالمقام الأول؛ فهو ينظر لنفسه كمساهم لخير البشريّة، ولمادام أقول له إنّها أُجرة سيارة يا عزيزى. لقد رأى ابناى العالم وأنا أرى الفارق فيهما، أظن أنّه من المفيد للمرء، معنويًا، أن يسافر ".

"كيف؟" سألها جورج.

توقفت آنّيمايك و أخذت رشفة من نبيذها .

"السفر يفتح آفاقاً واسعة للأحاسيس والعقل، وطبعاً ثقافيّاً وخلافه ".

صبّ جان النبيذ فى كئوسهم ، يهزُّ دماغه .

قال جورج :"ما كُنتُ لأعرف؛ فكلانا من هواة القعود فى البيت ، وأنا أحبُّ طريقتى بالحياة كمبدأ وأظن أنّه من الأفضل لنا جميعاً أن نظل مُسمّرين، ملازمين لطبيعتنا ".

رنت آنّيمايك مجدداً صوب زوجها سوى أن جان، وقد أحس عينيها مُسلّطتين عليه، أخفض وجهه وشرع يمضغ لُقمة بإيقاع ثابت السّرعة .

"أتفهّمك" مُردفاً" لقد أمضيتُ وقتًا عصيبًا فى إيطاليا أثناء الحرب، لكن تلك ظروف خاصة ، لا تنطبق عليها القواعد المعتادة ".

" آه، مرحى لعالم بلا قواعد مُعتادة" . قالت آنّيمايك.

"دائمًا ثمّة قواعد، إنّما أنت من يختار إمّا أن تتبعيها أو لا ..." انخرطت دوروثى فى الكلام. كانت مُندهشة لرؤية المرأة البلجيكية تتورّد، وقد احمرّ خداها الخشنان مثل كعكة ، وارتخى فمها ورقّ فيما رجل ضخم يقترب من الترابيزة متوجهاً بكُلِّيَتِه لها "مساء الخير "ثم مُلتفتاً نحو الباقين مُكتفيّاً بإيماءة وابتسامة .

"أهلاً بك "قالت آنّيمايك" من الرائع أن أراك مرّة أخرى. جان ، هذا ..آسفة ، نسيتُ اسمك ".

"بيلّ مولونى" مدّ الرّجل يده نحو جان ثمّ رفعها جـواره فى تحـيّـة لجـورج و دوروثى ، وأردف " لن أعطّلكم ".

جلس إلى طاولة مفردة، على مسافة منهم و أومأ بالتحيّة مرّة أخرى فيما آنّيمايك تتفحّصه بنظره، ثمّ لاحقاً، مُمسكاً نظرتها الخاطفة المترددة ، رفع كأسه وبصوتٍ عالٍ صاح :"بصحتكم!".

ردّ الرجلان بشغف.

"إنّها نفسه من ينبغى عليه أنْ يهتم بشأنها. قابلته بمكتب الاستقبال. فاكر، لقد حكيت لك عنه يا جان ؟ أظن أنّه مشغول بى. آسفة " قالت باستهجان خفيف.

"الجنس. كل تفكيرك "قالت دوروثى مُغمغمة بصوتٍ خفيض لكن كافيًا ليسمعه الآخرون. حدّق جان فيها، فاغرًا فاه لبرهة فحسب ، وشوكته تتأرجح قبل

أن تصل فمه. أمّا جورج فقد تجشأ وشرب بجلبة من كأسه.

"لقد أتينا هنا على نفقة حفيدتنا التى أهدتنا التذاكر، كمفاجأة؛ فلم يسبق لنا أن شاركنا بمثل هذا النوع من البهجة . رغم ذلك ، لا يمكنك الشكوى " قال جورج مُنتصباً قليلاً وقد أمدته صراحته ببعض القوة:

"إنّه الأمر ذاته بالنسبة إلينا "قال جان": التذاكر هدية لنجىء إلى هنا من ابنينا".

عاتبته آنّيمايك: "لكننا نقدر على المجىء بمفردنا يا جان !" مردفةً " فتلك النوعية من العطلات عادية بالنسبة إلينا. سوى أنّه ابننا الكبير، الّذى يلقى نجاحًا كبيرًا فى عمله، فقد اشترى منزلاً ضخماً فى بروكسل بنحو مليونى يورو . صديقٌ لنا، يعمل سمسارًا بالبورصة، أخبرنا أنّه استثمار مربح جدًا. ابنى هذا يحبُ تدليل أمّه ، وهو ينفق الكثير علىّ. لكن تلك، مناسبة خاصة جداً، كما ترون. فسحة أخيرة؛ فزوجى مريض للغاية. مُصاب بالسرطان ".

وضع جان سكينه وشوكته جنبًا إلى جنب فوق طبقه وأغلق عينيه للحظات. وتمنّت دوروثى لو تملك ملقاط زبالة وفرشاة ، كانت لتكنس بهما إثر المرأة البلجيكية . كانت قد لاحظت أن المرأة تُسقط بعض الكسرات من العيش وهى تبرمه فى يدها ، مُتقلّبةً فى كرسيها، ناظرةً من فوق كتفها نحو السيد مولونى ثمّ صوب زوجها و لهم.

- ٨ -

كان لدى جان الكثير ليشربه برفقة جورج تلك الليلة، بعد أن غادرتهما المرأتان لهذا الغرض، سوى أنّ النوم كان لا يزال يراوغه؛ بسبب من تأثير الأدوية.

ليلة تلوالأخرى، يرقد جان مستيقظًا يقلّب الفكر فى ماضيه. كانت الحقائق المجرّدة ما بقى منه. شريكه فى العمل، صديقه الوحيد، أندريه ديفريس، غشّه فى تلك السنوات الأخيرة، حين اضطر جان للتقاعد بسبب مرضه، وجرّده من الأجزاء التى تدرّ أرباحاً فى شركتهما ـ وكذلك من زوجته وابنيه، الذين انكبّوا على رحلات بعيدة هنا وهناك، والتمتّع بالأيام المُشمِسة فى المطر، فيما يلوذُ هوبالدّاخل.

"هو يحبُّ الضحك، وكذلك أنا، والولدان أيضًا ينبغى لهما أن يضحكا " قالت آنّيمايك تشرح، بعد أول مرّة خرجت هى والولدان برفقته إلى بروغ لأجل الغداء يوم أحد. لبست سترة عديدة الألوان، محبوكة على صدرها، وجوبًا طويلا عسكرى التصميم بأشرطة، فشدّها من ذراعها.

"هـذا هـوالـرّجل الّـذى سـرقـنى، وسـرقـنى تـعنى سرقنا يا آنّيمايك".

"لكنه يملك تفسيراً للأمور. أتمنى لوتنصت له. إنّه يـقـصـد زيـادة حـجم رأس مـالـنـا، طـيـب، ومـا الرأسمالية، المدّخرات السائلة، هذه هى الرأسمالية، النقد، ثمّ يُعيدها إلينا كمدخرات مرّة أخرى، ممتلكات وهلم جرا، سيوسّع الامتياز، ثمّ يعطينا نصيبنا وهكذا لن تضطر للعمل يا جان. انظر لنصف الكوب الممتلئ، لا تستسلم لجنون ارتيابك ؛ فنحن سنرعاك، وأنت فى حاجة للراحة " كانت تقول كل ذلك وهى تنهج، بشكل دفـعه إلى الـتسـاؤل مـا إذا كـانت تـنـهج بـسـبب من الانفعال أم لأنّهم كانوا يركضون بوقت مُتأخر. لم تُعر على الإطلاق انتباهاً ليده التى تحوط ذراعها المرفوع. " يجب أن أرحل يا جان؛ فأنت لن تنصت له، أبداً، لن تـعـطـيه فـرصـة؟ لـيس خـطـأ أنـدريه إنّك أُصـبت بالسرطان. لديك عُقدة اضطهاد ".

"تبدين رخيصة" قال: " أنتِ رخيصة".

"كُفّ عن هـذا؛ فـأنت تحـقّـر نـفـسك "ردّت فى هـدوء، جعله يترك ذراعها تسقط فوراً. بالـنسبة إليهما، لولديه، لابد وأنّه يبدوحماراً. لابد وأنّه خطر ببالهما أنّه قد جُنّ، ويجوز أنّها الحقيقة. يجوز أساء فهم ديفريس. لقد عملا معًا لسنوات، كأصدقاء.

ثمّ دقّ أحد الولدين على باب المكتب:"ماما"ناداها دون أن يدخل فمشت. وحين تناهى لسمعه صوت باب

المطبخ ينغلق، صاح بطريقة جبانة:" أمّك عاهرة ومع ذلك ما زلت تحبها "ثم أردف:" وماذا عنّى" ثمّ، وقد أحسّ بالخجل البالغ، انهار فوق الأريكة وراح يبكى.

فى الغالب، حين يكون على وشك النوم فى النهاية، كان يرى الهيئة المستبشرة لحاجبى ديفريس يحدسان بمطمح فورى وسهل. كان لديه إحساس مُفزع أنّه حين يموت، كان يرى وجه هذا الرجل. اضطر لبذل جهد لينحيه جانبًا، ليرى ما سواه فى ماضيه، أبعد، الفترة الأكثر بهجة فى حياته، طفولته المتواضعة الريفيّة، الرقيقة والطيبة مثل بودنج الأرز، اللبن الغنى بالدسم والسقاية بماء المطر. أيام من الرّاحة، وخبيز المروج تحت نور ناعم، أمّ دافئة وعطوفة، جاهزة بملابسه الدافئة المنشورة أمام الموقد، رائحة روث البقر، التمشيات الطويلة وأبّ مات فى الحرب. أى شىء زيادة قد يعنّ للصبى طلبه ؟ أمّه ساهرة عليه وهو روحها.

لو أنّ ذكرياته تهدأ فحسب قليلاً، لكن لا، إنّها تخبّ بكل اتجاه، بخطى إوزة داخل الماضى القريب، متشبّثةً بالصور الفوتوغرافيّة للعطلات التى التقطت قبل مرضه. أربعتهم، أندريه وهو وزوجتيهما، فى أماكن بيضاء غالية بأيدى عاملة سوداء رخيصة، جُزر المالديف، موريشيوس، عُطلات بدأت منُذ كان الولدان فى مدرسة داخليّة، منذ عشر سنوات خلت. تطورهم الثانى ربما، كان اكتشاف آنّيمايك للجنس مرّة أخرى، لا معه، بل مقايضة لقاء منحوتات خشبيّة كأنّها

تقايض الحياة بذاتها، تبتهجُ بنصرها على البنسات، وتدعك جسدها بالغسول المضاد للالتهابات وقد أوصدت باب الحمام. استدعى زوجة أندريه أيضًا، لوسى، جالسةً إلى ترابيزة عشاء تلوالأخرى دون أن تنطق بكلمة، أحياناً تلتقى عيونهما وقد تركا الآخرين يتمايلان. وحدهما، يوحدهما الشراب، أنا أشرب. أنت تشرب. هو وهى والشراب. كُلّنا نشرب. عقب تشخيص المرض، كفّ عن الشرب فترة، حين كان مؤمناً بالمؤسسة العلاجيّة. قالوا إنّ جسده فى حاجة لفرصة، وكان عليه أن يجد وسائل أخرى للاسترخاء. فكّر أنّها كانت لتجعله أقل إحساساً بالمرارة لكنّها جعلته أسوأ، بجعله واعياً ومستاءً. كان الاستياء ما توجّب عليه أن يركله، وليس الشراب. وكان هذا هو السبب وراء عجزه عن النوم.

حين يتمدد مستيقظًا مع كل تلك الأفكار التى تعتلج برأسه، كان يعود أبعد للعثور على أمور أفضل. الأبناء. ولدان يكبران بغاية أن يصيرا قويين عقلاً وجسداً سوى أنّ نظاماً معيشيًا جديدًا بغتة أحاط بهما، نظام ملتصق بأصدقائهم. الفقدان السريع للثقل الأخلاقى، فقدان الرأى والقدرة على الإقناع. وجدا، معًا، فى السخرية طريقة سهلة للتصرّف. مسألة جيل كما أخبراه، فيما يجلس فى حجرتهما وقد وضعا سمّاعات الرأس ورفعا قدميهما على الحائط. ابتهاجهما لفترة وجيزة لدى عودتهما بزوج جديد من الأحذية الرياضيّة من بروغ.أبواب مُغلقة. كان يقولان

لكل شيء :"أنا لا أفعلها على نفسى"،كيف يقدر على النقاش حيال ذلك ؟مؤكد سيعجز. كان يحسدهما.

توجّب عليه أن يقف صامداً، ليعود للوراء أكثر. لقد ملآه بالنشوة ولا يزالان صغيرين. أنهكاه فى عطلات نهاية الأسبوع وبعد العمل، وملآه نشوة. نشوة السقوط فى الحُبّ، يوميًا. كان يوشك أحياناً على البكاء بفضل فرصة رؤية الدُّنيا عبر عيونهما. بن فى السيارة، الأكبر بنحو أربع سنوات، يُعدد الأسباب الّذى أشعرته بالسعادة هذا اليوم. ماركوس، المؤذى جدًا، جعل البابا يختبئ تحت السرير، ويظلّ جان ماكثاً هناك دون أن ينتبه إلى أن الصبى يتناول عشاءه بالدور التحتانى. هذان الولدان، كانا ليكونا.. لا يدرى ماذا. اعتاد أن يومئ لهما بسرعة وبصرامة حين يلقى عليهما تحيّة المساء ؛ ليهرول سريعًا خارج غرفة نومهما كى يتحاشى أن تجرفه مشاعره ويفصح عمّا يكنّه لهما.

قبل ذلك كانت هذه حال آنّيمايك. لكنها صارت حبيسة عيوبه، من وجهة نظرها. كانت رهينة مُحترفة. نشأت فى أنتفيربن بعد الحرب ـ مع قصص أمّها التى ضخّمتها بنفسها، حكايات عن الكوميونة اليهوديّة التى جُرِفت بعيداً رغم مساعيها النبيلة. أخبرتها أمّها أنّهم أنفسهم تجرى فى عروقهم بعض الدماء اليهوديّة. ربما كانوا ليواجهوا ذات المصير مشحونين على متن قطارات ! قالت إنّها مُعجزة أنّهم لا يزالون على قيد الحياة. أمّا والدها فأنكر

حكاياتها، "إنّكِ تبالغين" كان يقول بكل مرّة رآهما فيها جان معًا. كانت ذكريات زوجته المبكّرة، كما حكت له مرّة، مصنوعة من حواديت الليل التى تنجرف إلى اعترافات غير مبررة وخفايا. (كاشفتها أمّها أن تمقت أباها ؛ لأن حياتها انتهت يوم تزوجا)" ما نفع حياة بلا حُبّ ؟" مصدرةً أنيناً " بُعداً للشرّ عليك أن تعانى مثل تلك الحياة. الحبّ كل شىء "لقد تركت انطباعاً لدى ابنتها.

فكّر جان قليلاً فى أمّه، كما فعلت هى. كانت زيارات أصائل أيام الأحد، مرّة كل شهر، كريهة بالنسبة إليه. كان الأب يقضى وقته فى بيوته الزجاجيّة، تاركاً آنّيمايك وجان والولدين يستمعان للمرأة العجوز المختلّة تسهب فى سرد جولتها الأخيرة من الكلام الفارغ الّذى قرأته الأسبوع الفائت فى الجرائد والمجلات التى تنشر الأنباء السيئة. كانت الأمّ من النوعية التى تقرأ كفاية لتصير شخصاً مُزعجاً، وكانت تملك مصطلحاً علمياً لتبرير كل أحقادها. وقد تمنّى جان لوكانت متماسكة عِوَضاً عن ذلك ؛ فحين لقى الأبّ نحبه ودُفِن، انتقلت المرأة العجوز للعيش فى عزلة بمدينة على الشاطئ تبعد ثلاثين كيلومتراً فحسب. وسرعان ما كانت المرأتان، أصيل كل يوم أحد، تجلسان فى شقّة المرأة العجوز المُطلّة على الساحل، فيما يشرب الولدين مشروبات خفيفة، تتناقشان بـ «المناخ العاطفىّ» فى بيت طفولة آنّيمايك كأنّ كل ذلك قد دام. شاهدهما جان من الشّرفة فى

مَعْرِض مراقبته للبحر، حيث ذهب لتدخين سيجار. لم يكن مُدخِّناً فى ذلك الوقت، سوى أنّ تدخين سيجار يستغرق وقتاً وقد أقنع نفسه أنّه نوع من التعويض عن الزيارة. وعبر الكتب والشرائط التى تُمرّر بينهما كل نهاية أسبوع، أمدّت الأمّ آنّيمايك بمتعلقات متناميّة من مختلف بدَع ساعد نفسك. غذّت أفكارهما حنيناً لوحشيّة مُتَخَيَلة، وتكلمتا عن رضوض وندبات بابتسامات متآمرة وتنهدات.

سأل جان آنّيمايك، وقد أضجره كل ذلك، أمام الولدين والأم، ما إذا كان الأب قد سحقهما حقًا. فردّت الأم.

"ثمّة أذى مادى وآخر نفسى يا جان، من بمقدوره القول أيهما أسوأ؟".

"لكن هل ضربك حقًا" قال جان فى طريقهم للبيت فى سيارتهم الـBMW.

"آه، إنّ أمّى تبالغ" قالت آنّيمايك، مُنسلّة بسعادة إلى شخصية أبيها. كانت حتى لتشكو من أمّها.

اقترح جان عليها أن تحصل على عمل، سوى أنّها كانت بالغة الغباء بالكليّة، لا جدوى منها. عجزت أن تصير مثله، يحرّك المركبات حول الريف بغرض الربح. كانت مشغولة بالولدين والبيت وأمّها ومجموعات النساء المتباينات. فى تلك المجموعات، بأمسيات الأسبوع، التقطت من لغة فلاسفة كثيرين ما ناسبها، من فرويد للنسويّة، ازدردتهم جميعاً. كانت تنطق بأشياء مثل: "المرأة زنجيّة العالم".

حين التقيا، شابةً، كانت تحوز خفّة بكل ما تفعله ـ خفّة دمّ فى الغالب ليس إلا. مع تقدّمها فى السنّ صار مزاجها أقسى ولم يكن يلين إلا باطراءات صغيرة، ليست منه، لأنّها كانت تشوّهًا على الفور، بل من الآخرين.

فى بعض الليالى، قبل أن يصيبه المرض، خصوصًا بعد حفلات العشاء بمناسبةٍ ما، كان يفكّر بإطلاق الرصاص على الجميع بما فيهم نفسه، فى فراشهم حيث يرقدون.

مرضك هو وفاء لأمنيّة، كما قد كاشفته آنّيمايك.

كانت فكرة مستعملة؛ فأندريه شاطر الفكرة مع جان فى العمل، وبعد خمسة أيام كررت زوجته فرضيّة عشيقها.

- ٩ -

كان جورج جاف الحلق حين استيقظ؛ بسبب الثلاث أو أربع كئوس من الإسكوتش التى شربها مع جان فى الحانة، بعد أن أوت المرأتان لفراشهما بالليل. كانت دوروثى تتحرّك بأرجاء الغُرفة، تُشبه منامتها مهلبيّة مربوطة بحزام رجالى، تزحف محنيّة مُطْلِقةً تنهدّات متوالية. كانت تراقب إبريقاً يغلى تُعد لهما كوباً من الشّاى. لديهما إبريق لبن صغير فى مُبرِّدهما، وكان يتغيّر يوميًا." أين البقرات ؟"سأل الفتاة التى ترتّب غرفتهما فحدّقت به بنظرة خالية من التعبير. خار مرّة أومرّتين وقلّد بيده حركة من يحلب بقرة، فغادرت الغرفة تهزّ رأسها مهمهمة.

جلسا معًا فى الشّرفة يرتشفان الشّاى، قويًا وقابضًا مثل النّور الجديد. عبّر عن إعجابه بالشّاى بتهيدة.

"قد اعتاد العيش هنا" أردف، ولم تقل زوجته شيئاً. أسرّ لنفسه أنّ سمعها يضعُف، سوى أنّ الحقيقة هى أنّها آثرت أن تحافظ على نفسها لنفسها بقدر ما تستطيع. ألحّ عليها من أجل ردّ.

"أقول، قد اعتاد العيش هنا ".

"وهل ثمّة ما يُقال بهذا الشأن ؟".

"محض رغبة فى الكلام".

التزمت السُكات.

بعد برهة عاد يتكلّم" يا له من رفيق لطيف، جان. قضينا ليلة أمس فى الكلامّ، لابد وأنّنا تكلمنا ساعة وزيادة..".

"طبعاً أكلت أذنه ؟".

أفرغ جورج كوب الشّاى وراح يتفحّص مشهد البحر.

:"من حُسنْ الحظّ، أنّه ما من كثيرين يشاطرونك رأيك السيئ بى ".

نهض ليضع كوب الشّاى بالداخل وتوقّف أثناء مروره بالباب المزدوج ليقول:"مزيداً من الشّاى ؟".

هزّت رأسها فترة طويلة جدًا، وقد بدا أنّها تكافح مع فمها لتؤمّن لأسنانها وضعاً مُريحاً.كانت على حقّ؛ فهى تتقدّم بالعمر. كان يرى ذلك واضحاً فيها، لا فيه، والحمد لله. رفع حاجبيه لصورته المعكوسة فى المرآة التى تنتصب فوق الخوان وترك كوب الشّاى حيث يمكنها العثور عليه بسهولة لشطفه.

بالكاد غفا أمس بسبب تفكيره فى الكلام الّذى دار بينه وبين جان. فتى مسكين، فى طريقه للموت ومع ذلك - كما أشار جورج - قد يموت هو نفسه أولاً.

سوى أنّه لم يصدّقه حقًا وجان من ناحيته كرر كثيراً: أنّك تُبدو غير قابلٍ للتلف يا جورج، الرجال من أمثالك يبقون للأبد ".

"أنا لا أقلق كما ترى. لا بشأن حياتى. بل أقلق بشأن الأسرة، لكن لوكنت ستسألنى هل كانت حياتى جيّدة إذًا لقلت نعم. فى الغالب بسبب الحرب، أحسّ بالامتياز جراء كونى جزءًا من شىء كهذا. لا يهم من أى ناحية تنظر لها ؛ فقد كُنّا على صواب. كم عدد من يمكنهم قول المزيد ؟".

التقط قبّعته وأخبر دوروثى أنّه يعتزم الخروج لعمل جولة حول المبنى قبل الإفطار، مُتبعاً بأنّه يمكنها الانتظار أوالأكل بدونه.

"لستُ جائعة، سأنتظر حتى الغداء وأرى إن كنت سأستطيع تدبّر عمل ما حتى إذٍ. ربما أعمل شريحة كويتشى أوحاجة خفيفة ".

"هذا كرمٌ منك يا حبيبتى" قال رافعاً حاجبيه. كثيرًا مما كان يفعله أو يقوله تلك الأيام كان لأجل فائدته. لم يُقبّلها، بل خرج ملؤه إحساس بالسعادة.

تمشىّ عبر الدَرَج الرئيسى، مرّ بالمطاعم وفى طريقه رأى الموظفين متناثرين حول المكان يشرفون عليه كلّه. رجل بقبعة قشّ قطب جبينه، وهو يحاول تثبيت شجرة ورد إلى دعامة طويلة. وقف جورج ليراقب حتى خلع الرجل قبعته ونشّف جبينه، والتفت صوب جورج.

"الشغل صعب فى مثل تلك الحرارة" قال جورج.

ضحك الرّجل :"كل يوم كذلك "وأردف "لسنا فى بيكاديللى، حى لندن العتيق المطر ".

ضحك جورج هوالآخر: "لقد كنت فى إفريقيا أثناء الحرب، تلك كانت السّخونة ".

أعاد الرّجل النظر بجديّة دون أن ينبس بحرف؛ فمع أنّه ـ جورج ـ يبدو عجوزاً، إلا أنّه أدرك بغتة أنّه من الجائز أن يكون صغيرًا جدًا على أن يكون قد عاش أثناء الحرب. كان جان مهذباً؛ فبالنسبة إليه الآن، أكانت محض "الحرب".

طافَ بمحاذاة بركة السباحة، وكبس وجهه بالواجهة الزجاجيّة الباردة لينبوع المياه المعدنيّة. ربّما كانوا اليوم يقدّمون جلسات التدليك. كان الغلام الجنوب إفريقى ذا اللكنة الأيرلنديّة يجلس لدى المشرب، رفيق هادئ وحلو، كان يقول إنّه رفيق طيب. «تدليك تحتى» هكذا دعاه. غلامٌ ظريف، عصبى، سكِّير بعض الشىء.

كان ثمّة مبنى مُلحق يجرى بناؤه بجوار الينبوع، كانوا فى عزّ تشييده، وكانت المساحة مُحاطة بالحبال. اندهش جورج لرؤية شخص بمفرده راكعاً على ركبتيه فى وسط أرضيّة نصف مبلّطة، عارى الظهر، وقد انبسطت أصابعه فوق البلاطات الأبيض فى أسود التى لصقها لتوّه. كان خلاسيًا بشعر ضفّره على هيئة ذيل حصان وقبّعة خلف عنقه. ثمّة وشم مرسوم على

ظهره لفيل متعدد السيقان وتاج فوق رأسه. حدّق جورج عن قرب. كانت النافذة مفتوحة فاستطاع سماع الرجل يتكلّم مع نفسه، يطمئنها.

"ليس شغلاً سيئًا" تجاسر جورج بالكلام.

التفت الرجل، كان كلّه عَصَب، رفيق شاب، وقد انشقّت ملامحه عن ابتسامة عريضة.

"مرحى "قال الشّاب.

"بالنسبة إلى مبتدئ ".

"ممكن أعرف السبب ؟".

"طيب، البلاطات التى لصقتها بها بعض الميل لأنّ ملاطك ليس مستويًا. ماذا لديك هناك، خلطة أسمنت أليس كذلك ؟".

"بلى، ممزوجة بالأكريليك؛ فالأرضيّة ليست مستويّة تحت".

"مهمتك أن تجعلها مستويّة، بُصّ للشغل المضبوط استعمل الأسمنت. لقد عملت فى لصق البلاط مرّة أو مرّتين، لستُ خبيراً إنّما سأساعدك لوكنت تحبّ ".

تفحّص الشّاب الأرضيّة وقال:" أظنّها ما كانت لتلقى قبولاً من الإدارة ".

أومأ جورج.

"من المفترض أن أفرغ من لصق الأرضية فى العاشرة ".

هزّ جورج رأسه: "لن تنجح فى ذلك أبداً؛ فما زال لديك عشرون قدمًا مربعًا لتغطيها ".

:"إذًا هيا إذًا !".

خلع جورج حذاءه، ودلف للغرفة من باب جانبى وتحرّك ببطء حول الحواف، ثمّ انكفأ على يديه وركبتيه زاحفاً للمنتصف، جفل وندت عنه صرخة مرّتين.

سأله رفيقه: "تمام؟".

"بلى، إلى أن أنهض" قال جورج" عمرى تسعة وسبعون عاماً كما ترى. الجسد ملؤه أوجاع وآلام لكن ثمّة حياة تنبض فى عروقى حتى الآن". ومدّ يده للشاب :"جورج ديفيز".

ردّ الشّاب:" آدم ".

"من لندن".

"هاكنى، الميلاد والنشأة".

"جيد، أنت تعرف إذًا أمرًا أو اثنين بخصوص العمل الشّاق. نحنُ تمام هنا فى المنتصف. لكنها الوَزَرَة التى تحوط الأطراف هى المشكلة، صحّ؟ تلك هى التى ستستغرق وقتاً. عليك بالأطراف فبصرى ليس على ما يُرام، أمّا أنا سأضبط لك المسائل فى الوسط هنا".

"معقول" ردّ الرفيق وراحا يشتغلان، مع العاشرة كانا قد أنجزا أكثر من نصف العمل.

"سننجز العمل فى الحادية عشرة لوصمد ظهرى "قال جورج معتدلاً مصدراً أنيناً طويلاً. رأى عبر النوافذ زوجة جان فى الجاكوزى ولوّح لها. لم تره. كانت مشغولة بالكلام مع السيد مولونى، وقد بدت غاضبة.

- ١٠ -

بمجرّد أن غطس بيلّ مولونى فى الجاكوزى، نطّت المياه مثل دفقات تنسكب من دلو، واندلقت تغمر جانب المسبح، مُخلفةً شبه دائرة رماديّة داكنة فوق البلاط المحيط. ما كان يمكن له أن يكون أقلّ جاذبيةً لها، وقد بلل جسده بالماء نفسه الّذى جرى تعقيمه بدرجة عالية أضرّت بشكلٍ بالغ بتوازن سوائل الترطيب فى بشرتها. غسل أسفل إبطيه، ثمّ رفع يديه يضعهما وراء رأسه، عارضاً خُصلات شعره المبلول المُدلاة مثل عشب بحرى من تلك الأشكال الماسيّة العارية من الألوان.

"كُنتُ أُراقبك".

فكّرت بالرحيل، لكنّها لم تستسغ استعراض فخذيها وعجيزتها أثناء خروجها من المسبح. كان السّارُنْج(*) بعيداً فوق كرسى المسبح، حيث لم يكن ثمّة أحد حين جاءت هى وجان. ندت عنها ضحكة خشنة، كقطّة تسعل كرة من الفراء.

(*) لباس يتألف من قطعة قماش تكتنف الجزء الأدنى من الجسم على شكل تنّورة.

"حقًا" قالت، تلمس العارضة المذهبة السميكة لنظارتها الشّمسيّة.

"هل سمعتِ عن تزاوج الباندا بحديقة الحيوان الآن؟ لقد أغضبت الإشارة خارج قفص الذكور، حسنًا، إناث الباندا، يُقال أكُلْ وجامع وغادر الآن، لا أرغب فى أن تحسبينى من هذا النوع من الحيوانات".

أغلقت عينيها: "جميل".

"هل ترغبين بمرافقتى على الغداء ؟".

"كلا شكرًا".

"آه. تعالى الآن..".

خلعت نظارتها الشمسيّة بسرعة فتأذت عيناها من وهج الشمس. "انظر.. مؤكد أنّك رأيت ليلة أمس أنّى هنا مع زوجى".

"آه. بلى. يبدو رفيقاً لطيفاً. لا تقلقى؛ فأنا رجلٌ فطن فى طريقة تعاملى مع الأمور، إنّه سرّنا فيما يتعلّق بى".

"كلا. ليس سرًا. إنّه لا شىء. لا شىء على الإطلاق".

"لا شىء".

"بالنسبة إلىّ. كان لا شىء".

"لكن بالنسبة إلىّ لم أحسّه لا شىء".

"هل تنوى أن تجعل الحكاية تمرّ أم تعتزم جعلها مشكلة ؟".

"حسناً، لست فى حاجة لتضخيم الأمر" قال. ثمّ، وقد ظننّته تأثّر أخيراً، انشقّ وجهه الّذى يشبه القمر ـ غمرت نصفه حُمرةُ ردَّةِ فعلٍ حساسة، بسبب من المسبح أوالشمس أوالشرب، لم تدرْ سببًا ـ عن ابتسامة دافئة.

"زوجى مصاب بمرض ميئوس من شفائه" وأردفت" إنّه يحتضر تحت وطأة السرطان، لا أرغب فى مضايقته".

"تبدوالأمور كأنّك المتضايق الآن".

"طيب. فكّر كما تشاء؛ فالحكاية برمتها ليست ذات أهمية حقًا بالنسبة إلىّ".

غمر يديه بالماء ليريحهما فوق ركبتيه وحدّق مباشرة فيها.:"أنا غرضى شريف، هكذا أنا، سوى أنّ امرأةً جميلة مثلك، فى طريقها لعمل حاجات لن تسرّها، الآن لماذا ؟".

فكّرت، أنّهما الآن بالضبط بالموضع الصحيح بالنسبة إلى حوارهما، فى ماء ساخن يغمرهما حتى عنقيهما، ورغم رغبتها بالخروج لتنشّق الهواء الطازج أوعلى الأفضل البقاء للتحمم فى مياه المسبح الدافئة، كانت مُسمّرة هناك، كسلطعونة فى قدْر.

"انظرى، لست من نوعيّة الرجال المتسكعين الذين يُجامعون النساء طوعاً وكُرهاً " وابتسم، مُعتصراً عينيه المغلقتين كأنّما يمسح أى أثر لتلك الكلمات ويبدأ من جديد:"ما أعنيه هو أنّى أعرف ماهية

مقاومة الشهوات الدنيويّة. انظرى لى فحسب؛ سترين من هو بالجانب المنتصر. لا يتعلق الأمر بإرادتى الحديديّة، وهل يتعلّق بها الآن ؟ نحن اثنان كما ترين، لا يعرف أحدنا الآخر، ومع ذلك حصل". رفع كفّه ليمنعها من قول شيء، وتابع :" لقد حصل ما حصل ولن نستطيع محوه، وسأقبل بما تقولين حين تدّعين أنّ الأمر لا يُمثّل شيئاً لك، سوى أنّى سأقول أيضاً إنّى لا أصدّقك. عموماً، ما أرغب بقوله كما أنّنى لا أشعر بالسوء حيال ما جرى، وهولا يجعل منك امرأة سيئة، ليس بدرجة كبيرة".

"أعلم هذا، شكراً لك".

"النوم مع غريب، أعنى".

"رجاء...".

"حين تكونين متزوجة، وزوجك متوعك". افتر عن ابتسامة سريعة وتبعها بمطّ شفته السُفلى حتى جانبى ذقنه على نحو اعتذارى." ثمّة ما هو أسوأ. أعلم ذلك. أنا نفسى كيس نفايات رهيب ".

"رجاءً سيد مولونى" قالت ببطء، تُجرّب ابتسامة مُزيّفة مُكتشفةً أن شفتيها قد فقدتا براعتهما التى كانتا عليها من قبل." اتركنى وحدى فحسب ".

رفع يديه :"سأتركك، سوى أنّى سأقول لنفسى، إنّها تعانى، تلك المرأة الرائعة، وهوأمر مُحزن جدًا فى مكان كهذا، والّذى يشبه جنّة، يجعلك تفكرين" أردف،

وقد رفع أصبعاً منذراً: "أين تُراها تكون الجنّة أوالجحيم ؟ هل هما داخلنا أم خارجنا ".

" أنت غير معقول". قالت تهزّ رأسها.

نهضت للخروج، فانزلقت جراء عجلتها. رفعت ساقاً مرّة أخرى وتسبب فردها فى حشر ثوب السباحة بشكل غير محتشم بين فخذيها. كانت الآن تكشف، حامية وعن وعى، كلّ مؤخرتها المعروقة الحمراء، هكذا أقسمت لنفسها.

"هل أمدّ لك يدّ العون؟". سألها وقد نهض بغتة، أحسّت بظلّ جسده الضخم يحول بينها وبين الشمس.

هزّت رأسها ونجحت تلك المرّة فى الخروج من المسبح والوصول إلى السّارُنْج، الّذى لفّت جسدها به سريعاً، وقد غطى شعرها المُبلل وجهها.

-١١-

حين بلغ جان البار، كان جورج وزميله آدم، يجلبان أمام كأسين لامعتين من البيرة وطبق بيتزا نصف فارغ. كان النهار قد بلغ منتصفه فحسب، سوى أنّ حشدًا صغيرًا من الزبائن قد اجتمع، يكبسون سجائرهم بالمنافض ثمّ يعودون لتدخينها، ووراءهم، على الجانب الآخر من المشرب، مجموعة من الأمريكيين قد أشاحوا بوجوههم بعيداً عن المدخنين عمداً، مُعيرين انتباههم للزوجات. كانت إحداهنّ تجوب المكان عارضةً أكياس سكاكر صناعيّة فى سلّة، وقد شرحت الأمر أنّه قد توجّب عليها الذهاب للمطعم من أجل الحصول عليها.

"إنّهم لا يضعونها أبداً هنا على المشرب "وافقها الآخرون على أنّه حقًا أمر غير مألوف." لقد طلبت منهم بالأمس أن يبقوا بعضًا منها هنا، سوى أنّهم أعادوها للمطعم ".

"مزيد من الثلج من فضلك". قال شاب أمريكى لوحته الشمس، دافعاً كأسه الطويلة عبر المشرب، وقد تراجع خمسة من أصدقائه خطوة للوراء، متبادلين

النظر يكتمون ضحكهم وقد أمسك البارمان بمكعّب ثلج واحد فى الملقط.

"هوّن عليك أيها الزميل الشّاب فى حمل هذا الماء المتجمّد " قال رجلٌ آخر على الطرف، مُمازحاً.

كان جورج وجان فى صدر المشرب بين الجماعتين.

" الأمريكيون لا يحبّون التدخين السلبى "قال آدم، مُتبعًا عبارته بإيماءة برأسه ناحيتهم:

"ينبغى أن يكون كلّ شىء لديهم جديداً" تنهّد جورج، ونشّف جبهته بمنشفة الشاى الخاصة بالساقى. أسعدته رؤية جان، وقد نهض وتحرّك قليلاً كى يُفسح مكانًا له بينهما.علل له عملهما الصباحى مع وفرة من الهمس الّذى يسترعى الانتباه، موزعًا نظراته المستريبة نحو البارمان والنزلاء الآخرين.

"لأنّى لا أرغب فى نفخ الصّافرة على الزميل الشاب، فقد توجّب علىّ مساعدته وإلا لن ينجز عمله أبداً، تمام؟" قال لجان فى همس ثقيل.

رفع جورج حاجبيه سعيداً متورّد الوجه، هازئًا فيما يبهجهم آدم بعدم تصديقه رؤيته الزميل العجوز ينفض حذاءه وينخرط فى العمل.

"لقد عجزت عن مجاراته"ضاحكاً" وكُنتُ أفكّر بينى وبين نفسى طوال الوقت أن هذا الفتى الكهل لابد وأنّه على الأقل فى الستين ".

"أوه، جميل جداً يا بُنى" قال جورج يمسح طرف فمه بيده " ستكون ذا شأن لكن ليس فى القرمدة. الدور على من ؟"سأل؛ فطلب جان ثلاث كئوس بيرة أخرى وطقطقوا أكوابهم.

"نخبكم".

"فى صحتكم"

"نخب صحتكم".

"وأنت هل تأتى إلى هنا أثناء عطلة العمل يا جان؟" سأله الشاب، مُغمضاً عينيه نصف إغماضة اتقاءً للشمس.

ذكّر جان بابنه الأصغر، بشعره الأشقر المنسدل فوق حاجب واحد وتعبير خفيف بالاحتفاء بالذات يتراقص حول فمه. هزّ جان رأسه وابتسم، وقد نسىَ الآن ما سؤِلَ بشأنه.

"لأنّهم يريدوننى فى أداء بعض العمل فى أحد الحمامات تلك الظهيرة وقد فكّرت أنّه ربما أجد فيكما سيدين يسهمان فى العمل ".

هزّ جورج رأسه: " انظر، من غير ريب أنا من نوعيّة رئيسك أكثر من أن أكون عاملاً عندك. وعموماً، فقد صارت لديك مهارة القرمدة الآن. أمّا بالنسبة إلى جان، فهو من ذوى الياقات البيضاء تماماً ".

"معذرةً؟".

"من أصحاب المكاتب. الإدارة".

توردت وجنتا جان ولفحت سخونتها الهواء، هازًا رأسه بإحراج :"كلا، لا،لا. على الإطلاق ؛ لقد تربيت فى مزرعة ثمّ امتهنت استئجار السيارات، لذا فقد تمرّست بالأيام الخوالى بالعديد من الأعمال الميكانيكيّة، والإصلاحات، بنفسى.فقط السنوات الخمس عشرة الأخيرة هى التى قضيتها خلف مكتب، أكيد، لكن ليس دائمًا ".

لاحظ أن جورج بدا سعيداً بإجابته، مُقلّبًا وجهه المحِمّر من أحد المعارف إلى التالى، بالتثاوب.

"وكيف أتيت للعمل هنا ؟" سأل جان آدم مُتكئاً إلى الأمام، مُريحاً ساعده فوق مُنبسط الطاولة المُبلل. نمّت عباراته عن إحراج أن ظنّ نفسه لوهلة فى مقابلة صحفيّة، وعاد يجلسُ على كرسيه واضعاً ساقاً فوق ساق.

"لقد ذهبتُ للجامعة. جامعة صغيرة غير ذات شأن، درست فيها التجارة. لا أدرى سبباً أيها العجوز لتبرير هذا الخيار. سوى أنّى عجزتُ عن التحمّس لأىٍ من وظائف الشركات. رُحتُ وأجريت مقابلات شخصيّة بالعديد منها، وكنتُ أغادر عند نقطةٍ ما. بعض المقابلات كانت تمتد يومين وتشمل مُحاكاة مواقف تجاريّة كأننا فى منافسة. كنتُ أنتهى والميكروفون بيدى، أقهقه بوقاحةٍ ما. كُنتُ أقولُ لنفسى يا آدم يجب أن تأخذ الأمور بجديّةٍ فهى كذلك بالنسبة إلى هؤلاء الناس لكننى كنت أزدرى فحسب

المتحن العجوز. لذا فقد فكّرتُ، طُظّ، سأخرج وأدير الفكر فى عملٍ ما، وهذا ما فعلته طوال العامين الماضيين. فى آسيا وإفريقيا والآن هنا. وأنوى أن تكون أمريكا الوسطى وجهتى التالية ".

قال جورج: " تبدوالحكاية رائعة بالنسبة إلى" وأردف" فحكايتى لا تختلف عنك كثيراً. لدى نهم للسفر وقد اعتدت الفرار جنوباً راكباً الدّرّاجة إلى بريتون أوشمالاً إلى يارموث. سوى أننا لم تواتنا الفرصة أبداً لنجوب العالم مثلك مع أنّ الحرب منحتنا فرصة لرؤية جزء من هذا العالم. كانت لدينا مسئولياتنا بالعودة للوطن ؛ فأغْلبنا كان متزوجاً أو مخطوباً، ومنّا من كان لديه أطفال ".

وأضاف راسماً تكشيرة مُتجهّمة: " آنئذٍ لم يكن ثمّة حبوب لمنع الحمل ".

سأل جان:"لكن ماذا ستفعل ؟ لأين يأخذك تفكيرك ؟".

هزّ أدم رأسه: "أنا الآن بمنتصف الطريق؛ لذا فمن الصعب التكهن ".

"وكيف تعرف أنّه المنتصف ؟".

" لأنّها ليست النهاية ".

" لكن ما الغاية ؟".

حدّق آدم فيه بعينين زرقاوين ثابتتين وابتسم، شرب جرعة كبيرة من بيرته وتنهّد فيما يُنهى كأسه.

"الخمر والنساء والغناء. هذا هومريط الفرس الآن " وأردف " يجب أن أمشى الآن يا شباب، لدىّ عمل " صافحهما واضعاً يده الأخرى على ذراع كل منهما أثناء المصافحة:"أنا ممتنٌ لك يا جورج وأدينُ لك. وشكراً على المشروب. أحسن ناس ".

أومأ جورج.

راقبه الرجلان وهو يمشى مُتثاقلاً عبر الممشى المؤدى إلى المبنى الرئيسى، وقد ظهرت نصف قدمه خارج حذائه الخفيف المطوى، يفكّ قميص الشّغل الأخضر من حول وسطه ويلبسه قبل أن يبلغ الباب.

"إنّه اليوم لعالم مختلف" قال جان وهو يرى تعبير الإعجاب واضحاً على وجه جورج.

"إنّه كذلك، سوى أنّ الناس لا يتغيرون، أليس كذلك ؟. إنّنى أنظر لفتى مثله وأرى نفسى يا جان. لا ذيل الحصان والأوشام والهبات، بل السلوك. إليك هذه المفارقة. لمادام أردت صبيّاً من صُلبى. لقد تعوّدوا تسميتى سِرٌّ أبى، ولك أن تتخيّل مشهد أبى مسرورًا لقولهم هذا ! هو الآخر تعوّد أن يقول، هوثروتى التى مُشيراً نحوى ـ تجعلنى أكثر ثراء من أى رجل غنى. ليست الأحوال هى من تقودك، بل أبناؤك. كُنتُ أرغب أن يكون لدىّ ابن ".

مرّر جان القائمة إلى جورج الّذى ألقى نظرة سريعة واختارا فطيرة بيتزا أخرى، وقد أخذ كُلّ منهما فى اعتباره بقيّة الخيارات التى تتصدّر القائمة. أقرّ جورج اقتراحات جان عابسًا.

"النقانق لا بأس بها. كذلك الفلفل لكنهم يكررونه باستمرار. عشّ الغراب. جميل ".

طلب جان زجاجة نبيذ البيت الأبيض. وتعرّف على عدّة أشخاص على المشرب الآن، سبق وشاهدهم هناك منذُ يومين وقد أومأ برأسه لمن جاءت عينيُه فى عينيِه.

تجشأ جورج، أثناء التهامه البيتزا المقسومة بإنصاف، ودفع بالشريحة الباقية إلى جان،" تلك لك يا زميل، العدل عدل. لقد أخذت نصيبى" حين تردد جان، أكل آخر قطعة بدلاً من رميها.

"عيب أن نرميها ".

اتفقا على أنّه رغم طرافة فكرة دعوة السيدتين؛ فقد كان نُزُراً يسيراً من الحظّ الموات أن يجدا وقتاً هادئاً كهذا، وقتاً يتناولان فيه لقمة ويشربان ويتبادلان فيه «حديثاً وديًا» حسب جورج.

"أترى، ينبغى علىّ أن أسأل نفسى، طوال سنوات زواجى، ألم يكن من الأفضل لنا لوانفصلنا، ألم نكن لنصير أسعد ؟" قال جورج بصوت هادئ" الناس مثلنا لا يفعلون ذلك. لا كتلك الأيام. أذكر أنّه فى قريتنا، كان الناس يتهامسون مع بعضهم عن سيدةٍ ما انظر، ها هى زوجة فُلان تمشى، لقد طُلقت أمرٌ طريف أليس كذلك، لكن الأمور الآن ؟ ابنتى الكُبرى حُبلى وقد طُلِّقت وهى تفكّر الآن بالزواج مرّة أخرى. أظنّه لم يخطر ببالك أبداً شىء مماثل ؟" . كان جان ساكتًا.

"أستميحك عُذراً، لم أقصد التطفل عليك ".

"إنّنا كاثوليك. وكما تعرف. سوى أنّى كُنتُ أفكّر فحسب لابد أنّ ثمّة شيئًا آخر أيضاً خصوصاً وأنّى لم أمارس طقوس دينى طوال سنوات. أظنّ أن النموذج كان ماثلاً أمامى، فرغم أنّ أبى قد قُتِلَ فى الحرب، إلا أن تلك العائلات التى أحترمتها، كان الآباء فيها متزوجين طوال حياتهم. حقًا، كانوا يشتغلون معًا، كشركاء بعمل ممكن أن تقول بمزرعة أومتجر، أظنّه شكّل فارقاً معى ".

"أنت مُحق. كانت أيامهم مُغايرة. العائلة هى العمل. كانت أمّى هى الرئيسة، السيدة، لم تُقم وزناً للمال، بل كانت تقتطع من دخل أبى لهذا وذاك ولى أيضاً حين كبرت، وتدّخر بعضه، هنا وهناك. لم يكن الأمر يتعلّق بالدين آنئذ حقًا، ولم نكن نرتاد الكنيسة كثيراً، ولم أكن أبداً رجلاً مُتديناً. كان إيمانى بقناعاتى يزداد يوماً بعد يوم كلما تقدّم بى العمر، سوى أنّى اقترفت بعضاً من الخطايا التى أخجل منها، تلك هى الحقيقة. لا أشعر بالراحة عند الذهاب للكنيسة والقيام ببعض هذا الهراء ".

" كُلنّا نفعل تلك الأمور ".

مال جورج للأمام، قريباً من جان، الذى شمّ خليطاً من النبيذ الأبيض والثوم والبيرة."بلى، ولكننى مُخادع، كانت لى علاقات" .أطلق تجشؤًا صغيرًا برائحة النقانق لتنضم إلى الخليط.

تأوه جان.

"ثمّة حاجات عملتها وأخرى فكرت فى عملها. الحاجات التى لم أعملها. أحياناً كُنتُ أعجب لوأنّ الندم ليس أسوأ ما فى الأمر. فى الأول، من البداية. كانت دوروثى هى المرأة الثانية. تلك هى الحقيقة، كانت ثمّة امرأة قبلها، ميلّيسنت، هذا اسمها. ميلّى الحبيبة. كانت راقصة، لم تكن مُحترفة لكنها أحبّت الرقص. قالت لى مرّة: تعال يا جورج ارقص معى، أحضر بعض الدروس ودع نفسك تُحلّق وقلتُ لا. جلست بالبيت أدير الأمر فى رأسى، إن كانت تحبنى كفاية، ستأتى وتدع الرقص. قالت لى أمّى العجوز إنّها ستفعل، لكنها لم تعد أبداً. بعد خمس سنوات أوأكثر جاءنى هذا الخطاب منها، حصلت على عنوانى من صديق قديم. صادفتها بعض المشكلات من أجل الحصول على عنوانى؛ لأن صديقى، آرثر، كانت عائلته قد انتقلت مرّتين بسبب القنابل. «ألم تراودك الرغبة بالرقص بعد» سألتنى سأنتظرك فى دروس الرقص» لقد أطاحت كلماتها بى. طبعاً كُنت مُرتبطاً آنذاك ولدىّ أطفال أيضاً. كان هذا بعد الحرب. غالبًا ما كنتُ أفكّر فى رسالتها. تعوّدتُ على التفكير، حقًا، لوأنّها ما زالت مشغولة بى بعد خمس سنوات، إذًا فلا بأس من الكتابة بعد خمس سنوات أوعشر سنوات. حتى الآن، أحياناً أفكّر فى الكتابة لها وقد مضت أكثر من خمس عشرة سنة ".

ومسّ قنطرة نظارته خفيفًا: " يجوز ماتت الآن. لم أكتب لها أبداً. لا عن موقفٍ ما، بل إنّى كثيرًا ما

انشغلتُ بها. لن أقول بشكل يومى، بعضُ الأيام تصحو والهمّ يجثم فوق صدرك ولم أفكّر أبداً فيها بتلك الطريقة، لا لجعل الأمور أسوأ بالنسبة إلىّ، سوى أنّه كان لى حلم يقظة، أنا وهى فى أوروبا، نشرب البيرة فى الهواء الطلق فى أكواب فخاريّة، وأشياء مماثلة ".

ابتسم جان." مثل تلك الأمور لا تستحق أن تقسو على نفسك هكذا يا جورج ".

"لا، لا، أعرف. أقصد، لقد أديتُ واجبى تجاه دوروثى والبنات. كانت هناك امرأة فى القرية ربطتنى بها علاقة ما. كانت أرملة، كُنّا نرى بعض من وقت إلى آخر، للهو واللعب فى الحقيقة. للتخفيف عنهم بالأحرى؛ كانت متجهمة قليلاً جراء تربيتها ثلاثة أطفال من معاش أرملة حسب ظنّى. لم ألمسها أبدًا، تعوّدت على القول، ماذا ستجنى، ثلاث نساء؟ لا أستطيع الادعاء أبداً أنّنى لم أفكّر كثيرًا فيها، بصدق".

كان بيلّ مولونى يقف على الجانب الآخر من البار، تحوط عنقه منشفة. رفع كأسًا مملوءة باتجاههما فترة وجيزة قبل أن يستدير نحو امرأة صينية وقفت بعيداً خطوة أو اثنتين من البار تتفحّص محفظتها.

- ١٢ -

انحطّت أنامل تفوح برائحة مستحضر الوقاية من أشعّة الشمس فوق عينى جورج.

"حسنًا، لستِ زوجتى، لكنّى أحسُّ خاتمًا ينقر نظارتى. أنت زوجة أحدهم. أليست زوجتك يا جان؟".

قالت آنّيمايك:" بلى، إنّه أنا "متجهةً بنظرها صوب جان.

"أهلاً " قال جان، وقد أحسّ بدوخة قليلاً بعد جلوسه فى الشمس أثناء شربه ثلاث كئوس بيرة ونصيبه من زجاجتى نبيذ.

قال جورج:" انضمّى لنا فى الشراب إذاً " وأشار للبارمان الّذى رفع حاجبًا ودون أن ينطق بكلمة حضر إليهم؛ فرغم أن جورج قد بذل أقصى مساعيه، إلا أنّه حافظ على مسافة كافية تفصلهما.

"ألم تشربا كفاية ؟" سألتهما آنّيمايك فجفل جورج ونظر إلى جان.

"حسنًا، بلى ولا " ردّ جان بابتسامة فجّة. كانت عيناه منتفختين ودَبِقتين تطفحان بالكحول.

تكلّمت آنّيمايك مع جان بأسلوبها الخاص وأغلق جورج عيناً واحدة ومال قليلاً على كرسيه، متسائلاً ما إذا كان ينبغى عليه التعارف على شخص آخر فى البار؛ لمواصلة الشراب، أم النهوض والعودة لحجرته. كانت دوروثى لتعجب وتتساءل عمّا جرى له، وسيكون من الأنسب لو رأى ما إذا كان لديها شىء من أجل الغداء.

مرّ الرفيق الشاب، آدم، بالبار وتوقّف ليربت على كتف جورج، خفيفًا لكن متسببًا بسقوط العجوز من كرسيه. استعاد جورج توازنه بوحشيّة، مُتشبّثاً بترابيزة المشرب بكلتا يديه واضعاً قدمه فى مواجهته.

قال :"هوّن عليك ".

"غير معقول يا جورج، هل أمضيت كل هذا الوقت هنا ؟".

التفت جورج صوب مهاجمه:" لقد سقانى أحدهم مُخدراً يا رجل. كيف تسير الأمور مع القرمدة ؟ هل تحتاج مساعدة ؟".

"كلا، شكراً لك. أنت تمام ؟".

"تمام جدًا ".

"حسنًا إذًا، هوّن عليك. سآخذ استراحة من أجل القيلولة. فى صحتك " ورفع يده بتحية دامت حتى غاب عن النظر، وتحدّر آدم دون الشرفة ناحية الشاطئ.

قالت آنّيمايك:" من هذا ؟" وقبلت كأسًا من النبيذ.

"شاب يعمل هنا فى القرمدة. بريطانى، وقد ساعده مواطنه فى العمل هذا الصباح ".

"حقًا ؟ ما كان ليخطر ببالى أبدأ أنّك ما زلت كفؤًا لمثل هذا العمل فى عمرك ذاك يا جورج ".

"ستندهشين إذا عرفت ما أزال كفأً له يا عزيزتى". قال جورج بإيماءة مُختلسة من رأسه وابتسامة لجان. وأردف " أو بالأقل، حيثما توجد حياة، يوجد أمل". ضحك ثلاثتهم حين أفرغ جان زجاجة النبيذ بكئوسهم.

"هيا نشرب نخب هذا ". قال جان.

أفرغ جورج كأسه فى جرعة واحدة." قيلولة، هكذا قال الفتى. أظنّنى سأعود لحجرتى لأغفو ثُلُثَى الساعة. مَتِعوا نفسيكما ".

كانت الأدويّة التى يأخذها جان للسرطان تجعل من العسير عليه أن يشرب، وكانت التوليفة تسبب شعورًا فوريًا بالغثيان، فعزم على التوقف عن أخذها هذا الصباح. كانت مضيعة للوقت، كان ليأخذ المورفين إذا احتاجه لكن من الآن فصاعدًا سيشرب. كانت شهوته للكحول قد غلّفت نفسها بالمشاعر القديمة التى قمعها أثناء مرضه ـ الحُبّ والأمل والبلادة. اعتزم أن يصير سخيفًا، هكذا اتخذ قراره. ضَجَرَ فكرة المرض، كانت نذرًا ذا نهاية خامدة. لم يَفُت

الأوان بعد على أن يكون معتوهاً، وجورج كان رفيقًا ملائماً لهذا الأمر.

كانت الخمرُ تحرقُ ثُقبًا فى حُزنه مثلما تفعل الشمسُ فى ظهرِه الآن.

"ستصابُ بالحروق إن لم تغطّ ظهرك بالقميص" قالت آنّيمايك، مُنتبهةً بقليل من الغيرة إلى أن نصفه العلوى كان جذّابًا على نحو ما، ضامرًا ورشيقًا لا يزال. أدهشها أن تراه جالساً هناك مثل عامل يدوى خالعاً قميصه، دار كتفاه مرّة، كانت ابتسامة مخمورة ترتسم على وجهه.

"هل تُمضين وقتاً لطيفًا؟". سألها جان واضعًا يده حول خصرها، مُشيراً للنادل ولقائمة الخمور.

عدلت آنّيمايك السّارُنْج وبرزت القطعة العُليا من ثوب البحر خلف رقبتها. كان نهداها مثل كريمة مخفوقة، ناعمين، منسابين، متماسكين، وقد منحته واحدة من ابتسامتها المشرقة المجهولة المغزى.

"حسناً، كما تحبّ أن تقول، بلى ولا ".

"مع ذلك، هذا المكان هو تصوّرك للجنّة ".

"ماذا تعنى ؟".

"أنتِ تحبّين هذا النوع من الأماكن. مجتمع أنيق".

"لوكُنت تظن أنّه يسعدنى المجىء هنا للمرّة الأخيرة، مجدداً، فأنت مخطئ. لقد كانت فكرة الولدين، وليست فكرتى ".

"تبدوالمرارة واضحة فى كلامك. سوى أنّى من عليه أن يحتضر ".

دفعت كأسها بعيدًا عنها.

"ألا أعرفُ هذا ؟".

اخفضَ بصره صوب جسده، كان قد أدرك أن الموت ببطء صيغة بالغة الرداءة.

" آسف ".

" أوه. لا تعتذر يا جان، فأنت بذلك تزيد الطين بلّة ".

رغم ذلك كان يعنى الاعتذار. ابتلع ريقه ونظر للبارمان يطلب ويسكى لينسجم مع النبيذ، ثمّ عدل عن رأيه وطلب اثنين. ولم تمانع.

"يجب أن نتكلّم " قال مُفصحاً أثناء إعداد الشراب. كان ينتظر اللحظة المناسبة، كان ليأخذ يدها فى يده ويقول لها، هيا نطوى ما فات ونبدأ من جديد، هيا نَكُن شخصين جديدين دون هذا الماضى، الّذى صنعناه، هيا نَكُن صديقين، هيا نفعل السخافات معًا، الآن حيثُ ثمّة وقت.

سوى أنّ البارمان استغرق وقتًا طويلاً، وكانت زوجته تتلّفت تنظر للناس حولها، وهكذا شرع فى الكلام بسرعة.

"أتعلمين، لم أسكر منذ عهد بعيد ".

" بلى هذا حقيقى ".

"أنا مدينٌ لك باعتذار ؛ فكما تعرفين، لم أختر أن يحدث هذا لى، لكن ينبغى ألا أسمح له بالانتصار كُليّةً".

أخذت نفساً ومدّت يدها نحو كأسها.

"أنت لم تختر هذا، ولا أنا، ولا الولدان. سوى أنّه ابتلاء ويجب أن نتكيّف معه ".

"أنا مُستَحٍ منك يا آنّيمايك " كان الآن قد تلقّف يديها بين يديه" كنتُ أرتجى لو كنتُ رجلاً أفضل وأقوى. لا يجعلُ الموتُ من المرء شخصاً أفضل، ولا أىُ شىءٍ آخر، ولا حتى الحياة التى نريدها تستطيع ذلك، ولا حتى النجاح " تفحّص الأمريكيين. رجلٌ يراجع ساعته ويقارن الوقت الّذى تُشير إليه مع السّاعة المُعلّقة على جدار البار، وزوجته تمرّر أصبعاً حول حافة عينها. تجاوزهما ببصره ليرى الأزهار تومئ والأشكال تغيم وتتمازج فى مدى بصره البعيد المشوّش.

"هل تجلسين ؟". سألها، فهزّت رأسها.

"لقد كُنت رفقةً سيئة طوال السنوات الأخيرة. آسف".

لم ترغب بسماعه يعتذر؛ فيتوجّب عليها حينئذٍ أن تعتذر هى الأخرى، أكيد، لهذا السبب كان الناس يقولون ذلك، وقد أحسّت عدم قدرتها على الأسف.

قالت:" لا تقلق ".

لكن، مثل بيلّ مولونى، كان يريدُ شيئًا منها كما بان، فكبس على يدها.

"لستُ قَلِقاً، لقد قررتُ ألا أقلق، تلك هى النقطة الأساسية، سأنطلقُ حُرّاً ".

على الجانب الآخر من البار، حَضَرَ بيلّ مولونى ، وقد تعلّقت بمرفقه إحدى الأمريكيات، برقّة موزعاً الاعتذارات.

ضحكت ورأسها مائل للوراء :" لقد شربت كثيرًا يا عمّ جان الطيّار، ستعود لطبيعتك غداً ! ".

آلمته الطريقة التى هزأت بها منه، فقال غاضبًا "آه، نسيت أنّك تعرفين كيف تعيشين ".

" أنا لا أختلق المبررات لنفسى، لا أتظاهر بما لستُ عليه ".

على الجانب الآخر من البار، لاحظ جان أنّ رفيقة مولونى قد انسحبت بغتة وأحسّ بشكل مؤكّد أنّ الحضور قد لاحظوا انسحابها. راوده إحساس كم هو أمرٌ مُخجِل، حتى إنّ وفرة من البشر يتعرّضون لمثل تلك المواقف، ولمثل هذا البؤس فى العطلات. من ثمّ كره العطلة أيضًا.

هتف:" لا تصيحى هكذا" وقد لاحظ أنّها قد فَرِغت من شرابها وتُمرِّر الكأس الفارغة للنادل.

قالت تُقلِّده:" لا تصيحى هكذا "وأردفت" لا تصيحى هكذا. هذا كلّ ما نسمعه فى البيت، لقد

صِرت مهووسًا بحياتك بإدراكٍ آلى لدرجة فقدت معها إحساسك بالحياة ".

"لحسنِ الحظّ أنّ الشيءَ نفسه لا يمكن قوله عنك. هل أرسلتِ لدى فريس بطاقة بريديّة ؟".

التفتت نحوه ووضعت يدها فوق كتفه، وأمالت رأسها لتسلّط عينيها على عينيه، وقالت :" انظر يا جان، ماذا تريد ؟ إنّها خاتمة قذرة لزيجة قذرة. هل لديك شىء آخر تقوله ؟ فقط لأنّك تحتضر يُفترضُ بى أن أتغيّر، أن أصيرَ نبيلةَ الخُلُق ؟ ست سنوات ؟ أنّا أحسّ داخلى بالشباب. أُحُسُّ كأنّى بنت ثمانىّ عشرة. أنا لا أحتضر. لقد سلبتنى سنواتٍ طوالا، ونعم، أنا حانقة لأجلها وقد نِلتُ كفايتى. لمادام كنتُ صادقة معك ".

سمع هذا الكلام من قبل، هذا الجزء الأخير. لم يكن هذا بالمكان الملائم؛ فالناس يراقبون ورغم أنّها خيّبت آماله، إلا أنّها أصدرت حكمها على حياته وصنّفتها وهى الآن لتفعل الشىء ذاته مع موته، فتوجّب عليه الكلام.

"آنّيمايك، صراحتك تُثير الرثاء. إنّها وقاحة؛ فهى لا تكشف حقيقة، بل هى تُطلقُ يدكِ لتفعلى ما تشائين "توقّف لأنّ غضبه كان يزداد، لذا فقد خَبَطَ كفّه بالمشرب فانتفض كأساهما وقال "هذا مُلائم ".

"لستُ فيلسوفة. يالحسن الحظّ أن تكون قادرًا على رؤية الحقيقة. أضف ملاحظة أخرى لكتابك ".

أحسّ بالتفوّق عليها، فحتى الآن لا يزال لديه اليقين، حتى بعد كل تلك السنوات، أنّ الخير فى صفّه. التقط كأسه بين يديه وجرع الويسكى كأنّه إبريق حساء.

"هذا.. فظيع " كانت لديه جيوب أسفلَ عينيه، وقد حدّ ق فيها بكآبة وإلحاف.

كانت نظراته المُدققة تُزعجها.

"أتعرفين. حين أفكّر بك بأيامنا الأولى، أشتاقُ إليكِ يا آنّيمايك. لقد كُنتُ أعلمُ منذ البدء أنّ لدينا صعوبات، وأنّ بيننا اختلافات. لكنّك كُنتِ صديقة لى مرّة. الآن تبدو الأمور كأنّ لا شىء يربطنا، ما من مساحة آمنة. ظننتُ..." وضع كأسه الفارغة على طاولة المشرب فانزلقت فوق البلل حتى ثبّتها. ثمّ أغلق فمه وسكت.

ضمّت كأسها بين ثدييها وشردت ببصرها. كانت تتخيّل الأيام، التى تلى موته، البيت الساكن، الصناديق على الأرضيّة، الولدان يصنعان القهوة فى المطبخ، يلمسان ظهرها وقد جثت على ركبتيها، الخفقان المباغت لدى سماع صوت الهاتف يرن.

تابع، وقد أجلى حلقه، يتمتم بحزن:" لا حاجة بأحد للفوز. لا حاجة بأحد كى يكون على حقّ. لا أحد يهتم بأمرنا أو بمن يفوز مِنّا. لدىّ فكرة، أتعرفين، لو نفعلها ".

سمعت صوته يتصدّع فنظرت بسرعة له، ورأت ابنها الصغير، بِن، رأت الطريقة، التى ينظر بها إليها بعد اعترافه لها أنّه سحب مبلغًا إضافيًا مرّة أخرى. ورغم برودة وقسوة عقلها، تقوّس قلبُ أمّها مثل سنونو يصنع دائرةً فى السماء، وقد اتجه جنوبًا استعدادًا للشتاء.

-١٣-

دسَّ جورج البطاقة البلاستيكيّة فى فتحة المفتاح الآلى ببابهما ثلاثَ مرّات لكن، فى كُلِّ مرّة، كان صبره ينفدُ سريعًا، فيدفعُ مقبض الباب قبل أن يتحول النور إلى اللونِ الأخضر.دقّ الباب ونادى دوروثى.

"إنّه أنا يا دوروثى. دعينى أدخل، ما من صبرٍ لدىّ لهذه البطاقة " اصطبرَ، لعق شفتيه وكانتا جافتين مثل عظمة. كان، حين يُفكّرُ فى دوروثى، يرى كوباً من الشّاى المضبوط فى انتظاره، وهوالآن قد رَكَلَ الباب خفيفًا:" هيّا يا عزيزتى، استجمِعى قوتكِ، وأسرعى".

جرّب البطاقة مرّة أخرى براحته، وتعثّر داخل الحجرة، التى تطيحُ بها المراوح الدوّارة بسرعة هائلة. ثمّة أوراق مقلقلة من كُتيّبات الأوتيل الدعائية بكلِ رُكنٍ فى الأرضيّة. نادى اسمها مرّة أخرى ووقف فى الشرفة، لم تكن موجودة، يجوز خرجت لإحضار شىء للغذاء. كانت ساعته تشيرُ للثالثة، وكان السريران مُرتّبين ونظيفين ككومتين من خشب طازج. مال بجانبه يستريح قليلاً فى انتظار عودتها، مُريحًا عينيه.

ـ ١٤ ـ

لم تستهوِ العجوز الضئيلة ـ كانت بناتها تسميها مدام تيجّى وينكل(*) ـ سوى انتباه قليل وهى تغادر البوابات الرئيسيّة للمنتجع. يجوز واحد أواثنان من الموظفين أدهشتهما رؤيتها تلبس معطفاً فى الحرّ المُتّقد، لكن ما من أحد لاحظ وقوفها قُبالة البوابات رُبع ساعة أو يزيد كأنّها غريب عابر اعتبر البوابات موضوعاً لرسم تخطيطى صغير. شرعت بالمشى على الجانب الأيمن من الطريق، وقد أسعدها اكتشاف أنه لا وجود لحركة مرور.

على مدى السنين، ولعدّة مرّات، كانت دوروثى قد خَطَتْ نحوالباب، حاملةً حقيبتها وقبعتها ومعطفها وقد حزمتهم جميعاً استعدادًا للرحيل عنهم جميعًا. بان أن حزمها الأمتعة سيدوم للأبد، وأنّ فكّها يتحرك طوال الوقت، يطحن مظلمة. مرّة أو مرّتين، مشت حتى نهاية الطريق ووقفت عند محطة الباص، وطرفت بعينيها، وقد جاش صدرها ببلغم الكحّة فى

(*) بطلة كتاب للأطفال ورسوم كاتبة الأطفال الإنجليزية بياتركس بوتر (١٨٦٦ م ـ ١٩٤٣م). ونُشر أول مرة عام ١٩٠٥م. (المترجم).

رئتيها. وفى كلّ مرّة، كان الباص يأتى ويروح دون أن تركبه، ثمّ تعود إلى البيت. لم يكن ثمّ أيسر من العودة عن الرحيل.

الآن، أمامها تحدّر طويل يصعد براحته، تلّ واعد ببلوغ هضبة. رأت أمامها عيدان قصب السكّر تهزّ ذؤاباتها الخشنة مهسهسةً. كان الحرُّ قائظًا، ولم يكن لديها فكرة كم هى السّاعة الآن؛ لأنّها تركت ساعتها وراءها. كان المشىُ بطيئاً ومُضنياً، بسرعة. كانت عجوزًا عديمة الجدوى، تمامًا كما قالوا لها، سوى أنّه ما من فائدة للإحباط جراء ذلك. حين بلغت الهضبة، ورأت حقول القصب تمتد ذهبيّة ومستقيمة قدّامها وعلى يسارها ويمينها، ووراءها على الجانبين زُرقة ربما كانت للأرض أوالسّماء، خلعت معطفها وطوته بعناية، ثمّ دسّته أسفل سياج من الأشجار الطويلة. أخذت جرعة من زجاجة الماء الصغيرة، التى كانت معها، وشطفت بها فمها الجاف، وقد رفعتها أمام أسنانها تحسُّ كأنّها تُرخى لثتها. سحبت النسيج من أسفل ذراعها بعيداً عن جسمها وخطت فى سبيلها.

عليها أن تحذّرهم، البنات وجورج، بشأنها، دون أن تنطق بحرفٍ؛ فلم تكن ترغب أن يهلعَ أحد. عَرِفَت بمجيئه قبل أن يعرف الطبيب، أيّاً كان اسمه. عجزت عن تذكّر اسم المرض الخبيث الشرير! يجب أن تضحك. لم تكن غبيّة، كانت شيئاً مشرقاً شاباً، تقرأ أىّ شىء تقع يداها فوقه، ودائماً بالمكتبة، قبل جورج.

كانت لديها القدرة على تذكّر المكان بكلّ تفاصيله، كل الرّوائح المُختلفة، قائمة القواعد، بطاقات التصنيف الصغيرة ذات اللون الأزرق الدّاكن، العناوين بحروف كبيرة واسم المؤلف بحروف صغيرة، الرائحة الواعدة للرطوبة بين الأرفف، ثمّ الرّائحة المكمكمة للكُتب نفسها ورائحة زنبق الوادى، التى تضوع من أمينة المكتبة حين تختم بطاقة المكتبة. تعوّدت أن تتخيّل بوابة الجنّة مماثلة، عطوفة لكن متكلّفة تفوح منها رائحة الزهور. كان عقلها يحمل كلّ هذا علاوة على الكثير من طفولتها، سوى أنّها عجزت عن تذكّر اسم مرضها! ثمّة الكثير من الكلمات التى راحت فحسب، اختفت. كان عالمها ينطفئ. فى كلّ مرّة كانت تبلغ مكاناً فى عقلها، بعد أن يأخذ منها وقتاً طويلاً، تجد علامة أمامه تقول "مُغلق" وكانا قبل أن يجيئا، قد صادفا يومًا عجزت فيه عن تذكّر أى يومٍ كان من أيام الأسبوع كانه يومهما.

قررت أن تتكلّم مع جورج فى هذا الشأن. كان قد هبط إلى سقيفة المعدات وقد هبطت وراءه ووقفت عند المدخل، قال : " ألا تزالين فى ثياب النوم ؟ ألن تذهبى إلى مادجى اليوم إذًا ؟" وكانت هناك، نشارة الخشب عالقة بكلّ أطراف شبشبها، وقد علق بمنامتها الطويلة غبار الخشب أيضاً. جاهزة بما أعدته لتقوله له على طرف لسانها:" انظر" هكذا أرادت أن تقول:" لقد ألمّ خطبٌ ما بدماغى. لستُ على ما يُرام، لكن أرجوك تحمّلنى، لا تجعل الأطباء

يتدخّلون ولا تخبر البنات، أرجوك راعنى فحسب، أرجوك " لكنها قالت بدلاً من ذلك :"منْ مادجى؟" وقد أحسّت وكأنّها مُضطرة للسؤال، كمسألة مُلحة؛ وقد راودها ذلك الإحساس المُرعب أنّ مادجى تلك شخص تعرفه تمام المعرفة، يجوز قريبة أوشقيقة أوحتى واحدة من بناتها. ردّ " لا تدخلى علىّ بتلك التمثيليّة، انهضى وارتدى ملابسك وسأصطحبك بالسيارة ؛ فسيفوتك الباص الآن " لمست ذراعه، كان الشُعيرات مثل أسلاك صمام كهربى، دائماً فى حالة نشاط هناك وقد دفعها دون أن ينظُرَ إليها قائلاً بخشونة :" هيّا ". كان صوته قد استحال أجش بالحال نفسها، الّذى كان عليه حين أخبرتهم بنتهم البكر أنّها فقدت طفلاً.

قالت:"مادجى؟" وقد خطت عائدة للحديقة، يراودها إحساس كأن نشارة الخشب التى كنسها زوجها للخارج تهبّ تحت قدمها. شاهدته يعرج صوب الفاصوليا المُتسلّقة وكومة السماد سوى أنّه لم يسمعها ولا ردّ عليها فرجعت إلى البيت، وحين عاد لاحقاً، ووجدها جالسة فى الحجرة الأماميّة لم يأتِ على ذكر الخروج بالسيارة.

لذا، كان كلّ ما قالته له وللبنات:" سأكونُ سعيدة حين تحين ساعتى " فقالوا يغيظونها :" أوه يا ماما، حينئذٍ أعلمينا بالأمر " لقد كان هذا كلّ ما عليها عمله؛ فعلى الأقل عرفوا أنّها لم تكن تعانى.

رأت كفراً صغيراً حين هبطت التلّ على الجانب الآخر من الهضبة، بضعة بيوت مؤقتة، كُلٌّ منها مرفوعة قليلاً على أربعة جذوع خشبيّة قصيرة. حين بلغت الكفر، كانت لتجرع شربة ماء أخرى. قادتها منطقة واسعة مُسيجة بالسلك لأجل الدّجاج إلى أول صفّ من البيوت، داخل المرعى دجاج وقرود، وعلى درج البيت وقفت امرأة واثقة الملامح شعرها ملفوف حول عاقصات بالية تحمل طفلاً فوق فخذها مبتهجة كأنّها تلبسُ شبشباً قشيباً فى قدمها. نظرت عابسة إلى دوروثى، وقد تكوّر تحت قدمها كلب أصفر هجين طويل رفع رأسه وبصّ ثمّ عاد لينام. أومأت المرأة وكذلك فعلت دوروثى قائلةً :" طاب يومك ".

انشقّ وجه المرأة عن ابتسامة.

سألت:" كيف تسيرُ الأمور هناك ؟".

أومأت دوروثى سريعًا:" على ما يُرام. أشكرك. يوم سعيد ".

"من بُقك لباب السماء "كان صوتها عميقًا ورخيماً، ثمّ جلست تهزّ رأسها على الطفل ضاحكةً باستمتاع حقيقى.

أمام بيت آخر، وقف صبى على بدّالات دراجته التى وازنها بقدميه المشدودتين، جاهزًا لما هو غيرُ مُتوقّع. حين رآها، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ونادى أصحابه فجاءت شِلّة أولاد كى يروها، وقد وقفت أمهاتهم على عتبات البيوت، التى تتدلى

عليها ستائر دانتيلا تتحرّك خفيفاً بفعل النسيم، وجلسَ رجلان عجوزان يُدخنان ارتكنا بظهريهما على إطارين مُستعملين، صاحا بها رافعين أيديهما بالتحيّة. أحسّت وكأنّها على رأس موكب احتفالى وبشكل طبيعى تماماً رفعت يدها تردّ التحيّة. لم يقترب منها أحد، بل تركوها تمرّ فى طريقها، كغريبةٍ عابرة.

فتاتان مُراهقتان، شعرهما ملفوف أيضاً حول عاقصتين باليتين، جلستا مضمومتى الركبتين فوق دَرَجِ بيتٍ مسقوفٍ بالصفيح المدهون باللون الأزرق، ظهرتا، فى فستانيهما الوردى والأصفر، كلوحة بارعة الحُسن. فكرت، لوأنّ هذا كان فقراً إذًا فلديه لون، وراحة مُتمهلة لا تنم عن جوع. كان بواكير المساء، وقد ارتاح الناس دونما حاجة لتسلية. بدوا جميعاً كأنّهم جاثمون لمشاهدة شىء ما ليس له وجود.

قالت:" يا له من مشهدٍ بديع ".

كانت تقدر على اختلاس النظر داخل بعض البيوت القليلة ورؤية ما بداخلها. كلٌّ منها تغطى شبابيكه ستارة، وكثيرٌ منهم تغطى كراسيه وطاولاته شراشف وقماشات رخيصة مبهرجة، كانت البيوت مدهونة بألوان تجدها فى صندوق طباشير، درجات الأزرق الصمّاء والأحمر والبرتقالى والقرنفلى والأصفر. فى الداخل، كان الأثاث مُفيداً، رأت الأشياء عينها التى كانت بناتها تسخر من جيلها بسببها، أدوات منزلية بلاستيكيّة وأغطية مفيدة. تلصصّت

على أطراف الأرجل أوقسم من ظهر، رأس يلتفت، ذراع ممدودة وقد تطوّحت الستائر المخرمة هنا وهناك. كانت ترتجى لنفسها الحياة التى يحملونها داخلهم.

مساكين! فكّرت، باصقةً الكلمة. ما من أجهزة تلفاز لديهم، أهذا كُلُّ شىء! قالت مُستهجنة تصر على أسنانها. قالت تحذّر نفسها: " من الآن يا دوروثى لا تفكّرى بهؤلاء الناس على أنّهم طيبون.. ما من ناس طيبين أو أشرار، لا يهم ما يملكون أو ما لا يملكون..." لكن أليس من الأيسر أن تكون خيّراً لوكنت لا تملك ما تقلق بشأنه، أليس أسهل فحسب ؟ ألم يكن الناس أفضل حينًا ؟ حين كانت أبوابهم الأماميّة مفتوحة ولديهم أمورٌ صغيرة يحتفلون بها. لقد أخبرتها البنات أنّها ظلال ورديّة فارغة.

"لا تزال ثمّة حماقة بالأمر يا أمّى " قُلنَ لها، وكانت الحفيدة لتفسّر لدوروثى حال ثرثرة الميديا وكيف تُسرّع الشرطة من تلك الأقاويل ولأية درجة كان الأمر برمته مُغايراً ومع ذلك نفسه تماماً.

قالت:" لو يختطفنى أحد "وقد كفّت عن التقليب فى قاع حقيبتها بحثًا عن حبّة نعناع ميوراى؛ عثرت على واحدة وراحت تمتص حلاوتها مثل بطّة تزدردُ رغيفاً.

ـ ١٥ ـ

جاء المساء، وكان جان مستيقظًا. كانا قد دلفا لفراشهما مخمورين قبل المغيب، مُتفقين على النهوض للعشاء. نامت زوجته، فى سُكات جامدة بجواره، وقد جعلت المروحة تموّجًا صغيرًا من ملاءة بيضاء يرفرف فوق كتفها، الّذى غطاه النمش. وضع رأسه فوق المخدّة، لكن على جانبه فاستطاع أن يحسّ ـ بجلاء ـ نبض شريان فى عنقه. استطاع سماعه أيضًا، بدا كتكتكة ساعة. كانت النبضات تلبى حاجته أكثر من التفكير وحيدًا، وهكذا ظلّ على حاله حتى اكتفى ثمّ تقلّب وحدق بزوجته. امتدّ مجرى صغير من اللعاب عبر وجنتها وقد ميّز رائحته، وكان النفس الهادئ يزحف تحت غطاء من السائل.

كان يرغب حقًا فى هدنة. كان يسميها، أثناء وجودهما معًا، مُخادعة، جبانة، كذّابة، وكان يعلم أنّ تلك الأوصاف ربّما تنطبق عليه هو الآخر. لم يكن ثمّ فائدة تُرتجى من نعتها بتلك الشتائم، فى ظلّ حقيقة أنّه ينام بجانبها. كانا متواطئين، وكان يقضى يومه برفقتها يجمع القرائن ليبرهن لنفسه أنّه أفضل منها

وقد قدّم له الموت سببًا آخر يعزز به أفضليته وخيريته. تلك هى الحقيقة، لقد كان أحمق.

نهض ليدخّن سيجارة فى الشرفة. كان قد تعوّد على التدخين مرّة أخرى فى الشهر الفائت. التقط زجاجة بيرة من البرّاد وجلس فى الحرارة السوداء الفاترة فى شرفتهما وترك بابها مفتوحًا، دونما اهتمام لتسرّب الهواء البارد من الحجرة ولأنّ الهواء الدافئ ينسلّ داخلاً. أراد أن تشمّ رائحة الدخّان ؛ أراد أن تعيره اهتماماً.

رأى على العشاء نظرات الإعجاب بآنّيمايك فى عينىّ جورج. كان وجه آنّيمايك، كلّما تقدم بها العمر، يحلو بعاطفة فاحشة، مثل شجرة عيد ميلاد عانس، مشحونة، غاضبة، جاهزة لقذف شىء ما. كانت عيناها مجهدتين، وقد أثقلت المَسْكَرة رموشها، سوى أنّها كانت لا تزال جميلة. ظهرت أحلى بدون تبرجها، كانت عيناها رماديتين كبحر الشّمال كما ظهرت عدّة مرّات من شقّة أمّها فى بلانكينبيرج. لطالما جعلتاه يفكر فى نقطة حبر بلوحة مرسومة بالألوان المائيّة، داكنة فى المبتدأ، ثمّ تخبونحوالخارج.

طبعاً، أحبّ جورج العجوز الطريقة التى تنظر بها ؛ فلقد أحبّها الرجال لأنّها بدت واعدة بالمُتعة. كانت صنوتها المرأة الهولنديّة أوالبلجيكيّة قد اختارت أن تلبس ماركات غالية صارمة ومهددة، من الجلود البنيّة والخضراء الغامقة والزّرقاء. أمّا آنّيمايك فقد ادّخرت

كمّاً ضخماً من الملابس المزركشة والرخيصة، رفضت الطيّ وشاغبت فى الدواليب. من الأرفف كُمّ هنا أوهناك تدلّى صوب شمّاعة الملابس، يقطر بثمار الكرز المحبوكة والكثير من السوست وأزرار الأكمام التى أخذت هيئة مراسى أو قلوب.

ظنّ فى البداية أنّ عينيها المصبوغتين أثناء النوم فاتنتان، وأنّها حصلت على الوصفة من عمود نموذجى بمجلة ما منذُ الستينيات - أو ربّما كانت تراخياً قذرًا، وقد بدا له الاحتمال الأخير أكثر جاذبيّة. كان - ذات مساء - فى الأيام الأولى، وقبل الولدين، قد انتبه إلى أنّ لون ظلال العينين قد تحوّل من الأبيض إلى ألق أبيض بلورى، انسجم مع منامتها، وأحسّ بنفسه محشورة. مع ذلك حين كفّت عن صبغ جفنيها أثناء النوم، اغتمّ. وبالصدفة، عثر على أنابيب أدوات التجميل خاصتها فى دُرجها، كانت تحتفظ بهم بلا حِراك فأحسّ بالغيرة. فيما بعد نادراً ما يكون نزيلاً لفراشها، صار يستغل نظامها الدائرى البارع فى وقت الشتاء.

رأى - عندما نظر داخل الحجرة - انعطافتها الخفيفة، راكلةً الشراشف. لقد عانت قدمها أيضًا، جنبًا إلى جنب مع عينها. كانت تحشوها داخل أحذية بالغة الضيق عالية الكعوب، واضعةً الضمّادات فوق القروح، تنزع رقعاً حمراء لتخلف رُقعاً دامية. قلبت معدته رؤية موسى الجلد الجاف فى حمامهما وشرائح القدم فى الشطّافة. لم تُطق الشراشف فوق

قدمها، فبرزت تلك المجاديف الحمراء من الألم لنسيم الليل.

أطفأ سيجارته وعاد للحجرة. أضاء المصباح إلى جانبه فى السرير والتقط كتابه. كان يعرف أنّ النور سيوقظها، وقد صحت وعبست فى وجهه، رافعةً رأسها.

"ثمّة رائحة دخان فى الحجرة".

"آسف ".

" ألا تستطيع النوم ؟".

"نعم. نوبة أرق ".

"لما لا تأخذ شيئاً ؟".

ودارت تدفس دماغها مرّة أخرى فى المخدّة ورأى كتفها يرتخى. قبل أن تسقط فى النوم مُجدداً، وضع شفتيه بين نصلى كتفها وقبلها هناك.

رنّ الهاتف. كان جورج.

-١٦-

كان أوّلَ فندقٍ ذا بال للمدير. كان ستيف برنز فى الخامسة والثلاثين، أعزب، وقد كرّس نفسه لعمله الجديد. كان المُنتجع واحداً من سلسلة منتجعات فاخرة تسوّق نفسها باعتبارها "الذوق والصفاء" بأماكن غيرَ مُتوقّعة". وقد عنى «الذوق والصفاء» خشب السّاج الداكن وأثاث أبيض موحّد، أمّا "الأماكن غير المُتوقّعة"، فكانت ثمرة العقارات الأصليّة فى أية مساحة للمنتجعات الشعبيّة وقد مضت سنوات طوال على انتزاعها.

كان الوصف الوظيفى للمدير بالأحرى، غير تقليدى، ومُعبّراً عن العصر الجديد بدرجة أدّق؛ فبحروف ثقيلة جاءته التعليمات أن : "ينقل خبرة تُمكّن عملاؤنا من إعادة التواصل مع ذاته/ ذاتها الجوانيّة فى محيط مُترِف" .كان، مع ذلك، من مانشستر. ستيف برنز، وقد عاد إلى الأرض. ضحك على مُسمّى الوظيفة " مُدير واسع الخبرة "، وعرضه على أصحابه فى الفرع المحلّى وقت الغداء بعد أن جاء بالبوسطة، وقد احمرّت وجنتاه لا تيهاً، بل من

زجاجات البيرة والحانة العموميّة فاسدة الهواء فى اليوم الحار الموحِش من السنة. مازحه أصحابه، كان بالسابق مدير فندق صار مُعلِّماً روحياً، إنّها ترقية، مؤكّد. كأن تترقى من خبّاز لدرجة أسقف.

قال:" انظروا، سيتعيّن عليك أن ترصّ البرجوازيين ذوى السبعين عامًا ونيف ضِخام الأرداف حول بِركة السباحة فى قيظ الصيف، ثمّ تهيئهم لتصبّ لهم البوظة أسفل أعناقهم ومن ثمّ تجرجرهم خارج المسبح للتحلية فوق طاولة التدليك، ساعتها سيجدون ذواتهم تمامًا. لا أشكّ فى مسألة اكتشافهم أنّ ذاتهم الحقيقية، الطفل فى داخلهم، ما هى إلا ما كانت عليه قبل أن يغادروا بيتهم، بنت زنا جشعة حقًا".

"اغتنم الفرصة" قال أصحابه نائحون وقصدوا سؤاله عن متوسط الحسومات. لقد آن وقت الرحيل.

الآن، كان جالسًا ببنطلونه الكاكى وقميصه الأبيض تحوط عنقه سلسلة فضيّة، وقد أطلّ كاحله المُشعر من حذائه الجلدى البنّى طويل الرقبة، فى ركن مكتبه الضخم المصنوع من الخشب الداكن، الّذى خُصص لأجله. وكانت مروحة من الخشب القاتم المشغول بالنحاس الأصفر، نسخة من الفترة الاستعماريّة، تلفّ فوقه. لقد جرى تقديمه هنا باعتباره شطراً من ورنر إيرهارد وشطراً من إرنست همنجواى. وبصورة جوهريّة، كان مثاليًا لكليهما، كانت يده المانشستريّة الطريّة ممتنّة لفرصة تدليك أكتاف الطبقات الموسرة.

حالاً، أخذَ التقرير الجماعى اليومى من الموظّفين الأعلى مركزاً وهو الآن، المهمة الأخيرة فى التاسعة مساءً، يتصفّح نقطة أو اثنتين من التقرير مع أبنر وإيمّا، مدير المطاعم ومديرة الخدمات المنزليّة. كان قد اكتشف أنّ هيئة الموظفين الكاريبيين جادون فى العمل، على عكس ما توقّع منهم، مزيد من شرب الروم وتدخين القدور، « Here com' de Lilt',mon " النمطيّة. سوى أنّ تلك الجزيرة تحديداً كانت البقعة الأكثر تديناً على وجه الأرض، كان من المستحيل تقريبًا جمع الموظفين صبيحة أيام الأحد، فرتّب، باتفاقٍ ماكر مع قوى الظلام، حفلة أسبوعيّة محمومة ليالى السبت، نذراً للولع بذكريات حفلات المدرسة الرّاقصة، وكان يكدّ لأجل التأكّد من ألا أحد من الحشد الغفير سيغادر مبكراً.وهكذا، لم يكن الإفطار مشكلة ذات بال، ومسألة الغداء، بيض وبطاطا يقرّان فى المعدة طويلاً، يمكن تدبرها باثنين أوثلاثة عُمّال فى المطبخ.

كان يشرح لأبنر وإيمّا أنّ عملهما نابعٌ من عمله، ما يعنى حسب تفسيره للأمور أنّهما "مُيَسِران للكحول".

كان يقول: "ما من مُشكلة حين يُغمى عليهم حول المسبح، أليس كذلك ؟". سوى أنّ إيمّا التى درست بالجامعة كانت تتكلمّ عن زيادة إنفاق الزبائن الاستهلاكى عبر عروض بالمنتجع ورحلات، وحتى عبر البقشيش.

قال :" لكن البريطانيين لن يدفعوا بقشيشًا" كمسألة ليست محل جدل، مُقلبًا فكره فى اقتراحاتها الأخرى. استساغ طرح نفسه باعتباره شخصًا إلى جانب رجل الشّارع - وشرابه. هو نفسه أحبّ البراينت(*). وقد أغرته فكرة أنّه من الأفضل ألا يحلب الزبائن، بل التيقن أنّهم سيرجعون مرّة أخرى.

كانت ثمّة جلبة خارج الأبواب الزجاجيّة المزدوجة التى غطاها البخار، لمكتبه، وقد انفجر عجوز بالصياح، مرتدياً سترة مزركشة وبنطلونًا بحمّالات.

هتف:" مرحباً.. مرحباً يا رفيق. هل تسعنى مساعدتك يا سيدى ؟".

ردّ العجوز : "لقد فقدت زوجتى ؟".

" ليست أنباءً سيئة تماماً إذًا" بابتسامة واسعة، فنظر أبنر وإيمّا إليه مصدومين وخائفين (أوه، كان يتعيّن على المرأة العجوز أن تعود، لقد غابت بالمنتجع أكثر من المعتاد) .

قال:" السيد ديفيز، أليس كذلك ؟". لقد أدى فروضه المدرسيّة، وقرأ الأسماء وبرفيلات كل ضيوفه هذا الأسبوع. لقد تذكّر اسمى هذين الزوجين؛ بسبب عمريهما. يجوز عرف أنّه ستكون ثمّة "عواقب". بخبرته، كان المُقامر الشيخ أكثر تشاحنًا مما يستحق، لأنّه جنبًا إلى جنب مع الأبّ الجديد، آلام فظيعة فى المؤخرة، لديهم توقّع أن يعانى الآخرون معهم، عاجزين عن استيعاب - بسبب من كرامتهم - أنّ الله

(*) ثُمن غالون.

أوالبيولوجيا من وهبهم ما لديهم، مُلحقين بهم مزحة التهاب المفاصل والروماتويد.

"إذًا فمتى رأيت مدام ديفيز آخر مرّة ؟".

كان جورج يحك ذقنه يمنة ويسرة بيده الضخمة" ليس منذُ الصباح ".

"ألم تتعود على تمضيّة اليوم بالخارج إذًا، بجولة أوما شابه ؟".

ردّ جورج بالنفى وقد ابتئس وجهه بغتة:" لقد تركتها بالحجرة وانشغلت قليلاً بأحداث اليوم، تناولت الغداء مع أحد المعارف الجدد، وشربنا قليلاً، وعدت للحجرة بعد الظهر،ولابد أنّى غفوت ".

نظر ستيف لساعته مرّة أخرى، كانت قد جاوزت للتو التاسعة والنصف.

"لقد صحوت الآن فحسب" قال الرجل العجوز.

"تمام. إذًا فقد مضى وقت كافٍ لاعتبارها مفقودة، أليس كذلك يا سيدى ؟". قال ستيف.

"بلى. هذا ما كنتُ أحاول قوله لموظف مكتب الاستقبال والفرّاشين. هل رآها أحد منهم، كنتُ أسألهم وكانوا يواصلون إخبارى أن آتى وأتكلّم معك. لماذا لا يجيبوننى فحسب ؟".

فكّر ستيف، إنّ ورديّة الموظفين بأكملها تغيّرت فى الخامسة. كان يتعيّن عليه مخاطبة البعض. كثير منهم. لكن فى البداية عليه تفقّد المبانى.

"الآن لا تقلق يا سيدى، سنكتشف هذا الأمر، وسنعمل تفتيشًا كاملاً وبالتزامن" توقّف عند الكلمة، مُتردداً لبرهة لكنه واصل" وسنستجوب كل الموظفين هنا اليوم". بقى أبنر وإيمّا فاغرى فاهيهما مصدومين وخائفين.

" كم تبلغ من العمر ؟ "سألت إيمّا جورج، تدور فى كرسيها.

"اثنين وثمانين ".

هزّت إيمّا رأسها وأصدرت أنيناً "عجوز جداً وكان الجو حارًا اليوم ".

"شكرًا إيمّا "قال ستيف وأردف" الآن يا سيد ديفيز، هيا نضع الخطة قيد التنفيذ. أظنّه من الأفضل لو انتظرت بالحانة، تناول بعض العشاء، وصحن شوربة أو ما شابه".

"لا تشغل بالك بى يا ولدى. حرّك نفسك فحسب وتأكد من الاتصال بالشرطة فورًا ".

-١٧-

كان آدم من وضع يده على كتف جان فى حجرة الطعام. كان الزوجان البلجيكيان يجلسان على طاولة مُخصصة لأربعة، لوحدهما، بالقرب من الباب. حين رأى جان عينى آدم مُتأهبتين وتجولان بأرجاء المكان سريعاً، مسح شفتيه ووضع منديله فى طبقه ونحاه جانباً. وتركت آنّيمايك سكينتها وشوكتها ووضعت كفيها على وجهها وآدم يشرح أنّه قد سمع لتوّه أنّ زوجة جورج مفقودة.

"بلى، لقد أخبرنى جورج بهذا فعلاً ".

هزّ آدم رأسه: "ياللعجوز المسكين، لابد وأنّ القلق يعتصره. لقد فكّرت ما إذا كُنّا أنا وأنت يمكننا تقديم بعض المساعدة ".

"طبعًا "قال جان وهو يدفع كرسيه للوراء بعيدًا عن الطاولة "أنا فى انتظار مجيئه للقائى هنا بعد أن تكلّم مع المدير. لقد مضى عليه بعض الوقت الآن ".

صاحت آنّيمايك بصوت عالٍ:" فظيع! "، فحدق واحد أواثنان من النزلاء بهم" إنّها امرأة عجوز. وقد حلّ الليل! والوقت يتأخر ! لابد أن يعثروا عليها".

وضع جان أصبعه على فمه.

"لكن كلما عرف مزيدًا من الناس، زاد من يساعدون في البحث عنها "قالت وهي تتفحّص من حولها.

نظر آدم لآنّيمايك وهزّ كتفيه مُتشككاً، ونهض جان.

"سأذهب وأرى ما يمكن عمله ".

نهضت هي الأخرى وقالت:" سأنتظركما عند المشرب ".

كان ثمّة شيء هزلي بشأن عمّال المطبخ، وهم يهيمون بأرجاء المساحة المحيطة بمبنى الفندق، يبحثون في أماكن لا يمكن لبشر أن يكون بها، ينادون بهمسات مسرحيّة" مدام ديفيز، هل أنتِ هنا؟" فقد جرى نصحهم ألا يُفزِعوا النزلاء الآخرين. وخرجت مجموعة من ثلاثة أفراد منهم من حمام البخار وأدار واحد منهم، في زي الرئيس، المفتاح في القفل بعد خروجهم، يهزّ رأسه مُشيراً لسقيفة الأدوات كنقطة بحثهم التالية.

كان جورج يقف بجوار حافة المسبح، يستعرض الجماعات أثناء بحثها، وأصبع يدفع شفته السُفلى داخل فمه، مُمعناً التفكير.

حين جاء جان وآدم بالقرب منه، هزّ رأسه وقال

" أين هي بحقّ السماء ؟".

"هل فتّشوا الشاطئ ؟" سأل جان.

"إنّهم هناك الآن، ورُحتُ أنا هناك بنفسى. إنّهم يبحثون عنها فى كل مكان لكن ثمّة حدًا للمسافة التى بوسعها أن تبعدها، ليست بالمشّاءة، وتؤلمها قدمها لمجرد المشى نحو محطة الباص ".

"هل تقود سيارة ؟" سأل آدم، وهزّ جورج رأسه نافياً.

"هل يمكن أن تكون خرجت فى جولة ؟".

"كانت لتقول لى، سوى أنّه ما من ملاحظة فى الحجرة، لا شىء ".

"لابد أن تخبر موظف الاستقبال أن يمرّر لك أى مكالمات عبر المدير "قال جان، وهزّ جورج رأسه لكن دون اقتناع.

"ما كانت لتعرف كيف تستخدم هاتفاً ".

" لا. لكن آخرين يمكنهم عمل ذلك ".

"بلى. ربما يتصل أحد ويطلب فدية. قد تكون قد اختطفت. أعجز عن التفكير بذلك الجو المرعب، ما كان ينبغى علىّ أن أتركها بمفردها...".

"لا.لا. أعنى بعض المساعدة الصديقة، شخصٌ ما يتصل نيابة عنها ".

هزّ جورج رأسه.

"لقد اختفت ولا أعلم أين. لابد وأنّها المرّة الأولى طوال خمسين عاماً عجيبة ألا أعرف أين هى. حاجة غريبة ".

وضع آدم يده على ذراع جورج لحظة دخول المدير ومجموعة من الرجال نطاق الرؤية من ناحية الشاطئ. كان المدير يلهث، وقد اتكأ للأمام بيديه على فخذيه، ثمّ رفع رأسه وهزّها، ناظراً لجورج. سقطت حبّات صغيرة من العرق من جانبى وجهه فوق قميصه القطنى، واستعمل كُمّه لينشّفَ جبهته.

"ماذا عن الشرطة ؟" قال جورج.

نظر المدير نحو أدم وجان، واقفين على جانبى جورج، لبرهة.

"تلك هى خطوتنا التالية ".

"خطوتنا التالية؟ لقد طلبت منك الاتصال بهم منذُ كُنّا فى مكتبك". نظر جورج لجان:" لقد كان هذا منذُ ساعة ".

"ليس لديهم الكثير، مع ذلك، فهم طاقم يفتقر إلى التنظيم هنا. لا أريد أن أبالغ بردّة فعلى، حتى نبحث جيداً بأرجاء المكان، كما ترى ".

"حين تختفى سيدة عجوز، ما من شىء اسمه المبالغة بردّة الفعل " قال جان.

الآن، رأى ابن مانشستر أنّ كل الأزرار فى قميص الرجل كانت مُغلقة وسمع لهجته المجزوزة وخمّن أنّه من شمال أوروبا، هولندى أو ألمانى، ولم يحبّه، كان يعرف أنّه كان يغرس شوكة فى جانبه :" تمام يا هانز" فكّر فى نفسه.

"صدّقونى، لم نترك حجراً إلا وقلبناه يا سيدى. والآن، يقوم موظفىّ بالبحث بأرجاء المنطقة وسأتأكّد أنّ دائرة البحث تتسع لتشمل المنطقة المحليّة. إنّنا نُجرى مكالمات هاتفيّة. يجب أن تعى الطريقة، التى يتعامل بها منتجع كهذا يا سيدى، لتدرك أن الشرطة لا تأتى بالمقام الأول بين خيارتنا. فنحنُ هنا نتعامل بالكلمة ".

"أظنُّ ما تقوله هُراء، أنت تحمى نفسك، ولا تريدُ دعايةً سيئة لمنتجعك. هذا كلٌّ ما فى الأمر". قال جان.

نقل جورج نظره بوحشيّة بين الرجلين. وآدم، بيده لا تزال على ذراع جورج، يقول: "هيا نتصلَ بالشرطة فحسب، لن يسبب هذا أذى لأحد إطلاقًا ".

صدّق المدير على كلامه:" طبعًا. ما من أحد يحاول حماية نفسه" وهو يرمى نظرة كأنّها رصاصة إلى آدم.

-١٨-

كان آخر طائر طنّان يُنهى عمله اليومى، مُقحماً منقاره المُتقن فى غمد الخُبّازَى الشبيه بمزهريّة، يرفرف ويرتعش سعيدًا. كان الهواءُ ضبابيًا بروائح الزهور الأرستقراطيّة التى لم تعرف سوى إشباع التربة المُبللة، والمرشّات تنتفض وتزقزق وتمطر قُطيرات حريريّة فوق بتلات الزهور. وظهر كأنّ أزهار الخُبّازَى النُحاسيّة المحمرّة تطرح نفسها ليغمرها البلل - وقد تدلّت ألسنتها، دون حياء.

قصدت آنّيمايك المشرب بشالها الصينى، الأحمر فى أسود فى ذهبى، وقد أرخته فوق كتف وذراع واحدة. كانت خُطواتها إلى أسفل الممشى هشّة فى كعبىّ حذائها وتعجّلها.

ثمّة جمع هناك ممن لم يذهبوا بعد للعشاء، وقد صاروا شِلّة على مدى الأيام القليلة الأخيرة - كما لاحظت - مؤسسين طبقة عُليا ما بالمكان. كانوا ممن يلبسون ساعات الرولكس ويتركون إكسسوارات كارتير حول المسبح، نظارات شمسيّة وحقائب. وإذا راح واحد منهم للمشرب كان يسأل الآخرين يقيناً إذا ما كانوا

يرغبون شيئاً، ومثل تلك التصرّفات المُهذّبة تجد ما يُغريها من لباقة الآخرين. لقد وُجِهَت لها نفسها الدعوة، هذا الصباح، حين سألها واحد منهم لوكانت تحتاج شرابًا. حينئذ، نظرت من فوق كتابها ورفضت بابتسامة عريضة، وتخطّته ببصرها إلى زوجته، امرأة شقراء بأنف معقوف قليلاً هوت اللعب السريع والخروج على الحشمة بسوتيانها البكينى. (خلعته بخفّة حين كانت تُكسِب ظهرها سُمرة الشمس وأعادت مثلثيها التوأمين فوق ثدييها الشبيهتين ببيضة مقليّة حين عرّضت جزءها الأمامى للشمس، ولا تثبّته إلا حين تتحرّك فحسب).

الآن، كان نفس الرجل والمرأة "يستضيفان" جماعة من ثلاثة أزواج، كلّهم فى الأربعينات، العمر الّذى يحاول الزوج الإنجليزى التمسّح به. كانا، برفقة جان، قد قابلا هذين الزوجين، هارى وماكسين من سرى(*)، الليلة الفائتة بالمشرب. الآن لوّحا لها فى الدائرة، مؤكّدين شيئًا أكثر من حقّهم بالانتساب بالحضور إليها والكلام بألفة مُفرطة: "آنّى الحبيبة، جِن وتونيك، صحّ ؟".

"كأس نبيذ أبيض، شكرًا لك "قالت وهى تلتفت وكأنها قد رأتهم لتوّها فحسب، يقفون هناك فى ملابسهم الملائكيّة الرائعة يضوع منهم عطر بعد الحلاقة أنشب مخالبه وأسنانه بالهواء المُحيط. تمنّت لهم جميعًا أمسيّة طيبة.

(*) مُقاطعة إنجليزية تقع فى جنوب شرق إنجلترا. (المترجم).

"جاسون رايدر "قال الرجل الأمريكى الّذى عرض عليها الشراب هذا الصباح، وأردف وقد خطا جانبًا مُفسحاً المجال لزوجته "مدام رايدر".

"كيف حال الأكل الليلة " سألها هارى، مُلقّيًا بنظرة خلابة لزوج ذات الأنف المعقوف، غامزاً له بشأن، كما قد يخمّن المرء، نقاش ما سابق بينهما.

"أنا مُتأكّدة أنّه لا يرقى لمستويات نيويورك، فوق ذلك "قالت ماكسين، "لكنّك تحقق مبتغاك هناك، أليس كذلك؟ محظوظ". اعترض الرجل المدعو جاسون، دون موقف واضح، ووضع يده أسفل ظهر ثوب زوجته.

تكلّمت آنّيمايك:" فى الحقيقة، أعجز عن الأكل يا هارى". على الفور، التفتت النساء إليها. طبقة ما من النساء ـ حسب علمها ـ يتخبطن ببعضهن ليصرن ألطف شخص فى أى جماعة. "واحدة من السيدات بالمنتجع مفقودة. يجوز أُختُطفَت لأجل فدية، أو طمعًا فى أنوثتها. لقد مضت أربعٌ وعشرون ساعة وليس لديهم الكثير من الرجاء ".

ثمّة مستوى ما من الاندهاش الّذى تزايد بناءً على إيضاحها.

"أنت تمزحين معى " قال هارى.

وقالت زوجته :"لا أصدّق ذلك" وهى تحدّق فيه بعيون مُتّسعة، فأحاط كتفيها بذراعيه وضمّها إليه.

كانت العيون مُثبّتة على آنّيمايك التى حاولت ألا تبتسم. أحياناً تنجح فى حبك الدور.

"لقد فكّرت فى تحذيركم جميعاً. أخشى أنّه يتعين على المرء أن يكون جاهزاً لأنباء أسوأ".

تبادل الزوجان الأمريكيان النظرات.

"وماذا فعلوا حيال الأمر ؟ الإدارة " سأل جاسون رايدر.

بدأت زوجته بالكلام:" هل هى تلك المرأة التى تتناول العشاء مع الشاب...".

"لا. ليست هى. فى الحقيقة تصادف أنّها زوجة صديق لنا، وهو سبب انزعاجى، إنّهما زوجان طيبان، بالغا..." وتفحّصت المحيطين " اللطف والبساطة ".

هزّت السيدات رءوسهن. وقالت زوجة جاسون تومئ :" الزوجان العجوزان. لقد رأيتك تأكلين معهما. زوجان أصيلان بحقّ ". وقال الرجل الآخر:" لابد أنّهما فى الثمانينات".

"طيب، لابد أنّ نرى ما يسعنا عمله" قال جاسون، مُلتفتاً لأصدقائه الأمريكيين.

كان الليل قد أطبق فى المشرب وكان البارمان يعين وقته بعدة شموع موضوعة فى جرار حسب تعليمات المدير. "فكّر بحنكة " هكذا أعلمه؛ فضوء الشموع أكثر ذوقاً، خلافاً للإنارة الكهربية الباهتة المُطبقة والتى تشتغل بشكل مُتعمّد. "فكّر برومانسيّة".

كان البارمان السابق يهرول سريعاً لمفتاح الكهرباء، غامراً المكان بالوهج بعد العتمة حسب نزواته. ما كان البارمان الجديد يقترف الخطأ نفسه. وقف النُزلاء مولين ظهورهم للمشرب لمراقبة النّور الأزرق، الّذى ينير ماء المسبح المصنوع، يرتشفون شرابهم، يهمسون لبعضهم. وحدها آنّيمايك وجّهت نظرها نحو الحدائق وراء الحانة. كانت أضواء الشموع قد أضفت لمسة على قسمات وجهها. كان بوسع المرء يرى أن جبينها كان مكدّرًا، لكن بطريقة أخرى، كانت ساكنة مثل الزهور الهادئة، لا تزعجها نحلة، ولا فراشة أو طائر طنّان.

ـ ١٩ ـ

اصطحب جان جورج للبار لتناول القهوة، واحدة سوداء والأخرى بالحليب، ووقفا منفصلين بعيدًا عن الباقين. كانا ينتظران مجىء المدير لينقل إليهما ما لديه من أنباء، وكان قد قال إنّه سيلقاهما فى العاشرة.

استأذنت آنّيمايك وقصدت الرجلين.

"هل من أنباء ؟".

هزّ الرجلان رأسيهما، وشَرَحَ جان أنّ جورج قد أدلى بعرض كامل لرئيس الشرطة، الّذى جاء برفقة شرطيين آخرين.

"يبدو أنّهم يأخذون الأمر بجديّة" نطق بهذا الكلام لأجل جورج، مسترجعاً التشديد على الرئيس أن يكبس بقوّة على محضره ذى الثلاث نسخ أثناء تسجيله البيانات الأساسية، وأنّ الغرض من مجىء الشرطيين الآخرين معه بدا تعبيرًا عن مدى الاهتمام بحالة قلمه الحبر. وقدّم الرئيس لجورج ضمانته أنّهم سيبذلون قصارى جهدهم.

"إنّها جزيرة صغيرة يا سيدى، والجميع هنا يعرفون بعضهم " موجهاً كلامه لجورج.

"حسناً، يبدو أنّهم سيبذلون كل ما فى وسعهم " قالت آنّيمايك، وهى تلمس يد جورج مُدّة وجيزة.

كان جورج يصرّ على أسنانه وينظر إلى قلب ظلمة الحدائق، عبر ووراء الحانة، وأومأ برأسه.

"أينَ آدم ؟" سألت جان.

"لقد عاد لشقّته". رفعت آنّيمايك حاجبيها وقرقرت بصوت عالٍ.

"من أجل أن يرى ما إذا كُنّا نستطيع استخدام سيارة صاحب الفندق الليلة".

"لماذا. إلى ما تخطط ؟".

"حسناً.نعتزم الذهاب للبحث عنها".

" هل تبدو لك فكرة ذكيّة ؟".

ردّ جان بهدوء:" ينبغى أن نفعلَ شيئًا. ضعى نفسك مكانه".

"أفكّر فحسب فى أنّنا لا نريد أن نفقد شخصين آخرين؛ فكلاكما طاعنٌ فى السنّ " كانت تهمس، ناظرةً بارتياب وكأنّه سرِ.

"لا تكونى سخيفة".

شرع الأمريكيون، الّذين جاءوا على مقربةٍ من ثلاثتهم ووقفوا بأناة مُدركين قُرب صديقتهم من بؤرة الأحداث، بالخوض فى الأمر الآن .

قال جاسون: "معذرة. لكنّنا عرفنا أنّك ربما تكون فى مأزق ونحبّ أنّ نمدّ يدّ العون".

التفت جان نحوه وهزّ رأسه، وفكّرت آنّيمايك، أنّه بشفته الفوقانيّة الممتلئة ووقاره الخانع كان يشبه بقرة مريضة ترفض حفنة من الحبوب.

"إنّه عطفٌ كبيرٌ منك "قالت مُلتفتة نحو جان:" لقد شرحت للسيد رايدر وأصدقائه ما جرى. ظننت أنّه بمقدورنا الاستفادة من أية مساعدة ممكنة".

لم يبدُ على جورج أنّه ينصت، وقد تباعدت يداه فوق المشرب، يسند الجزء العلوى من جسده بمعصميه.

شرع جاسون بشرح كلامه قائلاً إنّ القنصليّة الأمريكية على الجزيرة ربّما كانت مفيدة لهم، وأنّها وثبة للعبور إلى مساعدة فائقة." سيرون أنّ المواطنين الأمريكيين هنا مُتأثرون بهذا الأمر وسيتحركّون. أؤكّد لك".

نظر جان بحدّة جانبًا.

"هيا نتكاشف. هذا الوضع يؤثر بمجتمع الموجودين بهذا المُنتجع. إنّه أمرٌ جدّ خطير، لنا جميعاً، ولزوجاتنا خصوصًا. كان لابد أن يجرى تنبيهنا من قِبل الإدارة فعلاً، فكلُّنا غارقون فى الأمر" قال جاسون قاضبًا جبينه، فى حين ظلّ جان دون تعبير أوحركة، ولم يلتفت جورج. أمّا آنّيمايك فقد كانت تؤمى بعينين متعاطفتين وحاجبين معقودين.

"لستُ سعيداً بأداء الإدارة هنا، فهى مكتوفة اليد إذا أخذتم برأيى. أين تجد الرجل حين تحتاج إليه؟ يتكلّم عن عطلة دائمة. أظن أنّه يمكننا إضفاء مزيد من السخونة على الأمر، أنا ألعب الجولف، فى بلدى، مع رئيس المجموعة التى تمتلك تلك الفنادق ".

"حسناً، أظنّه سيكون عونًا كبيرًا " قالت آنّيمايك.

التقط جاسون هاتفه الخلوى من جيبه ومشى مُبتعداً عدّة خطوات يقول:" أكيد. سنتقدم إليه ".

فى تلك اللحظة، انضم بيلّ مولونى للمجموعة، وكانت لسعة الشمس واضحة حتى فى الظُلمة القريبة، ووقف على حافتها، ينتظر. بدا وكأنّه على وشك قول شىءٍ ما، سوى أنّ رؤية جان وقد أولى ظهره لهم، ويده الآن على كتف جورج، جعلته ينسحب. أسعد المشهد آنّيمايك، وقالت لنفسها:" يهتم كثيرًا لأمر الآخرين، هذا المعتوه الكبير".

كان جورج يقول لجان، وقد وقفا جانبًا يحدّقان بالستارة السوداء، التى غطت البحر والأرض والسماء لابد وأنّها فَزِعة الآن بشكل أحمق يا صاحبى؛ فقد حلّ الظلام. ماذا تُراها تعرف عن الظلام، ولطالما نأوى للفراش فى التاسعة تلك الأيام. سيصيبها التعب".

" سيساعدها شخصٌ ما على العودة ".

"وماذا لوكانت قد تعرّضت للاختطاف ؟ لقد سمعت أولئك النساء الأمريكيات يقلن أنّ هذا ما فكّرن فيه أيضاً ".

"كلام فارغ، كم مرّة جرى هذا هنا".

"لا أدرى".

"حسنًا. ولا مرّة. تلك الجُزر تعيش وتتنفّس سياحة ؛ فكلّ فرد هنا يتدبّر معيشته عبرها. إنّها جزيرة جدّ صغيرة يا جورج".

"لكن جرى تنبيهنا. كانت تلك المجموعة تقول إن الليلة الأولى لا ينبغى فيها الخروج من الفندق. لابد وأنّهم جاءوا هنا عدّة مرّات".

"حسنًا، أنا أيضًا جئت، إلى الجوار على الأقل، وأعرف أنّه كلام فارغ".

"هل تعتقد أنّها لا تزال على قيد الحياة " قال، وهو ينظر ليديه ويزفر عبر أنفه.

"بلى أعتقد. طبعاً أعتقد".

أحس بيد على ظهره، وقد صار سريع الانفعال لمجرّد التفكير أنّ تلك اللمسة تحمل مزيدًا من عروض أصدقاء آنّيمايك. دار ليرى آدم يقف وراءه، وشعره الّذى يصل لكتفه معقود خلف ظهره.

"أنا طوع إشارتكم يا شباب" قال كاشفًا حزمة مفاتيح.

"نِعْمَ الرجل". قال جورج.

"صاحب العمل كان يستعمل شاحنته، لكن هذا الرفيق الضخم الماكث هنا، من أى بلدٍ هو، أيرلندى، أعارنى سيارته المؤجّرة، لمجرّد أن سمعنى أسأل

موظف الاستقبال لوكان ثمّ سيارة يمكنني أخذها لاصطحبكما معًا وأعطاني تلك. يقول إنّ خزانها ممتلئ بالوقود ".

"ما من أنباء " قال برنز وهو يدنو من البار.

"إذًا هلمّ بنا إلى السيارة، الآن " قال جان.

"هل تعرف طريقك بالمكان؟ أودّ أن آتي معكم لكن من الأفضل أن أبقى هنا لتلقّي أيّة معلومات أو اتصالات ".

"أكيد. لدينا دليل " نظر جان إلى آدم وأردف" ولدينا سيارة ".

"عظيم. سأعطيكم إحدى شاحناتنا لكن سائقينا خارج الخدمة الآن ومن غير المؤكّد...".

"أخيراً جاء الرجل العظيم بنفسه "قاطع جاسون الكلام، وهو يخطو مُقترباً وأردف" سيد برنز، أريد أن أتأكّد، أريد أن آخذ كلمتك، أنّ شركتك تعمل كل ما تستطيعه لحل هذا المأزق. أنا صديق شخصي لرئيسك، السيد كوهين، وأنا أعلم أنّه يرغب بأن تصل إلى أقصى جهدك الشخصي من أجل العثور على هذه السيدة. ثمّة كثير من العيون مُسلّطة عليك هنا".

"أشخاص مهمون" قال رجل بنّي الشعر أثناء تقدّمه.

"أنا أبذل قصارى جهدي يا سيدي "قال ستيف" ثمّة امرأة مفقودة هنا، وهذا يستدعي كل انتباهي".

فيما بعد، كان ليفكّر بالكثير من الكلمات، التى كان يمكنه قولها، كلمات كانت لتؤكّد على كرامته بشكل أفضل. عجز عن نسيان أنّه استعمل كلمة «سيدى» وقد ركل نفسه لأجل هذا. كان لا بأس من استعمالها مع رجل إنجليزى كان يعرف فحواها الساخرة، لكن رجلاً أمريكيًا كان يأخذها بشكل حرفى. لو أنّ كلّ منّا لديه أو لديها غروره الخاص، فتلك الكذبة هى ما تسمح لنا بممارسة عملنا، كانت كذبة ستيف برنز أنّه ليس إمّعة، ليس ماسح أجواخ بالشركة، بل نفسه ليس إلا.

- ٢٠ -

المسافة التى تفصل بين قُرى الجزيرة وبعضها نحو عشر دقائق بالسيارة. كان البيت الواحد يصبح عشرة ثمّ ثلاثين، كُلّ منها تعتلى الأخرى مباشرةً، يتوسطها سقف من الصاج المموج وعدّة ترابيزات يقعد عليها رجال يشربون. فى إحدى قرى الصيادين، كان مجموعة من الرجال يغسلون على البحر البكر الخشبى، الّذى يستعملونه لإخراج أحشاء السمك، الّذى يصطادونه، والنساء يُدلين أرجلهن من الترابيزات التى غسلوها مبكّرًا. ورأى جان من نافذة السيارة المفتوحة، نساءً تهادين دخولاً وخروجًا بين بيوتهن والعِشّة الرئيسيّة. زجاجات بيرة فارغة، وغالبًا رُقع ألعاب تتوسّط لاعبين، وقد أضاءتها مصابيح بارافين أومصباح كهربى وحيد تدلى من عارضة. سَمِعَوا موسيقى وضحك وكثير من المداعبات البريئة، اتهامات مدويّة وأجوبة لاذعة تبعتها بنبرة أعلى. كانوا يضطرون للإبطاء حين يطقطق الرجال فى السيارة الأمامية أيديهم مع عابرى سبيل أو يتوقفون دون تحذير للكلام مع صديق.

تعرّف بعض الرجال، فى أحد البارات، على سائق إحدى السيارات، التى تتقدّمهم وراحوا يهزءون به، وينادونه بـ «أبله حقير» وقد جعلتهم ردود الرجل يقهقهون بصخب ويضاعفون صياحهم.

جلس الثلاثة رجال وانتظروا.

كان آدم يقود وبجانبه جورج، وجان فى الخلف. وقد أوقف آدم السيارة ومشى بخطوات واسعة داخلاً البار، مُحيياً الرجال هناك بأريحيّة :"كيف حالكم؟" ومع أنّه غريب فقد ابتسم له الرجال، وفكّر جان، إنّه بالشعر الطويل والأوشام، بمقدور الرجل أن يطوف العالم تلك الأيام ويكون عالمى الهيئة بتلك الطريقة. فى شبابه، كان ثمّة صرعة قصيرة بالهيبيّة، ثمّ جرفت فى طريقها للقبر ارتداء ملابس أفضل مما يلبسها الآباء. فى أيامنا هذه، لا نهاية لرغبات المراهقة أبدًا، سوى أنّ ملابس ابنيه كانت يقيناً أغلى من ملابسه. ثمرة تطوّر عناية أرمانى، وابتسم.

الآن، كان آدم يقبل دعوة لشرب البيرة، مُعبّراً عن شكره وضغط عامل الوقت على مهمته عبر لغة جسده، وقد أحسّ بياقة قميصه المُزررة لأسفل كأنّه كفن يحوط عنقه، فحشر أصبعين داخلها ووسّع الفتحة.

قعد آدم فوق كرسى برفقة الرجال، مُباعدًا بين ركبتيه، شارحًا أين اشتغل وماذا يعمل، وحين أخذهم إلى جانبه، مُدخنًا إحدى سجائرهم، شرح لهم الموقف.

اتّلعت الأعناق حين نظرت المجموعة فى البار صوب السيارة. كان جورج وجان جالسين هناك يراقبان، وقد أحسّ بوزن وجهه، طويلاً وجاداً.

"ليتنى ما قُلتُ ما قُلته باكراً اليوم. إن كنتَ تذكر "قال جورج. عجز جان عن رؤية وجهه وقد جلس جورج بالمقعد الأمامى، اللهم لمعة نظارته فى مرآة السوّاق.

"ماذا ؟ أوه.عن النساء الأخريات".

"بلى. صدرى منقبض بسبب هذا الكلام، فآنذاك كانت دوروثى ضائعة".

"جورج..." قال كنوع من التأنيب الناعم المريح، دون أن يكون لديه ما يدعمه.

"أنت مشوّش. كل الأمور لديك خارج نصابها حتى يضطرك شىء ما لوضعها فى نصابها الصحيح".

"بلى".

"شىء يحدث يجعلك ترى بوضوح".

"بلى".

"لابد وأنّك فكّرت، يا له من عجوز مُختل! أراهن أنّك ترى الأمور بشكل واضح، أليس كذلك يا جان؟ فى وجود السرطان فى عقلك وكلّ جسدك. ينبغى لى فى عمرى ذلك. ألم أفعل ؟ أدعو الله ألا أضطر لفقدها كى تتضح الأمور لى، فساعتها لا فائدة ترتجى من ذلك لى".

لم يفه جان بحرف. ظلا ساكتين برهة، معًا يغمرهما دفء الليل. منهوكاً قليلاً، أحس جان بنفسه يرتاح تدريجيًا وقد نسى تقريبًا سبب وجودهما هناك إلى أن رجع آدم ووثب إلى مقعد القيادة، صافقًا الباب وراءه.

"لم يرها أحد. هيّا نتحرّك. لقد تركت لهم رقم الفندق، سيبقون آذانهم وعيونهم مفتوحة. مظهرهم يوحى بالطيبة. أظنّهم سيستعلمون عنها بالجوار".

قال آدم. وأدار محرّك السيارة.

ـ ٢١ ـ

كان الليل قد انتصف لتوّه فحسب، حين بلغوا عاصمة الجزيرة، مدينة بها ما يقرب من مائتى ألف ساكِن، بمحور صغير يضمّ نحو ثمانية أو تسعة مبان ترتفع فوق عشرة طوابق. كانت المدينة تلى خليجًا صغيرًا من البحر يمتد ميلين ثمّ تُضيع ولعها بنفسها. حول المركز التجارى كانت الأنشطة الرئيسية للبلدة ـ السوق الحُرّة وممرّات اللهوالمقنطرة على مدى أربع وعشرين ساعة ـ والمركز التاريخى لها: مبنى برلمانى صغير يعود تاريخه للقرن الثامن عشر وجناح لكنيسة مُنحدرة السطح. بجوار الممرّات المقنطرة، غُرف مُظلمة صغيرة هى البارات الرئيسية وحيث اقترح آدم أن يطوف عبر شارعين جانبيين أو ثلاثة. أيّما سائحون عالقون فى طريقهم للرجوع لمنتجعاتهم أو مراكب الرحلات البحريّة، كانوا يُصابون بخيبة أمل مُبهمة، وكان السُكّان يعودون للاستقرار، بعد أن خدموا أولئك القوم دون اكتراث بالطعام والشّراب.

اقترح جان أن يسلكِ هو وجورج شارعًا.

"ابق حيث أنت. معه؛ أستطيع أن آخذ لفّة حول المنطقة أسرع وحدى". قال آدم.

جلس جورج ساكتاً، ذراعه اليُسرى ممدودة، يُحملق فى خاتم زواجه فى نور المصباح المُنبعث من أعلى السيارة.

"فى شبابى، لم يكن أحد يلبس خاتم زواج، بخاصة الرجال. وما كُنتُ لأفكّر، سوى أنّها راحت واشترت لى خاتماً كهدية فى ذكرى زواجنا، بعدها بسنوات، وقد حرصت على لبسه. كان ينبغى علىّ التفكير فى ذلك طوال ثلاثين عامًا فريدة".

ارتخى كتفاه، ولم يبدُ قادراً أن ينحى عينيه بعيداً عن يده.

"سأعود حالما أقدر" قال آدم وهو ينحنى على نافذة السيارة وينقر على سقفها نقرتين مُنصرفاً.

"أكيد" قال جان.

"لطالما كانت يداها ـ دوروثى ـ جافتين جدًا. تستعمل كريم لليدّ، أرجّوانى ومُعطّر، يُبقّعها حول خاتم الزواج. كانت تستعمله لسنوات، وكان يجعل الذهب باهتاً. أراها الآن تفرك يديها معاً لتحصل على أقصى فائدة، كإبقائها أدواتها فى أفضل حالة، هذا كُلّ شىء. لم تكن مُبذّرة؛ فأيّما غسول يبقى، تجُرّه لأعلى وصولاً لمرفقيها" ضحك "أظنّه مصنوعًا من دهن الحيوانات أو ما شابه. ليست كمن تدعوها بالرقيقة. كان ثدّياها كأرنبتين صغيرتين حين رأيتها وكان جسدها تحتهما ملفوفاً. الآن، صارت واهنة قليلاً وصار جسدها مدعومًا بهذا وذاك. المشدّات

الفظيعة! كما ترى، تلك هى زُمرة سِنّها. سوى أنّها خفيفة، سريعة الخطوات للبوابة لتحية البوسطجى، وتعبر الحديقة فى نصف قفزة حين يرنّ الهاتف. فى الحقيقة، هى لُعبة ما تدور بيننا، لعلك أنتَ الآخر جزءًا منها، أليس كذلك، حين تقضيا عمريكما معًا، لطالما أحاول هزيمتها سوى أنّها تتخابث علىّ إن أنا فعلت، ثمّة ما أحكيه لك بهذا الشأن ".

سكت برهة، يراقب مجموعة من الصبيان المراهقين يركلون علبة فيما بينهم تحت نور منتزه صغير خارج مبانى البرلمان. وارتفعت صيحة حين وثب أحد الصبيان، والعلبة بين كاحليه، على جنب، وترك العلبة تسبح فى الفراغ، ثمّ ركلها صوب سلّة النفايات التى وضعوها وسطهم جميعاً.

"لا أظنّها كانت حياةً سهلة بالنسبة لها؛ فقد اشتغلنا دائمًا ساعات طوالا كلّ سنواتنا معاً، كلانا اشتغل ".

أشفق جان على خاتم زواجه، لأجل شىء صلد كان ناعماً وبلى مع الوقت.

"إنّها رائعة فى الطبخ".

"حقًا؟".

"بلى ".

كان الصبيان يتبادلون الخبطات على أكفّهم ابتهاجاً وينتزعون القمصان النايلون الرياضية، والتى

شيرتات ويفترقون. وكبادرة تالية، حجل أحدهم سريعًا عائداً للمنتزه ليُعيد سلّة النفايات تحت المصباح ووازن العلبة فوق قِمّة القمامة.

"بلى. ماهرة فى المطبخ الإنجليزى".

"معقول ؟".

"يقيناً. شرائح اللحم والكلاوى ؟ الفطائر المنزلية والرعويّة ؟ واللازانيا ؟".

"تلك الأخيرة إيطالية. اللازانيا ".

" كلا."

" أنا مُتأكّد ".

"بل هى إنجليزيّة " قال جورج بعناد.

سكتا مرّة أخرى.

"لم آكلها أبداً فى إيطاليا.ليس كما توضّبها دوروثى. إنّها امرأة بارعة يا جان" قال جورج:

كان جان ساكتاً.

"هل تدرى ما أعنيه".

"فى الحقيقة يا جورج، أظنه قصورًا بى، عجزى فى الغالب عن رؤية الخير فى الآخرين، يجوز لأنّى أظن أن الجميع مثلى". وضحك جان ضحكة مقتضبة.

لفّ جورج فى كُرسيه، كان جَهداً منه ذلك وقد التصق ظهره من القعود هناك، وحملق وجهاً لوجه فى جان.

"يا لها من حمولة قمامة يا رفيق، من غيّرك كان سيجلس هنا فى الكرسى الخلفى بسيارة مُستأجرة ينصت لهراء رجل عجوز مثل شحاذ عجوز سخيف فى منتصف الليل ؟".

رأى جان، وقد رفع جورج رأسه فى بصيص النور، الغضون تحت عينى الرجل، وبوجنتيه وذقنه. طرف بعينه وابتلع ريقه.

"ستستعيدها، امرأتك دوروثى".

"بلى. لكن هل حقًا سأستعيدها؟ أبصِر، أبصِر.." وسمع جان صرير أسنانه.

"ماذا تعنى؟".

"ثمّة المزيد أكثر مما أفشيته يا رفيقى. لن أستعيدها أبداً كما كانت. لقد كانت توّاقة للخير. أنصت. لم تكن دائماً، دوروثى، إلى جانب الخير حقّاً، فى طريقة الكلام، ليس طوال الوقت. تزلّ هنا وهناك، وتتصرّف بغرابة. لطالما كانت تسلك الجانب الجدير بالازدراء إلى حدٍ ما، لذا لم أفكّر أبداً. لطالما كانت تُغلق على حاجات حين أدخل الغرفة. كانت كتومة، على لا شىء".

"حسناً، كذلك أنا. وأنت كذلك ؟ فكلما تقدّم بنا العمر...".

"منذُ بضعة أيام، رأيتها تدفع شيئاً تحت كرسى الأريكة مرّة، لذا قُلتُ فى نفسى، ماذا بحقّ الشيطان

تُراها تُخفيه عنّى، سأجعلها تخرج من الحجرة وأرى. وهكذا، أخبرتها أنّ مدام فلانة من ناصية الشّارع عند البوابة لتخرج بسرعة خاطفة وفيما هى بالخارج نظرت ليفاجئنى كيس بطاطس مقرمشة مفتوح. الآن، لِماذا كانت تخبّئ شيئاً كهذا؟".

"يجوز فكّرت أنّك كنت ستأكله ".

" كلا؛ فأنا لا أحبّها؛ فهى تعلق بطقم أسنانى. كانت سريعة النسيان منذ سنوات وكُنّا نهزأ بها بسبب ذلك، كانت حالتها تسوء أكثر فأكثر وكلماتها تشوّش أوتنساها وأصابها ذلك الهلع الغريب المُتعلّق بهذا الشأن. كانت تعجز عن تذكّر أبسط الأمور وتغضب مِنّا حين نحاول مساعدتها. تبدأ بالصياح، والشتائم، بعضها فظيع، حاجات تستدعيها من الماضى وترتبك فى رأسها... حسنًا، كلّمت الطبيب فى هذا الشأن حين ذهبتُ إليه لعمل فحصى الطبّى وقال، أحضرها لى. قلتُ له، لن تجىء، لذا قال، قُلْ لها إنّها زيارة عادية؛ وأنّى أرغب أن تكون بياناتى حديثة. طبعًا، لم تذهب، وبعد عِدّة أسابيع وجدته يهاتفنى، فهو رجل خيّر، ويسألنىَ عن الأحوال وقُلتُ، عجيبٌ اتصالك فقد جاء فى وقته؛ لأنّنا مررنا بيومٍ عصيب. فقد خرجت للمتاجر لجلب المعاشات، تماماً كما اعتادت أن تفعل أيام الخميس لكنها غابت ساعات، وقد رآها العجوز الّذى يدير مكتب البريد تجلس فوق دِكّة، وقالت له إنّها مُحرَجة جداً لكنها نسيت الطريق للبيت. خمسة عشر عامًا وهى تسلك الطريق نفسه.

قال الطبيب: "جورج. سأقول لك بشكل مباشر. يبدو أنّها مصابة بالزهايمر" وأرسل معى بضع كرّاسات قرأتها وأعطيتها لها. نحتهم جانبًا، بمكانٍ ما، الله وحده يعلم أين. وحين طلبتهم منها بقصد أن أعطيهم للبنات نسيت أين وضعتهم. ياللهول راحت تكرر، أنا أتقدّم بالسِن فحسب. ألن تتركنى أكبر فى سلام؟. وهو ما فعلت. والآن أبصر ما جرى".

"جورج. أنا أسف ".

"لم أرغب بمواجهة الأمر، فاهم يا جان؛ لأنّه حينئذٍ سأكون مضطرًا لعمل شىء، والأمور لا تعود كما كانت أبداً ".

"بلى. أعى هذا ". قال جان.

رجع آدم إلى السيارة واتكأ على حافة النافذة المفتوحة.

"رجل فى أخر حانة دخلتها يقول إنّ قريبته أخبرته أنّها قابلت سيدة إنجليزية عجوزًا لطيفة بدت مشوّشة قليلاً، وأعطانى عنوانها قائلاً: إنّ الشرطة كانت هى الأخرى هنا فشقيقه يعمل شرطيًا، وقد أخبره الأمر ذاته ".

تبادلوا النظرات. كانت عينا آدم متسعتين وصافيتين ورأسه مائلاً فرآهما وكذلك فعلا، الهيئة المُنيرة هالة فوق الشعر الأشقر الأشعث، الّذى انحل من الشريط المطاط خلال القيادة. صوّب ابتسامته المُتحسّرة لهما، وخطر ببال جان فيما يتعلّق بآدم أنّ

البشر فى النهاية غير مؤذيين، وأنّ المرء يمكنه أنّ يطيق كونه مُتكلّفاً على فترات متباعدة. جان نفسه كان على النقيض، وقد أدرك، وهوالمُحبط بقدر ما يفوز الشاب، أنّه فيما كان غريبًا بكل مكان، كان هذا الشاب فى وطنه أينما حلّ.

"إنّه يسألنا أن نذهب لمغزل المرأة أولاً، بالأحرى الآن، لأنّ المرأة لديها أربعة أطفالٍ " قال آدم.

"هل دوروثى معها ؟".

"يبدوذلك، فهولا يعلم الكثير عدا أنّ قريبته، واسمها شارلوت، قد طلبت من شقيقها الذهاب للمخفر، لكن ما حدث أنّهم جاءوا لبيته أولاً، وأخبروه أن يُعرّفها أنّهم سيعملون جولة أولاً. ها هوالعنوان ".

وأخرج ورقة صغيرة أخذها جورج.

"أين المكان إذاً؟".

"نحو خمسة أميال من الفندق، داخل الجزيرة. ليست حتى قرية، بل محض بضعة بيوت متجاورة. يمكن أن تسميه كَفْرَاً".

قال جورج:" لابد وأنّها مشت. مشت كثيراً. لقد راحت بعيداً".

قال آدم: "مرحى. سنعيدها لك عن قريب جداً. ينبغى أن نقصد الفندق عائدين ثمّ نذهب لرؤية تلك السيدة، شارلوت. ما رأيك يا جان؟" سأل، واضعاً يده اليمنى وراء مقعد جورج وهو يميل للخلف.

"بلى.بلى" ردّ جان" فكرة صائبة. حين يجىء النهار. فى الصباح الباكر".

رفع زجاج نافذته، ثمّ حدّق عبره وهم يمرّون عبر القرى والبلدان التى كانت الآن بالكاد مُضاءة.

كان يستعيد مشهدًا فى رأسه. هو، يقف على عتبة حجرة نومه، يمسك الباب مواربًا، يلبس بيجامته، ويصيح بأعلى صوته كى يصير مسموعًا خلال الموسيقى .heavy metal منذُ أكثر من أربع سنوات على وجه اليقين، قبل أن ينخرط بأى من رحلاته للخارج.

"أخفض صوت الموسيقى "كان يصرخ، مُكررًا صراخه، حتى توقفت الموسيقى تماماً فى النهاية، وكأنّ مفتاح الكهرباء قد انكبس ووقف ابنه الصغير خارج حجرة المعيشة.

"ما مشكلتك ؟".

"أحاول أن أنام".

"إنّها الرابعة بعد الظهر".

"لقد قُلت إنّى أحاول أن أنام. أنا أحتضر هنا!" صاح.

عبّرت آنّيمايك عن استهجانها وهى تمرّ بجواره فمدّ يده لرفّ الكُتب وانتزع كتاباً وألقى به خلفها. سقطت شارة الكتاب، كانت صورة بولاروغرافيّة التقطت فى السبعينيات أثناء إجازة فى إسبانيا، فأعادها إلى مكانها حين رأى ما هى.

كانت آنّيمايك فيها ترقد فوق سرير الفندق فى ثوب الاستحمام العارى وقد ركنت عربات الأولاد اللعبة والجرارات كلّها فوق جسدها، وقد دخل من الباب ورأى اللعب، يقود المركبات ذات العجلات البلاستيكيّة الصغيرة صعوداً وهبوطاً فوقها ويقول:" تمهلى. أريد أن ألعب "لكن فى الأول غمس الجرار داخل الشراب المُثلّج وقاده فوق بطنها، ثمّ غمسه مرّة أخرى وقاده فوق ما بين ساقيها. تقاسما نظرة عميقة واثقة وقد رفع حاجبيه، وأخفض بصره سريعًا صوب مُنفرج ساقيه. غطت فمها بيدها لئلا تخرج ضحكتها عالية، وقال مُتحسّرًا:" هل يمكنهم الخروج واللعب فى الطريق؟" وسقط فوق الفراش عليها، هامسًا فى أذنها:" سأصيرَ رجلاً عجوزاً حيث تواتينى الفرصة لامتلاكك فى الأصيل".

- ٢٢ -

كانت عادتها أن تحتسى كوبًا واحدًا من القهوة الجيدة فى الصباح، بالسكّر إن أرادت، لكنها هذا الصباح شربت ثلاثة أكواب. كان جان قد اتصل بها قبل السابعة ليخبرها أنّ الزوجين قد اجتمع شملهما وأنهم جميعًا فى طريق العودة. بحلول الثامنة، كان حلقها قد صار جافاً من الكلام. كانت ميسى، والمرأة الأمريكيّة بُنيّة الشعر، بيفيرلى، تحوطانها من الجانبين. أمّا زوجاهما فقد كان عند الأبواب الخارجية يتكلمان فى هاتفيهما الخلويين. وخرج الزوجان الإنجليزيان الآخران، هارى وماكسين، ليلعبا التنس.

"شىء سخيف" قال هارى قبل أن يذهبا، مُردفاً" حين يظنُ المرء أنّ الأمرَ برمته يُمكن الحوؤل دون وقوعه ببساطة شديدة".

"بل قد يؤول الأمر لشىء كريه حقًا" أضافت ماكسين وأومأ هارى ناحيتها، وقد جحظت عيناه وهو ينظر لبوفيه الفطور: "إذا كنت ستدخلين، أحضرى لنا فطيرة عنبيّة أخرى".

"الـزهـايمـر" كـانت ميسى تـكرر" إنّه لأمـر مـروع بالنسبة إلى الأسرة. مع صعوبة الأمر، فمن الضرورى إيداعهم بدار لرعاية المُسنـين، وإلا سيصيبون عالمك بالشلل، إنها مأساة".

وافقتها بيفيرلى:" إنّها مأساة. حاجة مرعوبة منها. أن أفقد عقلى".

"الباقى يمكن إصلاحه، إلا العقل" أردفت ميسى بابتسامة.

"وهكذا، تلك هى الحكاية" أنهت آنّيمايك قصتها، مُستعملة يدها للإشارة للخاتمة.

"طيب. شىء جميل لزوجك وذلك الشاب أن عثرا عليها "بدأت بيفيرلى.

"أكيد "قالت ميسى، وهى تأخذ رشفة من القهوة منزوعة الكافيين والتى وُضِعت حالاً أمامها." لا أقدر على عمل الكثير من التحفيز "قال تفسّر، وكأنّ عبارتها دماثة خطيرة للغاية.

"جيد؛ فأنا فخورة بزوجى "قالت آنّيمايك وهى تطوى منديلها " فزوجى جان، ليس على ما يُرام، سوى أنّه كان بالغ الشجاعة، فخسارة ليلة نوم تضحية ضخمة بالنسبة إليه، حيث النوم أمر صعب المنال بالنظر لمرضه. أرجو أن يقدّر جورج تلك التضحية".

"هل مصاب بالأرق؟ يا له من أمر مُريع أن يعيش المرء بالأرق " قالت ميسى:

ثبّتت آنّيمايك عينيها على ميسى.

"إنّه يحتضر بسبب السرطان، لم يبق لديه سوى أسابيع قليلة، حسب قولهم".

"يا إلهى".

"يا إلهى".

نهضت آنّيمايك وانشق وجهها عن نصف ابتسامة، ونظرت للحدائق وراء النوافذ، وأخذت نفَسًا عميقاً، قائلة:" تلك هى إجازتنا الأخيرة".

-٢٣-

كانت شارلوت امرأة فارعة الطول، جريئة وطويلة الأطراف، وكانت تُرجع شعرها للخلف من وجهها. كانت تضحك على شيء قاله آدم وقد خطا أمامهم بخطوات واسعة، عبر سلك البوابة الأماميّة، تهشّ الأطفال، وتروّح بيد واحدة أمام وجهها لتجلب بعض الهواء. كان صباحًا حارًا هذا اليوم، كان بيتها على قِمّة الهضبة، فوق قطعة أرض خالية من العشب تُطل على حقول قصب.

"دوروثي" صاحت وهي تدخل البيت وربّما كانت تنادي طفلاً كان بسهرة نوم(*) كي يُخبرها أن أبويها قد حضرا.

كانت دوروثي تمسك كوبًا فخاريًا ضخمًا من الشاي، وقد رفرفت ابتسامتها وهي تتقدّم نحو نور الشرفة. أحاطها جورج بذراع واحدة واحتضنها، الشاي وهي.

"لا تتعارك معي بشأن ما جرى يا جورج" قالت وقد انكتم صوتها في جسده لذا، كل ما استطاع

(*) Sleepover Party† . سهرة يعملها الأطفال والمراهقون للترحيب بضيف أو ضيوف جرت دعوتهم للنوم خارج بيوتهم.

سماعه من كلامها: " لا تقل شيئاً فحسب تلك المرّة. أرجوك. تلك المرّة فحسب".

"لا بأس. لا بأس" كرر " الأمور على ما يرام الآن. كل شيء سيكون على ما يرام. لقد أرعبتنى. أصبتنى بخوف فظيع. لقد ظننت أنّنى لن أراك مرّة أخرى".

"بُعداً للشرّ " قالت دوروثى وهى تنسحب بعيدًا عنه وتضع الشاى جانبًا، ثمّ أحاطت وجهه بكفيها وقبلته فوق شفتيه.

"لا أريد خسارتك، حتى ولوكنت تتسببين لى مضايقات لعينة " أشاح الآخرون بوجوههم.

التقطت شارلوت كوب الشاى خاصتها وأشارت إلى الرجلين: " هل ترغبان ببعض الشاى؟" هزا رأسيهما. كانا يقفان فى الأرض ذات الأشجار الخفيضة فى الباحة الأماميّة، وكانت بنت صغيرة تمدّ يدها بكلب يمضغ كرة صفراء التقطها جان فى النهاية. كانت تقطر لعابه. كان الكلب المُهجّن طويل الأذنين ينظر لجان شَزَرًا وقد تعلّق لعابه بفمه، واستجمع ذيله هزّة خفيفة. ظهر ولدان من وراء الباب الأمامى واقتربا ليشاهدا ما سيفعله جان حيال الموقف.

"أظنّها ترغب بلعب المسّاكة" قال آدم وهو يحاول ألا يضحك.

"أكيد. أكيد" قال جان، وقد أمسك الكرة بإبهامه وطرف أصبعه.

ـ ٢٤ ـ

"يجب أن نكفّ عن اللقاء بمثل تلك الطريقة" قال بيلّ مولونى مُصدراً أزيزاً، وهو يغمر نفسه داخل الجاكوزى جافلاً ومُطلقاً السباب بسبب سخونة الماء.

توقّعت مجيئه ويجوز توقّعت أن يقول شيئًا مماثلاً. التقطت آنّيمايك صفحة مجلة مُبتلّة من جانبها وحملقت بصورة امرأة تتظاهر بالنوم فوق مقعد مُزخرف، تلبس معطف جبردين سابغ الأطراف وحذاء برقبة له رباط. لقد آن الوقت للبدء فى التفكير بملابس فصل الخريف. هذا الخريف ستلتزم بما اقترحوه، البدء بالضروريات ـ وهى كثيرة.

"مجلة جيدة ؟".

أومأت برأسها.

"لقد عثروا على المرأة العجوز إذًا ؟".

أومأت مرّة أخرى دون أن تنبس بحرف، وتركته يعانى.

"جميييل " قال، يمطّ الكلمة وهو يعود بوجهه للوراء ليعرّضه للشمس. كان يضع نظارة تزلّج، يحوط

عدستيها إطار من المطاط الأسود، وقد ألصقت أذنيه اللتين أتلفهما لعبة الرجبى برأسه." فى الحقيقة سمعت عن الأمر. هذا المدير الغلام أخبرنى هذا الصباح وأنا أتناول فطورى. الحمد لله، هه؟".

"شكراً لزوجى والشاب. لقد أمضيا الليلة بالخارج، فى الوقت الّذى كان فيه باقى الرجال فى هذا المكان نائمين فى فراشهم ".

"ألم تغرقى بالنوم أنت الأخرى؟" سألها، وقد مثل أمامها.

رأت نفسها منمنمة فى مرآتى عدستيه.

" كلا. ليس بشكلٍ فعلى. لا " قالت.

"طيب. أنا آسف لسماع هذا الكلام، وبالنظر لكون زوجك فى مثل تلك الوضعية من المرض، لا عجب أنّك مُتضايقة. سوى أنّى أفترض أنّه أراد الذهاب".

"طبعًا".

"كنتُ أفكّر بما قلتِ لى سابقاً وقد أردت التعبير عن مدى أسفى. أعلم أنّك تظنيننى مُغفلاً (*) كبيرًا وسمينًا...".

"ماذا يعنى هذا؟".

"غبى. مُختل. حمار...".

"بلى. بلى، فهمت. إنّها لكنتك فى الكلام، من الصعب متابعتها".

(*) Eejit تعبير أيرلندى يعنى مُغفلا أو ابله.

"أنا من أيرلندا بالأساس. شمال أيرلندا، وقد عشتُ فترة كبيرة في جنوب إفريقيا مع أنّها فوضى، كلها مخلّطة. ماذا كنتُ أقول ؟".

"أنّك حمار سمين كبير".

ضحك عاليًا، صيحة ضحك ضخمة، فابتسمت.

"الآن. هل تكفّين عن ذلك!" قال معترضًا" لم أقل شيئاً كهذا، بل قلت إنّك تظنين فيّ ذلك.أنصتى، لديّ ما أقوله لكِ. وهو مهم. يجب أن أقول ما لديّ "رفع نظارته بمشقّة وحيثما كانت خلفت الجلد باهتاً ومغطى بفقاقيع صغيرة من العرق. كانت عيناه باهتتى الزّرقة، واسعتين تحوطهما أهداب شقراء قصيرة ترمشان بوهن. نحى نظارته خلفه والتفت إليها، وقد ضمّ كفيه تضرعًا، ولمست أصابعه أطراف أنفه.

رأت في الخلفية بيفيرلى تتكئ فوق أريكتها للتشمّس.

"أنصتى لى "قال"صديقًا لصديقة. شقيقًا لشقيقة. أعلم حقيقة الأمر. لقد كنتُ مكانك. أنا أنتِ. حين يواجه المرء الجدار الحجرى لذاته أو ذاتها، الذات التى لا يحبونها ولا يستطيعون تغييرها أومقايضتها بشىء أفضل، فإنّ ما يفعلونه هو أن يقايضوا شركاءهم. لا مرّة واحدة، بل مئات المرّات. هذا ما يفعله البالغون، إنّها نهاية مميتة. الآن أعلم ذلك، لأنّى فعلت ذلك. ما أرغب بمعرفته الآن هوما تعتزمين عمله حين يموت زوجك وتُضطرين لمواجهة حقيقة أنّه لم يكن هو، بل أنت، أنت من تكرهين؟".

لم تقل آنّيمايك شيئًا، سوى أنّ صدرها ارتفع وتنهدت عميقًا وهى تحاول السيطرة على انفعالها.

"انظروا. لدينا طبيب نفسانى هاو...".

"دعينى أكمل " قال:

"ما نوعيّة الرجل، الّذى يفشل فى رؤية البديل الواضح؟ وهوأنّه من الممكن أن يكون للمرأة الموقف نفسه نحو الجنس مثل الرجل ".

"انظر. حين يبلغ الأمر منحاً خياليًا فى الجِراب ساعتها قلّما أصير مُرشّحتك الأولى. قُلْ لى، أكانت مَسكاتى أم ظهرى المُشعر أم ذقونى الثلاثة ما شدّك لى ؟".

ونظرت آنّيمايك إليه فى ثبات.

" لا أبحث عن عون ".

"لكنك أنت من يبحث عن العون. أنت متزوجة ومع ذلك خُضتِ تجربة حميمة مع غريب خالص.كأنك تصيحين: "هنا، أنا هنا !".

"أنت موضة قديمة جداً يا سيد مولونى، أنت تقريباً رومانسى".

"كلا بل أنت الرومانسيّة! " قال رافعاً صوته، ثمّ خفضه حين وضعت أصبعًا مُحذّراً على شفتيها. كانت بيفيرلى الآن تقعد على حافة المسبح تولى ظهرها لهما، لكن على مسافة يمكن التصنت فيها.

"ما أنا عليه" قال بهمس أجشّ راح يتباطأ مُثابرًا وهو يلفظ كلماته، وقد تذكّرت الآن لكنته من فيلم ما

شاهدته عن الإرهابيين" مدمن كحول يتعافى عبر قواعده الخاصة للبقاء مستيقظًا، والّذى قلّب ذاته على الجانبين بسبب موت زوجته. تلك واقعيّة. الرومانسى هو من يظن أن شخصاً آخر بإمكانه أن يُحرره. لست رومانسياً؛ لأنّنى أعى أن أحداً لا يمكنه تحريرى. لم تتمكن هى من ذلك، وقد علمَت ذلك، وعلمته أنا. ما من أحد على وجه البسيطة يمكنه إنقاذك. لكن هذا ما تظنينه، والسبب وراء تصرفاتك ".

هزّت رأسها نفيًا:

"وإلا لِما لا تستمنين؟".

"لا ترفع التكلفة معى ".

"أعتذر" قال، وهو يرجع بظهره للوراء أكثر، كانت نبرته قد تغيّرت الآن، وكذلك مستوى صوته "لكنها ليست غلطة زوجك أنّه عجز عن تغيير حياتك، أو تغييرك. ينبغى أن تعرفى هذا. بالنظر لكونه يحتضر، لأجله وأجلك. ربما ترغبان فى مسامحة بعضكما".

"كما قُلت. لستَ فى موضع من يعظ".

"لا" ضحك بقوّة " أنا الانتهازى، من يمشى ناحية الجلبة بالحفل، ممسكًا بالأجزاء الأشد إشراقًا فى الربّ. أنا محضُ مُعلّق حقًا وتلك هى الحقيقة".

افتر ثغرها عن ابتسامة واهنة وهى تنهض لتمنح نفسها رشفة من ليمون البَنّزَهير والصودا بالشفّاطة" لك طريقة بارعة فى استعمال الكلمات".

بعد برهة أو اثنتين التقط كأسه من حافة الجاكوزى، جاذبًا نفسه خارج الحوض وانطلق داخل

بركة السباحة يغوص ضاربًا الماء بساقيه، فغمر صُحف الزمرة الأمريكية بالماء دافعًا هارى للصياح: "مهلاً !".

راقبته يقطع المسبح عدّة مرات بتصميم وغضب، ملتقطًا أنفاسًا وحشيّة من الماء فى كلّ مرّة يبلغ فيها النهاية.

ـ ٢٥ ـ

مُحجماً عن الظهور برفقة دوروثى أمام عموم النزلاء، اقترح جورج الذهاب إلى الحانة ليُحضر لهما فطيرة بيتزا.

غادر دوروثى بالدور العلوى تجلس فى الشُرفة وحدها، تقرأ كتاباً للمرأة. رومانسيًا تاريخيًا، فكّر أنّ اسمها «هرج ومرج فانى المُفرط» أو"من يدرى"(*) وكلّ الانفعالات المُصطنعة وانشغال البال غير الضرورى. مُملّة، كان هونفسه قد التقط كتاباً أواثنين منها، أشارت إليهما بقولها:" إنّهما تاريخيان"، سوى أنّهما كانا يحملان قناعتين مُغايرتين لما تعنيه كلمة تاريخى. " أترين "قال" مع التاريخ.لديك هذا الذى يجرى، ثمّ ذلك، البشر المهمون، وشخص يقترف خطأً ويحاول أن يغطيه، شخصٌ آخر يمسك الطرف الخطأ من العصا ثم يقع حادث، كالحرب، ثمّ تحاول دولة بمكانٍ ما أن تحصل على اسم جديد، دولة من تلك الدول التى

(*) فى الأصل What - have - yoy تعبير ظهر لأول مرة عام ١٩٢٠ مرادف لتعبير يعود للقرن الثامن عشر who knows what ويعنى «من يدرى». (المترجم).

لديها عدّة أسماء فعلاً. هذا هو التاريخ. لا بنتاً ما شابة تجعل من نفسها تحلية لمدرّس شاب".

جادلته دوروثى أنّ ثمّة نوعاً من التاريخ "تسميه التاريخ الاجتماعى" فرع جديد، كُلّه عن البشر العاديين. " ومن يهتم بالناس العاديين ؟" قال، "لدينا ما يكفينا لنقلق بشأنه دون أن ننشغل بالناس العاديين، بعض العامة الّذين نجهلهم، ناس لا شأن لهم". كانت قد التقطت الفكرة من حفيدتها، وكان يحاول أن يُقنعها بالصواب، سوى أنّها كانت صعبة الفهم بشأن موقفها، وواصلت ذكر أسباب حُبّها لهذا النوع على أيّة حال.

حين تأكدت تماماً من رحيله، استرخت، ووضعت كتابها فى حُضنها وأغلقت عينيها. داخل جفنيها، رأت بِركتين صفراوين مثل مُحّ بيضة.

"هاتِ أسوأ ما لديك يا شمس؛ فكُلّى توق لأجلك".

قالت دوروثى، وسحبت تنّورتها لأعلى ركبتيها، تبتسم بمواجهة الشمس مباشرة.

كان الكتاب مُغلّفاً بالبلاستيك، استعارته، وقد سخّنته حرارة الشمس. شمّت رائحته وفكّرت فى وجبات الغذاء، التى لا تُحصى، المُستّفة والمُعدّة للخلاء، التى وضّبتها لجورج والأطفال والأحفاد طوال سنوات والأيام الخوالى. استساغت مذاق الجبن والطماطم بعد لفّهما فى ورق التغليف وتركهم فى الشمس، هذا

المذاق يصيبها بالحنين، كرائحة البيض المسلوق جيداً في الأيام الخوالي أوما شابه، كم كانت بديعة حقّاً! محضُ نفْحَة من رائحة ذلك البيض، وكانت ترى جورج يعد وهنا وهناك مع البنات يحملهن على كتفه، يصطاد، يطيّر طائرة ورقيّة. كان بمثل هذه الطيبة، فاعل.

ستكون أيسر حالاً مع مُفكّر، لكن حيثما تذهب تصنع فراشك. حين قالت لأمّها إنّه هو من تعتزم الزواج منه، ردّت المرأة العجوز:" سأقول لك ما قالته أمّي لي،"أنت تصنعين فراشك وأنت من ينبغي أن ينام عليه" ولم تعي مغزى الكلام حتى فات الأوان.حين تكون شاباً، لا أحد يمكنه نُصحك البتّة. الآن، أي أحد يمكنه نصحها بأي كلام وسترى في كلامهم وجاهة ما." كلما تقدم بنا العمر، تفتّحت عقولنا أكثر" فكّرت. كان عقلها مُنفتحاً كغربال وبوقتٍ ما قريباً كانت الثقوب لتبزّ الشبكة. كانت تعجز عن التعلّق بفكرة وقتاً طويلاً، حتى أكبر الأفكار كانت تقع منها. ذكريات أو إحصائيات، مواعيد وأرقام، لكن أيهم أهم؟ هل حين ضربتها أمّها بالمغرفة حين حرقت عصيدة الفطور، أم أنّهم يقطنون برقم ٤٢ بحي سيفيو، بيكسهيل أون سي، ت. ن٤٠. ٦. ب. آي؟ ماذا عن رقم الهاتف، هل أكثر قيمة من ذكرى وجه جورج، وهو يجلس في مؤخرة عربته الكارو وقد علق روث البقرة بمؤخرة بنطلونه، بعد نزهة يوم بالريف، يوم أن قبلا بعضهما أول مرّة ؟ أي شيء من ذلك تحتاجه أكثر ؟.

هزّت دوروثى كتفيها بلا اكتراث صوب الشمس وسحبت الكتاب، أقرب نحوصدرها.

لطالما كان جورج غيورًا بشكل غريب يصعُب إرضاؤه، لا بشكل رومانسى. حاول أن يمنعها من القراءة، لم يُطق ذلك. ضايقها، وقف على رأسها، ولم يسمح لها بالقراءة. لديه دائمًا سبب يبرر به غباء ما تفعله. جادلها فى كل شىء. كانت قد أخفت الكثير بمنزلهم ذلك حتى مع عجزها عن العثور عليها. لسوف يفكرون أنّها عنزة عجوز خَرِفة حين يجيئون لإفراغ المكان بعد موتها. كُتب، رسائل، قِطع شيكولاتة، فتافيت وكسور. كانت تتوق للوحدة، للخصوصية.

"أنا بخير وجاهزة " صاحت.

الحقيقة كانت أنّه لا يقدر على تحمّل كونها بمكان آخر، حين تستطيع الإصغاء له. مرّة، تعوّد على التجسس عليها إن راحت للبلدة، أودسّت رأسها بين دفّتى كتاب، الآن ما من أحد منهما كان يعلم أين راحت بين فينة وأخرى. فقط هو بالدور العلوى عَرِفَ أين كانت تقصد، شيئًا فشيئًا، كونه تطوّع مرّة أخرى مُحطماً.

نظرت بساعتها التايمكس القديمة. الثانية عشرة والربع. سيعود قريباً.

"لا تخرجى" قال، والأحمق وضع حذاءها فوق كابينة الحمام حيث لا تستطيع بلوغه.

-٢٦-

كُلّ يوم فى المُنتجع كان مُبشّرًا بالنجاح، لنفس المواصفات والتى جزء منها هِبة من الله والجزء الآخر ترتيب بشرى. إشراقة الشمس وهبّة النسيم ونضارة الورد ونظافة المسبح. الفطور موضوع على المائدة، شراشف الأسرّة مُبدّلة، والأرضيّات ممسوحة، سكاكين المائدة مغسولة، الفتافيت المُتبقيّة من الغداء مكنوسة من الأرضيّات، وبُقع الشراب الدَّبِقة مدعوكة من المشرب، النفايات مُفرّغة ومنقولة ومُكوّمة فى حاويات نتنة مخفيّة؛ حيث يحلّق الذباب مجنونًا من النشوة. سوى أنّ تلك الأشياء حدثت قبل الصنيع الأساسى أوبعيدًا عن الأنظار. مائة رجل وامرأة توحدت جهودهم ليجعلوا كل شىء على ما يُرام لأجل أربعين أو نحو ذلك ممن يسكنون تلك الجنّة أسبوعًا، وهم يكررون جهدهم هذا كلّ أسبوع، حتى فى غير موسم الشُغل حين لا يكون ثمّة إلا نصف العدد. لقد كان مطلوبًا من برنز التكفّل بالخدمة المطلوبة لأجل الركود المادى.

"الحاجة المهمة فيما يتعلّق بالخدمة الجيدة، أنّه من الجميل ألا تعرف أنّها تحدث. تلك أطروحتى" قال

ستيف برنز لموظفيه فى أحد لقاءات أوائل الأسبوع للفريق. لم تكن أطروحته، بمعنى الملكيّة، بل فكرة تنظيميّة التزم بها ببعض القناعة. كان لديه تأويله الخاص. كانت نظارته سميكة الإطار بدرجة مفرطة تقول ذلك، فى كُلّ مرّة يلبسها كان يعرف من هو. كان يبدو كواحد من علماء الستينيات. هيئة ما مألوفة كهيئة الموسيقيين أوالطلاب، أو شئ من هذا القبيل.

لكن الموظفين قدموا الخدمة فى هيئة أميَل نحو الكآبة.

"ليست لديك القدرة على التعليم" فكّر فى نفسه، تلك الطريقة المُلتبسة البارعة الجافة لصفوة موظفى فنادق ومطاعم العالم. كانت أمراً أوروبياً. تأسل بأوروبا الثلاثينيات حواجب معقوصة، وضحك هشّ، والتضمين بأن الأولويّة لم تُعطَ بالكامل عبر ترتيب الخدمات المدفوعة.

كان يراقب بنيامين، واحد من سُقاته، ينحنى ليقدّم شراباً للمرأة الهولنديّة فى الجاكوزى. بدا بائساً.

"انخرط معهم بعض الشئ أكثر "قال لبنيامين والرجل يمشى عائداً إلى المشرب حاملاً الصينية الفارغة، ووقف داخل الحانة معه مُردفاً :" شاهد كيف أتصرّف".

كانت المجموعة الأمريكية قد تحلّقت فعلاً حول المشرب، نحو الحادية عشرة والنصف، يتطلعون

للمشروبات الخفيفة التى يستحلبونها أثناء اليوم. حِميّة هذا وذاك.تُرى هل لديهم أية فكرة عما تفعله المواد الكيميائية فى تلك المشروبات بأجسامهم؟ بدو قلقين وكانوا يتدافعون قليلاً، يتشاركون ما عرفوه من قصّة استعادة السيدة العجوز.

"ستؤدى أفضل لو تناولت مشروبًا مُناسبًا "قال ستيف، بابتسامة عريضة للرجل الأشقر الطويل، الّذى لاحظ معرفته بالرئيس:" اسمح لى أن أوضّب لك زجاجة بيرة أو كأساً لذيذة من النبيذ. فى البيت".

"كلا. شكرًا " قال جاسون بغتة، وهو يعدل حزام لباس السباحة طاوياً ساعديه بمحاذاة صدره.

"لقد انحلّت مشكلتك إذًا".

"أى مشكلة؟ زجاجات الكولا الخالية من السكر، الثلاث. المرأة العجوز؟ النعجة الضائعة؟ بلى. بلى، إنّهم فى طريق العودة وهى معهم حسب ظنّى".

"لابد وأنّه الفَرَج ".

"أكيد.ثلج وشريحة ليمون؟ مع بعض ؟ ".

أومأ جاسون:" آه ـ هه، آه ـ هه " قال كأنّه يعدّ أو يحافظ على انفعاله:" بأقل جَهد أيضاً، دون حتى خسارة ليلة نوم".

ظهر الارتباك على ستيف، طبعاً نام، وأى شىء آخر كان المفروض أن يعمله، يذرع المكان جيئة وذهابًا؟.

"لم يكن ثمّة المزيد أقدر على عمله يا سيدى، أكثر مما فعلت؟"، وابتسم برهة وجيزة.

"أنت عارف، الفتى الهولندى بطل بدرجةٍ ما".

"مَنْ؟ أوه، بلى. الهولندى. وموظفنا، الشاب آدم".

"هل تعرف أنّ الرجل مُعتلّ الصحة بجد؟ "تناول جاسون أحد المشروبات ورفعه لتراه زوجته التى نهضت من أريكتها على حافة المسبح وراحت تقترب." أقصد الرجل الهولندى. إنّه مريض، وقد قضى الليل يفتّش عن واحدة من نزلائك".

"لم أعلم ذلك يا سيدى. كلا".

"إنّه بطل" أخذ جاسون رشفة من مشروبه وحدق بعينين شبه مغمضتين بستيف." بعض الناس يذهبون لأقصى مدى".

"بلى "قال ستيف، مُقدماً العون لنفسه بكوب من الماء.

"إنّه يستحق بعض الشكر من فندقك".

"إنّ ما جرى ليلة أمس أمرٌ يصعب تصديقه، أنت تدير الأمور هنا بطريقة روتينية. أظن أن الناس تحسّ، حسنًا، إنّهم يرغبون فى رؤية بعض العرفان، فاهم "قالت الزوجة مُقاطعة، ببرود.

"طيب، سأحرص شخصيًا على التأكّد أنّ الرجل وزوجته يلقيان أفضل رعاية من موظفينا، تأكّد من ذلك، سيدى".

"كما أكّدت لى أنّك شخصيًا ستذهب للبحث عن الـزوجة " اعتصرت ميسى ذراع جـاسون ومنحته ما يُمكن أن يكون إمّا نظرة تأنيب أودعوة لعوب لقضاء القيلولة فى السرير. كان من الصعب معرفة معناها.

"أنـا أصـغى لك. بـكل حـواسى". هـذا مـا تـعلّمه. تـأكّد أنـهم يـعـرفـون أنّك تُصـغى لـهم، عـلى أمل أن يروحوا فى داهية.

"هل تعرف أنّ السيدة العجوز مُصابة بالزهايمر" قالت ميسى.

"أوه حقًّا؟ ". قـال سـتيف " لم أكن أعـرف ذلك" هذا الخسيس الخَرِف العجوز ! أكان مُضطرًا لإحضار زوجته إلى منتجعهم مع علمه أنّها من المحتمل أن تهيم على وجهها فى أية لحظة ! لماذا لم يخبروه ؟.

"إذًا سـوف تـمـنـحـهم بـعض الـتـقـديـر، حـفل أو اجتماع ما؟" واصلت الزوجة.

"لقد كُنتُ أخطط لحفل فى الواقع، بعد العشاء الليلة " قال، وقد مشى الزوجان الأمريكيان مُبتعدين، وقـد وضع الـرجل يـده فـوق مؤخـرة زوجـته الـعـاريـة. لحـظـة أن اسـتدارت لـتمشى فـحسب حـين صـار من الـواضح أنّـهـا لا تـرتـدى شـيـئًـا أكثـر من ثوب خفـيـف شفّاف".

نظـر ستيف ناحية بنيـامين ـ الّذى فشخ ضبّه ـ ثمّ اعتذر.

- ٢٧ -

عقب غداء فى الحانة وظهيرة قضاها مُغمض العينين، راقدًا على حافة المسبح، بدت حوادث الليل ليست حقيقية. كان جان مُتضايقًا سوى أنّه كان منهوكًا جداً ليفعل شيئاً حيال ذلك. كان هونفسه مستنفدًا، وقد التصقت رأسه بالغطاء الكتّانى لحشيّة الأريكة. حركها يمنة ويسرة يتملّكه شعور بأنّ الشمس تطعنه برماحها الذهبيّة الهائلة أينما ذهب. ورأى، مرّةً أُخرى، جورج ودوروثى يقفان معًا فى رواق شارلوت.

"لا أفهم شيئاً "قال لنفسه، "عدا أنّ الجميع يبدون أدنى لمعرفة أى شىء أكثر منّى". جلس مائلاً للأمام فوق كُرسيه، مُسقطاً قدمه فى الخُفّ المركون على جانبيه. راقب قطرات العرق ترمح عبر صدره وتهبط المجرى الأوسط لتنتهى كبركة صغيرة فى سُرّته.

قُبالته، كانت امرأة صينية تنشر منشفة فوق أريكة شمس شاغرة. لم يسبق له أن رآها من قبل. كانت تلبس ثوب سباحة أسود مضلّع، وقبل أن تقعد اعتدلت وهى تُمسِك بمشبك شعر بين أسنانها، تمسّد

شعرها الأسود بطول كتفيها للوراء عن وجهها لتصنع منه ذيل حصان. مالت للأمام مثل رياضيّة، مستقيمة من خصرها، والتقطت كتاباً بغلاف ورقى من حقيبتها التى إلى حد ما مُتباهية؛ كانت تحمل شارة ذهبية ثقيلة جداً تتدلى من السحّاب، ضخمة بالقدر الكافى لتحجب نصف الحقيبة ومع ذلك حين سقطت أرضاً، ألقت عليها نظرة دون أن تتحرك لإعادتها. مُستلقيّة، رفعت رُكبة، وتحسست نظارتها الشمسيّة، وقبل أن تلبسها، لاحظت شيئاً وراحت تمسحه من طرف منشفتها وفيما تفعل ذلك، رأته يحدِّق بها فمنحته ابتسامة واسعة، كاشفةً بعض أسنانها.

مضى للسباحة، أولاً وقبل كلّ شىء ليتمكّن من رؤيتها دون أن تراه. كان رأسه يقبّ ويغطس فى الماء، ومع كلّ نظرة، كانت مشاعره تنمو وتتأكد من أنّ ثمة شيئاً هوليووديًا بشأنّها. دفعته ابتسامتها للتفكير بريّات الشاشة اللائى زيّنّ نشرات الأنباء اللائى شاهدهن طفلاً فى السينما بمدينة بروغ. كُنّ ليرفعن ذراعًا للجماهير من دَرَج قطار بخارى مهذبات، صبورات، واثقات من أنفسهن.

عائدًا لمكانه فوق الأريكة، رأى آنّيمايك قد غادرت الجاكوزى ورجعت لحجرتهما لتقضى قيلولة بعد ظهيرة مُتأخرة. كانت قد قضت صباحها كله بالشكوى من إعيائها، وقد رغبت أن تكون ملؤها صحة وحيوية من أجل العشاء، لم ترغب بالتعرّض كثيرًا للشمس، وقد عزمت على العناية بنفسها هذه الإجازة، كما قالت:

كان يسبح فى الفراغ، بعينين مُغلقتين، وقد استولت على مشاعره بالكامل سوى أنّ عقله كان يهيم وراء حواسه كأنّه يختلق أحلاماً، ويلصق الذّكريات معاً. فيها، كان رجلاً طليقًا، بلا زوجة ولا أولاد ولا تاريخ، هو فحسب. وقد انعطف حول زاوية فى ليلة صيف بمدينة واسعة، بروكسل أو باريس أو لندن أو حتى نيويورك، ليفاجأ بنفسه برفقة المرأة الصينية معاً حول منضدة بالهواء الطلق، بالقرب من عصّارة مطبخ صاخبة مُثبّتة بالجدار البرّانى. أحسّ بالخِفّة، وبنفاذ البصيرة. كان بمقدوره الرقص بقدمين مغروستين، فى حِل أن يقول ما يشاء، أن يقول الحقيقة أويختار الكتمان. كونه غريبًا على نفسه مثّل بهجة صافيّة، كانت هى من امتلك الشخص الجديد. خلقه اهتمامها، ولوأنّها استطابت ما رأته إذًا كان سيعيش. ترنّح قلبه بغتة مثل قارب يتخبّط بجدار مرسى. كلاهما كان مُعتَصَرًا بين الأزواج الآخرين، كمناضد مغروسة فى الحصى. كانت المرافق تَكِأة لحفظ بعض الاتزان بين الوجوه المتقابلة. رأى الناس يشربون أشياء لم يسعوا لها (كانت ليلة السبت)، ويقولون أشياء لا يطيقونها (كان الوقت متأخرًا) . تمنى لولم يلحظهم، لقد كانت عيونهم الآن المُسلّطة خلال ما رأى فيه نفسه، الرّواقى(*) الكهل ذوالوجه الصارم غارقاً فى إدمانه الجديد، ثملاً بمشكلته التى اختلقها لنفسه.

(*) أحد أتباع مذهب فلسفى أنشأه زينون نحو عام ٣٠٠ ق. م يقول بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الانفعال، ولا يتأثر بالفرح. أو الترح وأن يخضع من غيرتذمر لحكم الضرورة القاهرة. (المورد).

وماذا أحلى من مشكلة يصنعها المرء؛ لأن المشكلات التى يصنعها الآخرون بالغة السهولة ؟.

رأى، وهو يُعيد النظر للمشهد، أن جسده كان يتقلّب، وبتعبيره رأى اللحظة البائسة؛ حيث يدرك المرء أنّ أحداً بحاجة للعون، ولومن نادل فحسب. شىء ما كان مفقودًا، يجوز أنّه ليس إلا شراب يُعيد الأمور لنصابها الصحيح ؟ اختلجت يده سوى أنّه ما كان ليرفعها، وجاء النادل وقد بدأت الليلة جادة. كانت النُجيمة الصينية ساكتة، منيعة كملصق. كانت حقيبتها جديدة وغالية، وكذلك حذاؤها وثوبها، طلاء شفتيها كان الإشارة الوحيدة أنّ ثمة فرصة لعمل خصم، وكان الإطراء الّذى اختار أن يلقيه على مسامعها نفيسًا جداً. كان من النوعيّة التى تمنحها لشخص أواثنين فحسب طوال حياتك. كلا، لن يطيق ذلك أبدًا! لن تسمح له تنشئته الكاثوليكية أن ينبذ آنّيمايك، بغض النظر عن الظروف. لقد كان أمرًا يثير الرثاء إنفاق مثل هذا الوقت على هذه المرأة، والكلام بالصراحة المؤلمة عن الحب.

بمجرّد أن انتهى من ذلك، أحسّ بالندم.

غابت. كانت مُتَخَيّلة، وليس ثمّة ما يمنع ألا تكون هناك. كانت بالكاد تحيا الآن، وكانت عيناها تجويان ببطء أرضًا جديدة، وطأتها للتو، وحددت قيمتها بهدوء. ولم تبتسم.

فتح عينيه ورأى المرأة الصينية، التى ترقد مستوية على ظهرها، بكتاب تدلى من يدها.

ربما ما كان يجب أن يقوله لها: " أنا وحدى. أنسى كل شىء عداى. سآتى إليك للمساعدة" .

سوى أنّه كان يعرف أنّ حقيقة المرء ـ حتى حين يعرفونها، حتى لو كان يكشفها مع آخر نفس يلتقطه ـ هى بالنسبة إلى شخص آخر لا شىء أكثر من عبء ثقيل.

ـ ٢٨ ـ

أحسّت دوروثى بانشغال بال جورج بشأن نيتهم العشاء بالخارج تلك الليلة، حتّى وهو يغتسل عرفت أنّه ألقى على نفسه خطبة حماسية فى الحمام. خرج وصفّق بكفيه عاليًا، فوثبت.فكونها امرأة عجوزًا لم يكن بصعوبة أن تكون رجلاً عجوزًا، يجوز مضى بها العمر لكن جورج يجب أن يكون دائمًا الرجل. لم يقل كلمة طوال الطريق للعشاء، مُحافظًا على أسنانه مُطبقتين. وكرفيق مثالى، سحب يدها فوق ذراعه ووضع يده الأخرى فوقهما.

"لن أنخرط فى كلام بشأن ما جرى "قال لها بعد الغداء وأردف،" سيرغب الناس بمعرفة التفاصيل. بعضهم كان مُهتمًا، حسب ظنّى، سوى أنّ البعض الآخر محض فضوليين لعينين. لذا، سنتصرّف فحسب وكأن شيئاً لم يحدث ".

"هل هذا ما سيفعله كلانا على السواء؟" سألته، فهزّ رأسه بالإيجاب، مُستغرقًا بأسباب قلقه.

أخذا طاولة ولسبب ما انضم لهما زوجان أمريكيان، استهلا الكلام بهراء ما عن "مغامرتها"

وكونها "جد سعيدة للطريقة التى انحلّت بها" وتطور للزوج الّذى يعرف رئيس المجموعة. وبعد عدّة كئوس أخبراهما بتفكيرهما بمدى سقَم الطريقة، التى عالج بها المدير الأمر. تعامل جاسون مع ما ظنّ أنّه الجُرح الأكثر جديّة، الأنا لدى جورج، أمّا ميسى فركّزت على مشاعر دوروثى. مع تواصل الثرثرة، عجزت دوروثى عن متابعة ما يقوله الرجلان. كانت لتفضّل أن تعرف كيف سارت الأمور بدونها، كأن تشهد جنازتك الخاصة. كانت منتشية نوعاً ما أن تسمع رجلها جورج يرتب الأمور، والتفكير فى كونه لحاله، يبذل قصارى جهده. تلك كانت الحاجات التى أرادت سماعها، سوى أنّ المرأة واصلت لغوها دون انقطاع.

كانت المرأة جذّابة. لكن دوروثى أحسّت أنّه وقاحة منها أن تجلس نصف عارية، وثدياها تقريبًا مكشوفان، وقد بانت حلمتاها تقريبًا خلال ثوب أبيض خفيف. ماذا تعوّد أصدقاؤها اليهود فى لندن أن يقولوا؟ كبد مفروم. تلك هى الطريقة التى شعرت بها دوروثى وقد امتعضت منها الآن مباشرة بالدرجة نفسها التى كانت تمتعض بها حين كانت لا تزال شابة نضرة الوجه.

انضم آخرون إليهم، بكلام لطيف، وقد استطاعت التواصل معهم إلا المرأة الأمريكية.كانت مستحيية من بغضها الحيوانى. الاختلاف الوحيد بين دوروثى الشابة ودوروثى الآن كان قدرتها على رؤية أسباب

بغضها واضحة، لم تكن مُضطرة لاختراع أسماء أخرى له أو ادعاء أخطاء اقترفتها المرأة مجافاة للواقع. لكن حتى مع ذلك، راودها شعور بائس.

جاء أمريكيون آخرون للكلام معهم، مدفوعين بنواياهم الطيبة. تكلّموا عن إنجليز آخرين عرفوهم أو بلدة فى إنجلترا قاموا هم أو أصدقاؤهم بزيارتها، وطوال الوقت كانت عيونهم تروح وتجيء كأياد خدم، يخلون مائدة ويوضبونها، يصوغون رأياً لما بعد.

"أظنُّ أنّ أحداثاً كتلك، كأن نكون على وشك فقدان شخصاً ما، هى من حسن الحظّ الأكيد؛ فهى تساعدنا على استكناه ما هو مهم بالنسبة إلينا". قالت ميسى، وتابعت:" لقد خُضنا وقتاً عصيبًا جدًا بسبب قريبة جاسون.كانت قد بدأت فى إدمان المخدرات، وأحسّ أهلها بالعجز الشديد، مثلما تعرفين، سوى أنّنا تدبرنا الوصول لها بالوقت المناسب واستعدناها. الألم والقلق، كما قلتُ لجاسون، لأجل سببٍ ما، هو أن نُقيّم ما لدينا. الألم والقلق " وأخذت رشفة من كوب نبيذها وأرسلت تنهيدة.قويّة لتؤكّد تعودها على الأمر،" أمران مُريعان. سوى أنّك لابد وأن تعتاديهما. ثمّة الكثير من الناس ممن يتنكّرون لذلك.إنّهم يثيرون الرثاء ".

كان ما قالته معقولاً، قالت أشياءَ مدروسة ومُتفق عليها، أشياء لا تُثير حفيظة أحد، ولا ألمحت لأشياء تتعدى حدود رؤيتها. لقد نزلت حيثُ هى وظنّت أنّ محيطها هو الكون كاملاً. لا تستطيع كراهيتها، ولا

ينبغى ذلك، سوى أنّها قالت حاجات بلهجة خشنة وحاسمة.

"لقد كان أبى مدمن كحول وقد هجرنا. طبعًا عاد فى الأول حين تزوجت جاسون يريد أن نصير صديقين. لقد كان أمراً يثير الرثاء ".

لم يسبق لدوروثى أبدًا أن سمعت كلمة «ايثير الرثاء» تُستخدم بالطريقة التى استخدمتها بها المرأة الأمريكية. يا له من أمرٍ مريع أن تُختصر عاطفة الرحمة الخيريّة لما يعادلها من القرف. ليس البريطانى من تيبّست شفته الفوقانيّة أبداً، أمعنت التفكير، وهى تحملق بمشهد جورج المتصلّب فى المصعد بعد أن غادرا الحفل الراقص، بل هم الأمريكيون. وجدتهم ملؤهم كِبر وإحساس بالاكتمال. لقد عانى الآخرون بوضوح، مثل سمكة تدلّت فى الهواء، الصنانير مشبوكة فى شفاهها، وتلهث.

"تمام يا حبيبتى ؟" قال جورج والأبواب تنفتح.

"آه. بلى" قالت.

"مُتعبة ؟".

"نعم".

"ألا ترغبين بالنزول لصالة الديسكو إذًا ؟ إنّها على شرفك، كما تعرفين ".

"أوه.لا " قالت جادة " ليست لى، بل لأجلهم ؛ فلا يزالون شبابًا".

"عشاء طيب" قال، وهو يضع البطاقة فى القفل وينتظر الضوء حتى يتبدّل.

"نعم" وخلعت حذاءها وأحسّت بالملمس البارد للبلاطات الرخام على قدمها الهزيلة الساخنة.

"ناس لطيفة" قال وهو يتجه صوب الشرفة.

"بلى. ظرفاء جدًا" قالت. ورأت كتفيه تسترخيان أخيرًا. فتح الأبواب المزدوجة وتنفّس هواء الليل.

-٢٩-

فى الطابق السُفلى، كان ستيف برنز مشغولا. لقد استغرقه الأمر جَهدًا ضخمًا لنصب الموسيقى والأنوار بالمطعم الثانى وقاعة الرقص قد فشلوا بالعثور على مكبّر الصوت، وتبيّن أنّ أبنر قد أخذه معه للبيت من أجل عطلة نهاية الأسبوع؛ فراح برنز يدور على قدمه، وقد أحاط بُقّه بيديه، يصيح فى آذان مختلف الضيوف، يشرح لهم أنّ الحفل كُلّه بمناسبة النهاية السعيدة، التى آلت إليها أحداث الليلة الفائتة.

والوجوه مصوّبة ناحية باحة الرقص، أومأ الأمريكيون برءوسهم حين سمعوه، واحدًا تلوالآخر، وردّ جاسون بلهجة رسمية مهذّبة أنّ ما فعله كان «فكرة لا بأس منها». كان ستيف مُنشرحًا، وقد فكّر، فى تلك ذروة من الليلة، ما إذا كان ينبغى عليه أن يصطحب المرأة العجوز نفسها إلى باحة الرقص، سوى أنّه تبين أن الزوجين قد رحلا من أجل النوم، وفكّر برنز، لنأمل أن يُحكم الرجل وضع السلاسل على الباب.

كشّر جان حين خبط المدير ظهره للمرّة الثالثة لدى مروره بطاولتهما جنب الباب المُلاصق لقاعة الرقص. لم يقل برنز شيئاً لكنه توقّف مرّة مُشيرًا بإبهامه لأعلى بشكل مبالغ، أومرّة ثانية غمز له وقلب شفتيه قائلاً: «نِعمَ الرجل». وقد هرول نحو آدم حين عبر الأبواب واصطحبه لداخل القاعة من مرفقه وكأنّه يجلب فقرة هزليّة. أوقفه بجانب جان وصفق بيديه قليلاً.

حطّ جان يده حول فمه ومال ناحية آنّيمايك، التى أمالت رأسها لتسمعه، "هل الرجل مخمور ؟".

دارت ناحيته وكوّيت أذنه:" أظنّه يحاول أن يقول أحسنتم صنعًا ".

عبس جان وأشار إلى نيته الذهاب ليجلب لهما معًا شرابًا.

راحت آنيّمايك تراقب العاشق الزنجى الشّاب وحمولته العجوز، يتحرّكان بباحة الرقص. بدا الشّاب، بحركات وركه المتأنيّة والمَسّكَة المتشبِّثة بالجزء العلوى من ذراعى المرأة، كأنّه يحمل دولاباً فوق حبل مشدود.

رغم أنّ الموسيقى التى اختارها ستيف برنز انتعشت بالسبعينيات والثمانينيات بشكل واسع ببريطانيا فى الأساس، وتتطلّب حركات فردية، إلا أنّ الأزواج من أوروبا وأمريكا كانوا مُصرين على التمايل مع بعض، قسراً كما لو كانوا مضطرين. والتجأ كثيرون منهم للتأرجح، متماسكى الأيدى مؤقتًا حتى

يحسب المرء أوالآخر أنّه قد آن الوقت للانفصال ليدور حول كعبيه أو كعبيها أو يهزّ ويُرجِف وركيه وأصابعهم تطقطق مثل الصنوج.

دون كلل ؛ فأبناؤهم ليسوا هناك.

رقص هارى وماكسين تانجو وأشار الأمريكيون إلى كل منهما بابتسامات مولعة، وقد أحاط جاسون خصر زوجته بيده، داسّاً أصابعه تحت حزامها.

كان بيلّ مولونى يستعمل إحدى ذراعيه كدعامة لجسده الهائل، واضعاً كفّه فوق الجدار، وكانت امرأة تستظل تحته.

أشاحت آنّيمايك بعينيها وأنهت البقيّة الباقية من شرابها تنوى الرحيل.

عادت لمراقبة المرأة العجوز والشاب الزنجى. تخيلتهما فى الفراش معًا، والشاب يقدّم خدماته للكائن العجوز. كانت هى نفسها تنوى الخضوع لعلاج هرمونى إحلالى، بمجرّد شعورها بالتوردات الساخنة الأولى لسنّ اليأس. كانت قد قالت لطبيبها، لن أُكافأ عن واجباتى كامرأة بأن أصيرَ رجلاً. سأقاتل طبيعتى إذا لزم الأمر.

"أظنّها تقول إنّها تحب الرفقة" قالت لآدم بصوت مرتفع نسبيًا، مُشيرةً للمرأة العجوز، واتسعت ابتسامة آدم.

كان بيلّ مولونى يقدّم ساعده للمرأة، وهو يمسح جبينه بمنديل. لم تُطق الانتظار حتى تراه يرقص!

كانت المرأة أسيويّة، مليحة، صغيرة الجسد، وأنيقة حتى، وقد قبلت دعوته بكرم، وكأنّ عرض الرقص جاء من أمير لا من ضفدع. وبيدها اليمنى فى يسراه تحركا مرتاحين على أنغام الموسيقى، وكانا محظوظين إذ كانت الأغنية الدائرة أبطأ من الأغنيات الفائتة.

تعرّض جان للإزاحة من الصفّ المؤدى للمشروبات مرّتين وحين أشار أحد الأمريكيين قسراً إلى حقّه فى الحصول على ما يريد، رفض بهزّة من رأسه ووقف ينتظر ساكناً. تساءلت لأى مبادئ كان إخلاصه. كانت تشعر بالعطش، وقد التفتت ناحية آدم وجرجرته من قميصه الفضفاض فأحنى دماغه.

"أنا مهجورة " قالت " أرغب بالرقص ".

كان مُضطرًا؛ فرفع حاجبيه ونحى زجاجة بيرته على جنب. مشت صوب باحة الرقص، مباشرة نحو قلبها ووقف قُبالتها، يتحرّك بيسر، وقد تناغمت حركات كتفيه ووركيه مع أنغام الموسيقى، وعيناه نصف مغمضتين. حملقت فيه برهة وجيزة، بخطوة أسرع قليلاً وحركات وئيدة بذراعيها.

أحسّت بالحيرة. أين جان ؟ فمتى احتاجته لا تجده. كان يمشى عائداً من المشرب الآن حاملاً مشروبًا فى كل يدّ، سوى أنّه توقف بنصف السكّة للكلام. تمكّنت من رؤية الرجل الآخر يبتسم بأدب وجان يستفسر منهم بطريقة الكهل النبيل، المُتأنيّة والمراعية للآخرين بدرجة مفرطة.

حين عاد مولونى، بسترته الرياضية وضخامته، ليدخل مجال رؤيتها لحقت به وحطّت يدها فوق ذراعه. دار برأسه ليراها وابتسم، وابتسمت المرأة الصينية الملامح أيضاً، كأنّها على وشك كسب صديق جديد .مالت آنّيمايك عليه ليتمكّن من سماعها.

"أعرف سبب قولك هذا الكلام هذه الظهيرة " .

" آه.حقًا؟" .

" أنت ترغب بمضاجعتى مرّة أخرى" قالت.

"أحقًا ذلك ؟" .

"بلى " .

"وهل يجعلك هذا تشعرين بالسعادة لوكانت تلك هى الحقيقة ؟" .

هـزّت رأسها عن عمْد، ملوحةً بأصبعها أمام وجهه.

" هل تعرفينه ؟" . قال آدم: وهو ينحنى عليها .

"لقد مرّ بى" قالت،" لماذا يعجز الأمريكيان عن الرقص؟" كان جاسون وميسى يقفان أمام أصدقائهما، يجرجران قدميهما والشراب فى يديهما، يتشاوران قليلاً، بوجوه جادة، كأنّ لا وقت لديهما حقًا للرقص. تصادفت عيونهم ؛ فالتفت جاسون برأسه، وهتف :" أين جان ؟" .

"أوه. ينقذ شخصاً ما" . هتفت هى الأخرى ضاحكة.

"ترافقيننا؟".

"بالتأكيد "وأومأت برأسها، مولية وجهها شطرهم وتركت آدم حيثما كان.

-٣٠-

فى الصباح التالى والأيام القليلة التالية، تألّقت الشمس ودارت أجهزة التكييف، وكل شىء كان على ما يُرام. ورغم أنّ الجميع قد بانت عليهم سيماء المعاناة من نفاد الصبر - إلا أنّ الأزمة أيقظت شهيتهم للحوادث وباعتبارهم ناسًا مشغولين وناجحين، فقد عجزوا عن تهدئة تلك الشهوة الآن وقد لاحقتهم الحوادث هنا. لم تعد الراحة والتعافى تفى بالغرض.

عزت آنّيمايك استياءها للشراب. وانكشف الصباح الّذى تلا الحفل عنها تنزّ بآثار إسرافها بالشراب، سِرًا قدر المستطاع، وقد أحاطت شعرها بمنديل رأس، وجنبها زجاجة ماء معدنى ضخمة وقد انثنى وانفتل سارُنج حول جذعها، تتقلّب وتتلوى فوق أريكة الشمس ساعة زمن. أمّا جان فكان يخضع لجلسة تدليك.

"لماذا يدلّك رجال نساء ونساء يدلّكن نساء؟ لِما لا تدلّك نساء رجالا؟" قالت وهى تضع حقيبة كتفها مُغادرةً الفطور.

"أتمنى لكِ صباحاً سعيداً "قال، وهو يحطّ سيجارة فوق طبق الفنجان بجوار قهوته.

كانا قد قضيا أمسية رائعة فى البار ليلة أمس، وقد رغب الجميع بالكلام معهما. حرّضت الأزمة البسيطة شعوراً بالرفقة اعتزمت الاستمتاع بها ما دامت. وجان، الورع(*)، حين أشرفا على مثل تلك الأمور، سمح لها بالتمايل، واقفًا بالخلف، تشرب وتختلس النظرات مثل طفل اكتشف لتوّه صودا فوّارة. كان يسترخى، ولاحظت ذلك، فقد أخذ قيلولة طيبة بعد الظهر.

"تبدو سعيدًا لكونك على قيد الحياة " قالت لنفسها وهى تنظر إليه.

شعرت بثقل مفاجئ عند حافة سريرها الشمسى وكانت مُتأكّدة أنّ جان لا يمكنه المرور بسبب جلسة التدليك ؛ لذا اعتبرته أمراً مفروغاً منه أنّه السيد مولونى من يزورها.

كان آدم. وكان يأكل قطعة شيكولاتة مارس وبان عليه السرور لمجرّد قعوده على حرف السرير، يتجاوزها بنظره إلى الشغل، الّذى يُنجز بمبنى المنتجع الجديد. وأشار ناحيته.

(*) Holier- than - you إبداء مواقف تدل على الفضيلة والورع والاستقامة الذاتية أكثر من الآخرين، ويجوز أرادت المؤلفة بهذا التعبير ادعاء جان الورع أو مبالغته فى الأمر من وجهة نظر زوجته. (المترجم).

"انظرى لذلك".

"أوه. مرحبًا "قالت وهى تسحب السّارُنج من تحت وفرة عجيزتها الرطبة. هل أُمّ أم امرأة ؟ وقعدت.

"إنهم يصنعون فوضى حقيقية بقرميدى "قال، ورأت، وهى تُدير رأسها، رجلاً كاريبى وراء عَرَبَة يد، يدفعها عبر دَرَج المدخل خلال الأبواب المزدوجة المفتوحة.

"أعنى القرميد الّذى لصقه جورج "راسماً ابتسامة واسعة، وقضم قطعة الشيكولاتة مرّة أخرى. سحبت ظهر الأريكة لأعلى لتتلاءم مع وضعيّة جلستها ولتراقبه وهو يأكل. الشباب وحدهم يعرفون كيف يأكلون، فكّرت، النّاس من أمثالها لا يجوعون أبداً، لذا فهم لا يأكلون على نحوٍ لائق.

رأت سيمفونيّة عضلات، وتر وعظمة يعملان أسفل حلقه. تحت تجويفىّ وجنتيه وتمطؤات شفتيه أثناء المضغ، وذقنه الثابتة، كانت علامتا تعجّب تمتدان من فتحتى أنفه بشكل مائل إلى جانبى فمه، تعبير مُضاعف عن الانبساط. كان شعره ممشّطًا لوراء أذنيه، وحتى هاتان كانتا تعملان، وتتحركان أيضاً. ومع ابتلاعه قطعة الشيكولاتة، كان قد فرغ، وقد نبّهه صوت ارتطام مفاجئ وصيحة من المبنى الجديد، رفع رأسه مثل كلب انتصبت أذناه.

"لابد أن تتناول وجبة طعام جيدة " قالت له.

"حقًا" قال بزهو رجلٍ شاب بمناقب مُتخيّلة "لستُ فى حاجة للكثير. قطعة شيكولاتة وعُلبة كولا وبالنسبة إلىّ خالية من السكّر، وسجائر ".

"لن تكون دائماً هكذا ".

"حسنًا، أنا بالسادسة والعشرين "قال مبتسمًا" وفى طريقى للثالثة عشرة كما آمل ".

"لا أشعر بفارق كبير بينى الآن عمّا كُنت بالثامنة عشرة " قالت وهى تفرد ساقاً.

حملّق فيها مبتسماً بغموض وتجاوزها ببصره ناحية المبنى مرّة أخرى، جافلاً لدى سماعه ضجّة ارتطام أخرى مصحوبة بجولة من التوبيخ.

"إنّهم يفسدون الأمر بكل ما فى الكلمة من معنى" قال"

كانت لا تزال ممددة، فسحبت قدمها لأعلى فوق الأريكة، وترفع ركبتيها لتفسح له مُتسعاً للجلوس. التقطت كتابها.

"حسنًا. من الأفضل ألا أنظر " وأردف" جان فى الفراش؟".

"كلا. إنّه يخضع لجلسة تدليك ".

"أحمق محظوظ، أظنّه ليس بالشقى العجوز ؟".

"لا أظنّه ليفهم العرض ؛ فجان مثله مثل أستاذ جامعى أو أكاديمى. كل الأمور تحدث هنا بالأعلى "

قالت وهى تنقر جانب رأسها بالكتاب " لا هناك بالأسفل ".

رفع آدم حاجبيه: " كلام جرىء ".

فتحت كتابها مرّة أخرى.

"ويتركك مُقيّدة.أنت من يحتاج للتدليك إذًا ".

"هذا صحيح " قالت وهى تنظر إليه من فوق حافة الكتاب.

نهض وتمطأ ورأت بطنه غطسانة تحت سراويله التحتى القصير مخلفةً مسافة أمام الحزام، مسافة تكفى لكفٍّ معقولة.

"أوه . أغرب عنّى " قالت.

-٣١-

كانت الشّمس تلك الظهيرة أسخن من أى يوم آخر، ومكث الأمريكيون وحدهم بجانب المسبح. تناول جان وآنّيمايك الغذاء برفقة جورج ودوروثى بالداخل، واتفقوا على النظر فى عمل رحلة معاً، يجوز جولة بالقارب، ثمّ مشى الأربعة بالرواق المؤدى للمبنى الرئيسى. أمسك جورج بظهر جان قليلاً وهما يفترقان ؛ ليخبره بتفكيره فى الاتصال بإنجلترا ليحكى الحادثة لبناته، لكنه يخشى أن يكون بذلك يخون دوروثى، ويشهّر بها.أكّد له جان أنّه ليفعل الصواب. كانت آنّيمايك ودوروثى تتفرجان على المجوهرات الفيروزيّة والفضيّة فى فاترينة خارج حجرة الأكل حين لحق بهما الرجلان.

لدى عودتهما للحجرة، اصطحب جان كتابه للشرفة وجرّ الستارة الكنفا اللفافة لتحت ليغطى المنطقة، فى الوقت الّذى خلعت آنّيمايك ثيابها وتمددت فوق شراشف السرير الباردة والمروحة دائرة فوقها.كانت تحسّ بالضجر.

قلّبت خلال قنوات التلفاز كاتمةً الصوت. فرّقت ساقيها لتسمح بالهواء يتخللهما. عثرت مصادفة على

قناتين تعرضان مشاهد إباحيّة، وأخفضت بصرها صوب حلمتيها وفرجها وباعدت بين ساقيها أكثر.

دخل جان الحجرة ولم تستر نفسها. نظر إليها مرّتين فى طريقه للحمام، وسمعته يفتح سوستة بنطلونه ويعود، ماشيًا بخطى خفيفة مارًا بها.

"جان" قالت وقد تجاوزها،" ألا ترغب بالمضاجعة؟ لقد مرّ وقت طويل ".

"كلا" وقف وأمسك بإطار الباب كأنّه قد يختار بين البقاء وقول شىء ما، ثمّ استدار مرّة أخرى.

:"جان " قالت،" هل هوالسرطان ؟".

عاد للداخل وخلع نظارة القراءة. كانت عيناه صغيرتين.

"لا أظن ذلك ".

"هل أنا السبب ؟".

حكّ جبينه بظهر اليدّ الممسكة بالنظارة، لامعة ومؤطرة بالسلك، مثنيّة، مطوية الطرفين.

"بل نحن ـ الاثنين".

ضمّت ساقيها.

"هل أُشعرك بالتقزز ؟".

"لا " توقّف" لا. أنت جذّابة يا آنّيمايك" وضحك."هل هذا ما ترغبين بسماعه منِّى ؟ تريدين منِّى أن أقول لك ذلك الآن ".

"لم تكن مُهتمّاً حتى قبل إصابتك بالمرض" قالت وهى تحدّق مباشرة به "أحياناً أفكّر أنّ ذلك جرى حتى قبل أن نلتقى. كان أفضل لك لوكنتَ عالم دين أوطالب علم ".

"بلى" وافقها،" يجوز كنت سأصير أسعد. ربما. هل نحن بحاجة للكلام عن ذلك الآن ؟".

"هل ترغب بتأجيل الكلام عن ذلك لوقت لاحق؟".

"لا".

" إذاً، هيا نتكلم عنه الآن. هل تسمح لى بإخبارك بنظريتى ؟".

نظر لجسدها الآن وفكّر فى نسائج الغَسْل فى حمامهما، التى مرّت بأجزائها التحتيّة والتى تركتها أيام.مغسولة ومُجففة عِدّة مرات كانت تتكدّس فى كومة خفيضة مضطربة ومُجعّدة بعد تنشيفها فى المجفف، مثل بوبادومات(*). كره النسائج، وهو يراها إشارة لنشاطها الجسدانى البالغ لدرجة تضطر معها للاغتسال بتلك الطريقة، بين كل حمام وآخر. لطالما كره تناثرها هنا وهناك معروضة لعينى الولدين أوحتى أن يستخدماها بطريق الخطأ.

"أطروحتى" واصلت،" أنّ لديك ميلاً أنوثيّاً للجنس مقابل ميل ذكورى عندى ".

(*) خبز هندى محمص.

"هل هذا ما تظنينه" وأشاح ببصره، مُلقياً النظر على الشرفات الأخرى، التى تحوط المشهد أمام عينيه، وفكّر برهة وجيزة أنّه من المشكوك فيه أن يكون جورج ودوروثى يتناقشان بمثل تلك الأمور. حسد جورج على الطمأنينة التى لابد أنّه يشعر بها الآن.

"نعم. لأنّه بالنسبة إليك لابد أن يكون ثمّة ثقة، تحتاج للشعور بالأمان حتى تمارس الحبّ".

حطّ نظارته فوق الطاولة الجانبيّة بجوار الباب وخطا للداخل ليقعد على الكرسى هناك، وهو لا يزال يواجهها.

"إذًا، فأنتِ تملكين ميلاً ذكوريًا ".

"نعم" قالت وهى تعتدل قليلاً قاعدة، مقوّسةً ظهرها.

كانت أمّها تملك ذات الميل. كلتاهما عشقتا الجدّ المتهتك الشوفينى، وأشاعتا أنّه أنجب زيادة عن عشرة أطفال، أربعةً منهم فحسب شرعيون. أى الوصايا أعطتها لها أمّها لتصير امرأة ؟ لقد كرهت أمّها كونها امرأة.

كانا ساكتين.

"ألن تستعمل ذلك ضدى ؟" ورفعت رأسها باهتمام.

"هل تريدين أن أسامحك ؟".

أشاحت ببصرها برهة وحين عادت تنظر له كانت شفتها ترتجف وترهلت ذقنها لوهلة.

"ربما " قالت . مدّت ذراعها نحوه واقترب منها. ضمّ رأسها إلى صدره يريحها فوقه، وهو يقول:" هونى عليك، لا تبدئى، فالحكاية كلها ليست خطئك؛ فلا تولولى عليها الآن ".

أمسك بوجهها بين كفّيه وحدّق بها بصلابة.

"لم نعرف، لم نعرف أبداً - لا فى البداية ولا فى المنتصف ولا الآن - كيف نتعامل مع بعضنا على نحوٍ لائق، لكننا بقينا معًا".

أومأت. وأبصر وهو ينهض شالها الصينى فوق المُتكأ عند حافة الفراش وأخذ نفسًا عميقًا.

"ألم ترغب بامرأة أُخرى أبداً خلال السنوات القليلة الفائتة ؟ لقد كنتُ أظنُّ أنّ ذلك هوالسبب فى تفضيلك الذهاب وحدك لتلك البلاد مثل بليز ؟".

"لقد قضيتُ مرّة ليلةً بالفعل فى بيت دعارة فى الحقيقة، فى مدينة بليز. ستضحكين. لقد جرى الأمر مصادفة وكان مُرعباً. أتذكرين رحلتى لأمريكا الوسطى؟ لقد مررت ببليز فى طريقى إلى جواتيمالا. فى الحقيقة، مدينة بليز مدينة مُتهتِّكة تماماً. إنّها كخيالى عن الجحيم. بالليل، تكون الظُّلمة داكنة أكثر من أى مكان آخر فى الدنيا. إنّكِ لتُقسمى إنّه ما من نجوم ولا قمر ولا حتى لمبّات نور فى الشّوارع. النّاس يندلقون فوقك من أجل فلوسك ".

التقط زجاجة بيرة من البرّاد وأشار بها إلى آنّيمايك ورفضت، ففتحها لنفسه.

"حين وصلتُ بالباص من المكسيك إلى مدينة بليز عند منتصف الليل كنتُ مُحاطاً بالعامة. تدبّرت التملّص منهم داخل سيارة أجرة وتبعني سائحان آخران. قُلنا للسائق اسم نُزُل من الدليل، فضحك، وقال مستحيل، سوى أنّه شرع بالقيادة على أيّة حال، وطلب مِنّا نقوداً وكان ردّي أنّه لن توجد نقود حتى نصل للفندق. كان السائحان الآخران معي شابين، طالبان وزوجان. تسلّق السائق الشارع وانحدر كأنّه يهدر الوقت. بالخارج كانت مجموعات صغيرة من الرجال، تنتظر. في النهاية توقّف، وسط شارع، حتى دون أن يقترب من الرّصيف. نظرت من النافذة، وكان واضحاً أنّه أخذنا إلى كرخانة، وقد جلست فتاتان واجمتان في فرندة بيت كولونيالي أبيض وحين شاهدتا وصول سيارتنا، دخلتا ثمّ عادتا برفقة المدام".

" قال السائق: "هنا" وأوقف السيارة وأطفأ النور.طلب مِنّا مبلغاً من المال، ورفضت، فأنتظر السائق ببساطة غارقاً في الظُلمة حتى أنّي عجزت عن تمييز بريق عينيه، ثمّ انفتحت أبواب سيارتنا على يدّ مجموعة من الرجال ودخلت شظية ضوء السيارة ـ نصل سكين. حاولت النهوض وأعادتني يدّ من الخارج جاءت عبر النافذة المفتوحة إلى مقعدي. أعطيت تعليمات للشاب، وكان فرنسياً، أن يجرّب ناحيته، ونجح بالخروج ووقف بالخارج، مغموراً في طبقة أخرى من الحبر الأسود، ممسكاً بالباب

يقول Vite! (*) اخرج خرجنا وراءه لنستكشف ما يحوطنا . بعد أن أعطيناهم نقودنا، تركونا نمشى. مشينا، وقد حمل كل منا حقيبته فوق ظهره، نحاول التفكّه. كُنّا معًا فى هذا الأمر.ما من بطولة فى محاولتهم سرقتنا ولا فى تسليمنا نقودنا لهم. كان أمرًا دنيويًا شأنه شأن التسوّق.أذكر حرارة إحساسنا بالخيبة حين جلسنا لاحتساء كوب بيرة فى حانة كوريّة. حاولنا العثور على أرضية مشتركة وفشلنا.عجزنا عن سحب طبيعة أومبرر صالح على مكان بائس ؛ فحين يكون كل شىء سيئًا، كيف يمكن لشىء مفرد أوشخص ما أن يكون صالحاً أوطالحاً ؟.

سألنا المالك أين يمكننا المبيت وأشار إلى الطابق العلوى. كانت لديه حجرات، وتوجّب علينا الدفع مُقدماً. كانت معى بعض الشيكات السياحيّة وطلبت منهما أن يسمحا لى بالدفع. شكرانى ببرود كأنّ الأمر كان جزاءً ما عن كونى أكبر منهما .أقولُ لك، شعرت ببعض الحسد بشأنهما وأنا أخطو بمحاذاة باب حجرتهما فى طريقى عبر الرواق إلى حجرتى. سمعتُ صوت الترياس وصوتاً أنثويًا التقى دمدمة رجولية. كانا بأمان بوجودهما معاً.لم يكن ثمّة مصابيح نور تعمل فى حجرتى، ولا قفل. كانت كلاب مربوطة تنبح وتعوى أثناء الليل وقعدت ساهراً، بملابسى، وعُنقى غير مرتاح عمداً فوق جانب حقيبتى.

(*) بالفرنسية فى الأصل.

ثمّ، من الغرفة المقابلة جاءت الجلبة الحيوانيّة للوجع. كانت امرأة تئن وتصرخ وتنتحب وتستجدى وفى خلفيّة جلبتها كان الصوت المكتوم المتتابع لآلة رجل ضخم. بعض النساء يفضّلن عمل جلبة، يرغبن بالوجع ليثرن ضجّة بشأنه قبل أن يرزقن بطفل ويثرن ضجّة بشأنه أيضاً، هكذا فكّرت فى نفسى. بعض النساء يحببن أن يجرحن، وبعض الرجال أيضاً. يجوز هوالآخر، ويجوز تبادلا المواقع.سوى أنّى أفكّر أنّ مثل ذلك الترتيب الكوزموبوليتانى كان بغيضًا فى ماخور بمدينة بليز. لم أعرف ماذا أفعل. جلست لبرهة، ثمّ مشيت عبر الرواق وقرعت الباب. كفّت الآلة لحظة، وردّت المرأة.

"هل كل شىء على ما يُرام ؟" سألت." اذهب" ردّت. كان صوتها مُحايدًا لا ينم عن شىء. لابد وأنّه كان ساكناً، ينتظر. وهكذا، عُدت للحجرة لأجلس فوق الفراش وأصغيت حتى انقطعت الأصوات. أحسست بالغباء.

حين أشرقت الشمس رأيت الحجرة ونهضت لأغادر قبل أن تصحو أى من الكائنات الليلية. رُحت إلى الحمام كى أبول، ورأيت دماً على الأرضيّة. كان بإمكانى التبوّل بأى مكان فى تلك البلد، فى الشارع، على أرضيّة الخمّارة، فى مصرف. لكن ليس فوق دمّ بنى آدم. أردت الرحيل، وسمعت أصواتًا ملؤها الهلع قادمة من الباب التحتانى للصالة، كان المالك الكورى غاضباً وخائفاً، كان الصوت لرجل آخر، عدوانى، ثمّ

خطوات ثقيلة تجرى والكورى ينادى على زوجته. فى المدينة، ذلك الصباح، ذهبت للمصرف، سحبت بعض النقود، وأخذت قارباً لجزر الكايز وقلتُ لنفسى إنّ الليلة الماضية انطمست بفعل أشعّة الشمس المُشرقة فوق الجزر وعبير الغانجا بالهواء.

سوى أنّى كنتُ مخطئاً. لقد بقيت الليلة بداخلى. كنتُ لأحوز فرشاة للشرّ، وحدى بتلك الحجرة أصغى لرجلٍ وامرأة يشبكان الوجع والبهجة لعمل شىء خاطئ. أدركت أن الجنس يمكن شراؤه أوبيعه. سوى أنّ شيئاً تأسس بشأن الضجّة فى الليل ألقى بى ـ نحوالخير. لقد كان، ماذا، أربع سنوات مضت على تلك الرحلة ؟ لقد كان هذا تقريباً آنئذ حين أسلمت نفسى للحظّ السيئ، للسرطان ".

"هل تظن أنّه قتل المرأة ؟".

"لا أعرف ما جرى. لقد شعرت بالسوء حيال الأمر برمته. لقد بدا الأمر وكأنّى دون بوصلة أخلاقيّة هناك. أو يجوز، وهوالشىء البغيض بدرجة أكبر، كنتُ خائفاً. ربّما لهذا السبب استسلمت أنا الآخر، لقد اطلعت على ماهيتى آنذاك ".

لم يتكلما أبداً بهذا الشكل مع بعضهما سنوات طويلات، كلاهما.نظرت لزوجها. كان جالساً على حافة السرير بجبهته المتغضنة وعيونه المنتفخة، وأنفه الطويل يشير إلى الأسفل حيث يداه اللتان استراحتا معاً بين ساقيه.

"لِما لم تخبرنى تلك الحكاية من قبل ؟".

سطع وجهه برهة ثمّ خبا.

"جزء من الاستسلام. حسب ظنّى ".

كانت المروحة تدور وتدور وتدور فوقهما وفكّرت بغتة فى الأنصال فى مقدمة الطائرة. وهما يخطوان هابطين إلى مدرج المطار الكاريبى ويمشيان ناحية مبنى المطار، التفتت لترى الطائرة الخالية، وضجّة محركاتها تخبو، المراوح تتباطأ بشكل فاجع، تضرب الفراغ، متورطة فى سخونة الزبد، فى طريقها للتوقّف التام.

"هل سبب لك هذا نفوراً من الجنس ؟".

ضحك:"لا .لا أظن ذلك ".

"لكنه نفّرك منى ؟".

"لا".

"تريد مكاناً آمنًا".

"نعم ".

"هل تذكر ما قُلته لك فى أول إجازة لنا معاً، حين كُنّا فى البحر، نحاول ممارسة الحبّ فى البحر ؟".

"نعم " قال،" لقد تكلّمنا كثيراً ".

فى البحر المتوسط، فى ذروة امرأة شابة قد لائمها عشيقها تمامًا، شبّت بين ذراعيه وقد رفعها نحوه قائلة: "سأفتك بك". فيما بعد، وقد عادا لحجرتهما بالفندق، قالت إنّها تجهل لِما قالت ذلك. وأجاب أنّها نادراً ما سعت للتباهى.

ـ ٣٢ ـ

فى عشاء تلك الليلة، جلس بيلّ مولونى مع السيدة الصينية. جان وآنّيمايك وجورج ودوروثى تجمعوا مرّة أخرى، الرجلان مفعمان بحيويّة معقولة، يتمازحان معاً ويشربان نبيذاً جيداً، والمرأتان بطريقة أخرى مشغولتان.

امتلأت غرفة الطعام مبكراً تلك الليلة، وجاء بيلّ لطاولتهم وبيدّ فوق كرسى كل من الرجلين سألهم إذا ما كانوا يحبون مرافقته فى رحلة قصيرة غداً.

"نحتاج تغييراً بالمشهد" قال. أراد القيادة لشمال الجزيرة، وإلقاء نظرة لرؤية ما إذا كان ثمّة الكثير مما يمكن مشاهدته. لديه حشوة لنزهة على الشاطئ، ومُتسع فى السيارة.

"لنا جميعًا؟"سألته آنّيمايك بحاجبين مرفوعين، تُقرّب كأس النبيذ نحو فمها، وتجاوزته ببصرها صوب السيدة الصينية، " لنا جميعاً والسيدة صديقتك ؟".

"لوريا ؟ لن تأتى.هى هنا من أجل الاسترخاء؛ فلديها شركة علاقات عامة ضخمة فى هونج كونج، وتحتاج للراحة ".

نظرت دوروثى للمرأة المدعوة لوريا، التى وضعت شوكتها وسكينها على جانبى الطبق، وهى ترسم على وجهها ابتسامة لهم، مُشرقة. لوحت لها تلويحة قصيرة وردّتها دوروثى.

"هل هى متزوجة ؟"سألت.

"مُطلّقة ".

"أوه" ولوحت دوروثى مرّة أخرى،" حاجة لطيفة". رأت مدى جمال صنعة فستان المرأة الشّيفون الرمادى، تطريز إمبراطورى، ورأت ـ وهى تنظر تحت الترابيزة ـ حذاءها المتناسق مع الفستان،" لطيفة جدًا ".

بلع جان ومسح فمه، وابتسم للمرأة بصرامة.

"إذًا سترافقوننى؟" سأل بيلّ.

أومأ جورج بالإيجاب." لا بأس.أ ثمّة وفرة فى الطعام ؟".

"دجاج وخبز وشطائر، سلاطات. كيشى(١) أواثنان وكعكة فيكتوريا إسفنجيّة ضخمة، هل تصدّقون.صفيحة أواثنتان ـ أخّ (٢)، قد يوجد أربع

(١) طبق مخبوزات فرنسى مصنوع من البيض والحليب أو القشدة.
(٢) Och تعبير أيرلندى عن الدهشة او الازدراء او الانزعاج أو نفاد الصبر أو الرفض. (المترجم).

وعشرون، لا أذكر " أضاف مُسلطاً عينيه على آنّيمايك بابتسامة.

"حسنًا. لستُ نجمة هونج كونج المُتلألئة، سوى أنّى جئت هنا للاسترخاء أيضاً. لذا سأدع ثلاثتكم تذهبون بدونى " قالت.

"الدجاج" قال جورج،" قُلْ لهم أن يطهوه جيدًا يا فتى، حتى لا يكون ثمّة دمٌ فى اللحم. لا أستطيع أكله قرنفلياً أو نيئَ المظهر ؛ فذلك يقلب أحشائى " .

ضحك بيلّ : "معقول " .

"عجبًا، كيشى وكعكة إسفنجيّة "قالت دوروثى وهى ترفع حاجبيها وتمطّ عنقها،" يبدو الأمر شاذًا قليلاً فى الجو الحار " .

:"ممكن أن نأخذ بعض الآيس كريم من أى مكان" .

"آه. لقد تناولت مشروباً مُثلّجًا لذيذًا يوم أن كُنتُ بالخارج " قالت،" إنّهم بارعون بشأن الأفكار المُتعلّقة بتلك المشروبات هذه الأيام" لاحظت أنّ الجميع ساكت أو ينظر فى مكان آخر فتوقفت قبل أن تتابع،" حين خُضت جولتى الممتعة" وضع جورج يده فوق يدها وأمسكها بخشونة،"أنا أتقدّم بالعمر قليلاً فحسب " قالت وهى تنظر نحو آنّيمايك،" العقل يتراخى أيضًا، كما تعرفين. فى الأول الجسد، ثمّ العقل " .

رأت آنّيمايك شظية من لحم الجمبرى عالقة بالشفة التحتانيّة للمرأة العجوز، مثل فقاعة بثرة فارغة.

"حسنًا. سيكون لديك ثلاثة رجال ظرفاء ليعاملوك مثل ملكة غداً "قالت، وهى تربت على يد دوروثى.

"سوف يحصل " قال جان وأومأ بيلّ.

طرف جورج ورآه جان يضع كفّه الشبيهة بطبق ضخم فوق كتف زوجته ويعتصرها برهة، كأنّها حركة غير مألوفة.

عند ذلك اتفقوا على اللقاء فى مكتب الاستقبال فى التاسعة، وراقبت آنّيمايك بيلّ وقد رجع لطاولته وكُله شغف بالمرأة الصينيّة.

"إنّه مسيحى، كما تعلم" قالت آنّيمايك بابتسامة صغيرة،" يولد من جديد ".

نظر جورج ناحية بيلّ،" كلا. ليس كمثل هذا الهراء الأمريكى المهووس بالكتاب المقدّس ".

أومأت آنّيمايك،" لا أهتم بما يتبعه الناس سوى أنّهم يبدءون بالوعظ، ساعتها أعجز عن الإصغاء ".

"هل وعظك ؟"سأل جان.

"حاول هدايتى فى الحوض الساخن أمس. سيحاول معك غداً، أتوقّع ذلك ".

"آه. آمل ألا يحدث " قالت دوروثى،"يعكّر صفوى الكلام عن الدين؛ فهو ليس بالأمر الّذى ينبغى الكلام بشأنه. مثل الكلام عن الميداليات، لا يبدو أبداً أمرًا ينم عن تواضع كبير. هناك من يمتهنون حرفة الكلام ومن يكتفون بالعمل ".

"أنت على حقّ " قالت آنّيمايك،" أنت مُحقّة تمامًا يا دوروثى ".

ونظر ثلاثتهم نحو بيلّ مرّة أخرى فى سُكات.

فى سبيلهم إلى الخارج، بلغ جاسون وميسى الطاولة، ذراعًا فى ذراع، كانا قد اتجها ناحية المشرب وأرادا معرفة ما إذا كان بإمكانهما تقديم مشروب ما بعد العشاء لأى أحد. رفض الزوجان الإنجليزيان وقَبِلَ البلجيكيان. تبعهما جورج ببصره مثل كلب ينظر لرجل يحمل عصا.

"تذهب وتتناول مشروباً " قالت دوروثى.

"لا".

"بلى، تناول كأساً، سأكون على ما يُرام".

"سأمشى معك وأعيدك أولاً، ثمّ قد أشرب كأسًا "قال، وهو يمضغ على جانب واحد من فمه، وعيناه جامدتان.لم يعد يسمع ما يقوله الآخرون، ولا يردّ على أسئلتهم، وعاد للحوار فقط بعد أن أُخليت الأطباق.

- ٣٣ -

كان ستيف برنز مشغولاً فى الاستقبال صباح السبت ببنطلونه المحبوك جدًا. كان وزنه قد زاد وبنطلونه التّشينو مشدود لا حول وسطه فحسب، كما هو الأمر مع الرجال، بل عند المقعدة أيضاً. كان يدفع للذاكرة بأحد مُعلّميه بالمدرسة، الّذى أسهم فى حاسته البالغة الحِدّة تجاه ما ليس باللائق، رجل كان يلبس بنطلونات فرح حمراء داكنة، وعجيزته تترنّح ببذاءة بين صفوف الطلبة، وصوته يتشدّق متهكمًا.

أحسّ برنز كأنّه حبّة فاكهة، يوزّع كرّاسات، يرسم دوائر بالقلم الرصاص فوق خرائط، ويُذكّر المقامرون بحَدَث مساء السبت وهم يغادرون الفندق. رأى امرأتين ذواتا قدرة على الإقناع أكثر نضجًا،"قطعتا فِضّة" كما يُطلق عليهم فى العمل، تُطلقان تعليقًا بشأنه من مكان اجتماعهما على كرسيين مصنوعين من الخيزران، وهما تحدّقان به من فوق كراستيهما عن رحلات الصيد. سألهما ما إذا كان بوسعه تقديم بعض العون لهما وسمع صهيل ضحكهما وهما تمشيان مبتعدتين. كانت عجيزته تترنح، كان على يقين

من ذلك، إنّه البنطال، ثمّ التفت مثل أحد لوطى بوطلين(١) وقال لهما موبّخاً وقد رابط عندهما،" الآن، الآن، سيداتى، لا مجال لهذا الكلام ". كان عملاً كريهًا، بعض الأحيان.

جاء الأمريكى ليناقش معه مسألة ترتيبات الرسو فى حوض السفن من أجل يخت صديقه. كان رزينًا وكذلك كان برنز فى ردّه. كانا يتناقشان بشأن قارب يبلغ طوله مائة قدم، لا قارب صيد. ذكّر برنز السيد رايدر، جاسون، بما نصحه به من قبل ـ كان أمراً مناسباً. أومأ السيد رايدر بحلم، دون أن يصغى على الإطلاق.

"لا أريد أيّة مشكلات فحسب " قال.

صديقه، لا السيد كوهين لكن صديقاً مُشتركاً لكليهما، صاحب رأس مال مُغامر خطير، يعتزم الرسو على رصيف السفن نحو الحاديّة عشرة. كان يعتزم اصطحاب بعض النُزلاء لقضاء اليوم بالخارج. كانت مدام دى جروت بين هؤلاء النزلاء،آنّيمايك.

عجز برنز عن تصديق أنّ جاسون ليُغرم بالمرأة الهولنديّة بالنظر لامتلاكه شريكة فراش (٢) سهلة الانقياد لحدّ كبير، كما يُطلق عليها الأمريكان، بترتيبه الواضح للعيان، لكنه تعوّد على حدوث كل أنواع

(١) مجموعة من معسكرات قضاء العطلات فى بريطانيا.

(٢) Piece of ass تعبير دارج باللهجة الأمريكية يعنى شخصًا يعد شريكًا للمضاجعة يُطلق بشكل خاص على المرأة التى تكون فى العادة محل كراهية والمقصودة هنا زوجة جاسون. (المترجم).

الترتيبات فى تلك العطلات.لابد أن يؤلف كتاباً ؛ فقد رأى كل الشىء، قال لنفسه، وهو يُفكّر بالمرأة العجوز والشاب الزنجى.

كان رايدر مُتأهباً طوال اليوم، بنطلون كاكى قصير وقميص كِتّان فظّ حول شارة بولو، شعره أشقر مُتسخ ولزج، مدهون ضد الهواء والتراب.

"هل سيكون يوماً طيباً لبعض الصيد، ماذا نتوقع؟ سمك المارلين ؟".

"ما من فكرة عندى يا سيدى " قال برنز.

"ما من فكرة ؟كيف يتأتّى ذلك ؟".

"أيها البغيض" فكّر برنز،" أنت محضُ نكرة مغرور لعين مُضجر، لابد أن أقول لك أن تُقحم كُل هذا القارب البالغ مائة قدم فى مؤخرتك الأمريكية الضخمة ".

"أخمّن سمك القَنْبَر، وملك السمك. ماذا يُطلق المحليون على سمك الدولفين، سمك مقلى ".

هزّ الأمريكى رأسه، واتسعت فتحة أنفه،" أظُنُّنا سنعود بكل تلك الأسماك.وضّب لنا شيئاً للغداء. لدى صديقى مساعدان، وسيتولون مسألة الأكل، لكننى لا أريد أن أظهر فارغ اليدين. بعض المحار والدجاج والسلاطات، لا شىء سريع العطب أكثر من اللازم. أفترض أنّك تستطيع عمل هذا ؟ مرحباً يا حبيبتى ".

أومأ برنز.وصلت الزوجة،فى طقم متناسق عدا أن قميصها بلا كُمين ونصف مشبوك بالأزرار فحسب، وقد لبست تحته القطعة الفوقانيّة من بكينى بحريّة منقّطة.سحب رايدر رباطاً.

" أختبره فحسب " قال.

"حبيبى" قالت تؤنبه،" ستربط العقدة بإحكام شديد لدرجة لن تنفك ".

أشاح برنز بنظره، وزمّ شفتيه المغلقتين معاً ليمنع نفسه من التفوّه بأى حرف، وحين اقتربا من الباب، سمح لنفسه أن يهتف بهما،" لا تنس حفل الديسكو على الشاطئ الليلة يا سيدى، فى الثامنة" وأضاف، مثل أحمق ردىء كان مُتيقنًا من ذلك،" الملابس اختيارية !" همهم وركل أبواب المطبخ المُتأرجحة وهو يعبرها مُخلفاً حذاءً مصقولاً عليه بقعة هناك، إذ لم يمسحها، ما كان أحد آخر ليفعل.

"أين وجبات الغداء الخاصة بحفل السيد مولونى؟".

"أوشكت على الانتهاء " قال بريان، الراستافارى(*) الّذى كان يطهو هذا الصباح. كانت ضفائر الرجل الطويلة مربوطة معاً فوق رأسه. بدا مثل الكُرّات، وقد اتكأ فوق حافة طاولة يقرأ عناوين الأخبار فى صحيفة، ودائماً ما تكون بشأن كرة القدم

(*) أحد أتباع ديانة جامايكية تعتبر Ras Tafari (إمبراطور أثيوبيا السابق، هيلا سيلاسى (١٨٩٢ ـ ١٩٧٥) إلهًا.

أوالكريكيت. هذا العدد كان مُكرساً من الغلاف للغلاف، لواقعة مفادها أنّ الفريق الإنجليزى للكريكيت كان يُدّخن المخدرات. " اللعنة يا رجل ! لم يسبق لى أبداً أن عرفت أن قومك منخرطون بهذا الهراء" قال وهو ينخس الصحيفة." إلا آدم، إنّه يحبّ التدخين، ويجىء للتدخين معى كل بضعة أيام، إنّه يحبّ أخذ الأمور ببساطة ".

"طالما هو، أوأنت، لا تدخنان هنا، فى المبنى، فلا شأن لى يا زميلى.الآن، ماذا لدينا للفراغ منه ؟ نحن بحاجة لتوضيب بعض الأشياء لمجموعة من الأمريكيين. ما الطعام الّذى على وشك الفساد ".

"لدينا بعض الدجاج ".

"لأى درجة قد يفسد ؟".

"ليس بمثل فريقك للكريكيت ".

"لا بأس.جهزهم مع بعض المحار. الكثير منها. الحشوة الخام. وبقايا السلاطات، وفِر حمولات من المَيُونيز، وأى نفايات قديمة عالقة. هيا نجعل صديقنا سالمونيلا يفرّ من أجل نقوده عن تلك المرّة. أجعل الطعام يبدو جيداً ؛ فأنت تعرف أنّهم سيهدرون أغلبه على أيّة حال ".

"مؤكّد. فحين يكون لدينا أمريكان أعرف ذلك، تمتلئ صفائح نفاياتهم من أطباقهم " هزّ الطبّاخ رأسه،" إنهم يجعلوننى أذرف دموعاً حقيقية عند رؤية

ذلك " ووضع يداً فوق كتف ستيف،" لا تشغل بالك يا رجل، سأتكفّل بالأمر ".

"قبل الحادية عشرة يا زميلي إن أمكن" قال ستيف برِقّة،" وأشرب بيرة على حسابي ".

"شكرًا يا رجل ".

حسنًا، قال لنفسه وهو يرجع لمنطقة مكتب الاستقبال، ثمّة شيء واحد على الأقل، أنّه، ستيف برنز، ليس كاملاً ولا بائسًا بالكُليّة.

- ٣٤ -

أفطرت دوروثى وجورج بمجرّد أن انفتحت حجرة الطعام، عند السابعة، وتسكّعا على الشاطئ لمدة نصف ساعة، ثمّ قتلا الوقت بالتمشيّة فى المنطقة المحيطة بالمبانى. هتفا لدى رؤيتهما سِلال النفايات، وراقبا هِرّة تشقّ طريقها فوق قِمّة جِدار، ولوحا لكاميرات المراقبة ثم رجعا لصالة الاستقبال ليكتشفا أنّ لديهما ساعة أخرى انتظار. عادا لحجرتهما لكى يستعمل جورج المرحاض مرّة أخرى، وقلّبت دوروثى نظرها بتفصيلات الفندق وراجعت تذاكر العودة للوطن. لحسن الحظّ، تزامنت رغبتهما المتزايدة لتفحّص تفصيلات حياتهما مع امتلاكهما الوقت لذلك. بدءا يستطيبان الأمور الكُبرى، الجداول والخطط، ويتكلّمان بامتداد السنوات، خالصين لحالة من الرِّضا بتأمّل تفاصيل خلوّتهما يوماً بيوم.

جاء جان لصالة الاستقبال عند التاسعة، فى طريقه لتناول الفطور مع آنّيمايك، بعد أن غطسا فى البحر مُبكراً جداً. نهض الزوجان الكهلان ثمّ جلسا وكان جان يلقى نظرة على ساعته، رابتاً على معدته وهو يُعبّر عن أسفه.

"لا أشعر حتى بالجوع، لذا سأستغل الأمر. ربّما بيضة " قال جان.

عادا للكراسات التى كانا يقرءانها.

"أقول" قالت دوروثى،" إنّها تلك السيدة الصينيّة".

رفع جورج بصره، فوق إطار نظارته. كانت تقف عند مكتب الاستقبال، تتفحّص بعناية الأوراق القليلة هناك، والتى كان جورج يعرف أنّها ملاحظات لحماية الممتلكات ذات القيمة وتحذيرات بشأن البحر.

:أنيقة جداً "قال.

نظرت دوروثى إلى زوجها ثمّ إلى المرأة. كانت تلبس جوب وتوب، وشرائط مُزينة بالخرز على نحو رائع، وسكّربينة مكشوفة الأصابع، وكُلها مُتآلفة بدرجات البنفسجى الخفيف. وقد عقدت شعرها الغزير خلف رأسها وغطت نظارة مُنمقة عريضة الإطار رأسها الضئيل. لوحت لهم حين استدارت واتجهت نحوهم. نحا جورج كُتيّباته على جانب الطاولة وخلع نظارته، ووقف.

"طاب صباحكم".

"سأجىء برفقتكم أيضًا "ابتسمت،" لقد أقنعنى بيلّ بالمجىء. أرجو ألا تمانعوا، وألا يسبب لكم حضورى إقلاقاً لراحتكم ".

"أرجوألا تخالفى ظنّى أنّك لن تشغلى حيزًا كبيرًا "قالت دوروثى بابتسامة واسعة ومقدار كبير من الضحك.

"رائع". أضاف جورج.

"هل تظنين أنّى بحاجة لثوب استحمام ؟" سألت، تخاطب دوروثى.

"لا فكرة لدىّ. أرجوألا نحتاج ؛ فليس لدى واحد أنا نفسى".

هزّت المرأة رأسها برزانة والتزمتا السُكات.

"الجو حار" قال جورج أخيراً." الجو حار، اليوم" انتهزت المرأتان تلك الملحوظة ووافقتاه على رأيه.

حين وصل بيلّ مولونى، تلقى ترحيباً ملؤه ألفة تجدر برجل بمثل حجمه وكرمه الّذى نشأ بغتة، خصوصًا حين تحول بمعارفه إلى ضيوفه. خبطه جورج على ظهره، وعاتبته دوروثى على تأخره، ثمّ، لدى قوله إنّه حضر مُبكراً، قوبل بالعتاب؛ لأنّه جاء مُبكرًا جدًا. ابتسمت له لوريا طوال الوقت، وقد أمسكت بمقبض حقيبتها الصغيرة بيديها الاثنتين.

تمشّى جان وآنّيمايك فترة وجيزة بعد أن عرض بيلّ على الآخرين الطريق الّذى اقترحه فوق خريطة القيادة.تذكّرت دوروثى ما قالته آنّيمايك بشأن تدين بيلّ وخامرها شعور بالارتياح حين رأت أنّه جلب الخريطة والمفاتيح فحسب، ما من محفظة جلدية مشئومة. كان من العسير تصوّره كرجل مُتديّن، كان شخصاً غريب الأطوار، أكثر انفتاحاً من الحياة، ولو أن يسوع كان بالجوار تلك الأيام لما لاحظه أبداً، لقد أخبرت جورج أكثر من مرّة، ثمّة ما لا يُعد ولا يُحصى

للنظر إليه. ربّما وقف بجوارها فى محطة الباص وكانت لتتلهى بالنظر إلى إعلان ما مُعلّق هناك.

"لن أحضر " أسرعت آنّيمايك تقول، تلوّح بيد واحدة لهم،" أنا أمنح زوجى توصيلة فحسب ".

باسها جان على خدّها،" لقد دعاها الأمريكان للخروج برفقتهم على متن قارب صديقهم ".

"أوه، ارتدى سترة نجاة " قالت دوروثى بسرعة، وكأنّها تذكّرت الكلام حالاً.

رسمت آنّيمايك ابتسامة فاترة وغادرتهم. كانت قد اعتزمت الرجوع للحجرة لتلبس قميص كارولين هيرارا.

"أرجو ألا يكون لديكم مانع بشأن مجيئى برفقتكم "قالت لوريا مرّة أخرى، ولاحت على وجهها الجديّة.

نظر جان ناحيتها مباشرة، ثمّ أخفض بصره إلى الأرض، وخلع نظارته، وراح يهزّ رأسه.

"كلا" قال بإيجاز، بفمّ مشدود،" كلا ".

رأت دوروثى أمارات التلعثم على ملامح لوريا كأنّها حسبت أنه ربّما ارتكبت خطأ. تفحّصت لوريا بيلّ الّذى وقف عند مكتب الاستقبال يملّس الخريطة قُبالة الفتاة هناك للتأكّد من دِقّة المسار. استدار وأشار إليها بيده.

"خذوا بالكم من تلك "قال ثمّ أومأ لسلّة فوق الأرض على جانب صالة الاستقبال،" ذلك هوالغذاء"، اتسعت ابتسامته، ينفخ الهواء فى خديه.

تشارك ضيوفه هتافات الدهشة والسعادة.

"ساخنة جِداً على الأكل" قال جورج، وقد وجد أنّ لُعابه قد سال لدى تفكيره فى سيقان الدجاج المشويّة والملفوفة.

"سأتدبر الأمر" قالت دوروثى، وضحك الآخرون.

كان جورج قد تجلّى حالاً عن أعجوبة فى صوان السُّفرة ("لا أهدر الأكل، أنا آكل ما آخذه " قال فى دفاعه).

مشى جان مُبتعدًا عن المجموعة، نظارته فوق أنفه، موليًا انتباهه للكُتيّبات التى قرءوها جميعًا من قبل.

- ٣٥ -

كانوا جميعاً سُعداء بالإفلات من السيارة بعد ساعة من القيادة، كل منهم يضيف سبباً خاصاً به أوبها، من أجل بناء إجماع مُهذّب من البهجة.

تدبّر بيلّ بمشقّة شريط كاسيت ضمّ أنجح أغانى بوب مارلى من أجل الطريق، وترجرجت السيارة المُستأجرة فوق طريق مُعبّد وسِكّة ترابية، شبّت خلف الباصات الصفراء أوالزرقاء وأبطأت فى تناغم مع تعليقات بيلّ. كان من الممكن، بسبب سرعة بلغت ستّين ميلاً أكيدة بالساعة، أن ينزلقوا بمسار حلزونى لو أنّ خاطراً ما مرق بذهنه، وبيلّ يلفت انتباههم لشىء ما، رافعاً صوته ليكون مسموعًا.

كان الميل للأمام ليعنى احتكاك ساقه بساق لوريا التى جلست فى الوسط بينه وبين دوروثى، لذا فقد أمال جان رأسه فحسب ناحية الوسط كى يرى بيلّ أنّه حاز على انتباهه. كان بيلّ يخلع نظارته ويرتديها، وهو يطعن بأصبع أشبه بنقانق لحم الخنزير الخارطة التى أمسكها جورج كأنّه مساعد الرّبان، ويتطوّح على لوحة القيادة حين يضحك، دافعًا جورج للصياح،"انتبه!" واضعاً كِلتا يديه فوق الحاجب الزجاجى للسيارة.

أثارت، كوميديا القيادة والشروق، الّذى لا تشوبه شائبة وجاذبية الموسيقا وذرائعها البسيطة، جان. كان لديه إحساس ساحق أنّ المشهد بتمامه مُقدّر لصالحه، أثراً وموسيقا ورسالة. وتساءل ما إذا كان هذا راجعاً لغياب آنّيمايك، وتساءل أيضاً، بقليل من الخجل، ما إذا كان بسبب من وجود المرأة الصينيّة هناك، ملاصقةً له.

سحب بيلّ السيارة نحو استراحة على جانب الطريق وأخبرهم أنّ الحظّ قد واتاهم؛ فهذا الشاطئ كان ـ بلا أدنى ريب ـ أفضل سرِّ صغير حوفظ عليه فى العالم.

"سنمنح نفوسنا غذاءً على القدّ هنا، هذا ما سنفعله " قال، بأيرلنديّة مُتكلّفة ومشى حول السيارة بطريقة هزليّة، يرفع كُل رُكبة فى الهواء وينزل بها جانباً.

شرعت المرأتان باللغط معًا بشأن ثياب السباحة، وأسكتهما بيلّ من صندوق السيارة.

"الآن، هلا كففتما عن حماقتكما حيال تلك الشكليّات البسيطة، لقد وهبنا الإله الطيب ما نحتاجه كى نعوم، ولأجل هؤلاء الّذين يشعرون بأنّه لم يهبهم كفاية أوأنّه منحهم الكثير للغاية، ثمّة علاجى الخاص الّذى طوّرته بنفسى ".

"أنا لا أرتدى سروالاً تحتياً مثلك" قالت دوروثى.

ضحك الآخرون، وقد أدركوا آنئذ أنّها تلقى دُعابة، وتابعت فى عجل وكأنّها تضع فى فمها قطعة كراميل لن تتذوّق مثلها مرّة أخرى أبداً." طيب، لا أرتدى واحداً، حتى ولوكان نظيفاً ".

"ما من فرصة لأى من سراويلنا التحتية أن تكون نظيفة بعد تلك القيادة " قال جورج، وتذكّر جان جدّه يقول إنّ الإنجليز أحبّوا إلقاء الدعابات بشأن السراويل التحتيّة. لم يُصدّقه. ابتسم الآن فى وجه لوريا، يفكّر فى جدّه، جالسًا إلى طاولة المطبخ، يهزّ رأسه ودموع الضحك تملأ عينيه، يُلقى واحدة من نِكاته التى انبغى عليه قولها عن الحرب العالميّة الأولى. رجل اشتهر بخفة دمه البِكر، ليس لديه سوى أمور طيبة يحكيها عن رفاقه. فكّر جان مرّة أن خِبرته هى من علّمته مثل ذلك الاحتمال والوقار، لكنه عرف الآن أنّ ذلك كان خَياراً. لقد نُحت بدن شخصيته من خامة قويّة، وانقاد بعين مُطّلعة.

"إذًا، فما العلاج يا بيلّ ؟" سأل جان.

"حوالى خمس زجاجات نبيذ وصندوقى بيرة ".

"سيحتاج الأمر أكثر من هذا لتجعلنى أتعرّى " قالت دوروثى.

"لا يستغرق الأمر معى فى العادة أكثر من نصف زجاجة شاندى" قال جورج.

"ومن سيقود السيارة فى طريق العودة ؟"سألت لوريا.

تبادلوا النظرات.

"الآن، حسب تقديرى" قال بيلّ، مضيّقاً عينيه محدِّقاً بالسماء،" من رؤية إلى أى مدى الشمس مُسلّطة ودرجة الحرارة التى تتجاوز التسعينيات وكونى أتعرّق مثل مغفّل، سأمرر البيرة عبر جسدى بمعدّل واحد وخمس وسبعين من مائة باينت فى الساعة، وهذا يسمح لى بثلاث زجاجات فى الساعة، لنقل ستٍ فى المجموع قبل أن نواصِل ".

"يُمكن أن تكون محض تحسين" قال جورج بصوت خافت للآخرين وهم يتبعون مضيفهم هابطين نحوالشاطئ.

"ربّما ينبغى علينا أن نطلب منه أن يشرب تسع زجاجات" قال جان واندهش حين قهقه الآخرون بصوت عالٍ؛ فضبط تعبيره الجدّى.

حين صنعوا مائدة من العديد من سيقان الدجاج، وغرسوا شوكاتهم بالسلاطات الرطبة البيضاء، واستعملوا مناديل بعض وأكواب البيرة البلاستيكية كيفما اتفق، تمددوا فوق بطاطين ومناشف تحت شجرة وشرعوا بالكلام عن الجنّة.

"إنّها إنجلترا بالنسبة إلىَّ، لا يمكنك مقارعتها فى الصيف أبداً، طازجة ومبهجة " قال جورج.

"أحبّ أن أستنشق نسيماً "قالت لوريا،" تلك هى الجنّة بالنسبة إلىَّ، إنّها شىء يجب أن نصنعه لأجلنا فى هونج كونج، إنّه أحد أسباب محبتى للسفر ".

"الآن، بالنسبة إلىّ، إنّها الرفقة ما يصنع الجنّة، والدردشة الصالحة " قال بيلّ.

"ألم يصف سارتر ذلك بالجحيم ؟" قال جان واحمرّ وجهه بمجرّد أن قال ذلك.

"إنّه فتى متشائم" قال جورج وهو ينقل ساقًا مصدراً أنينًا.

"رجلك لم يشرب كفاية " قال بيلّ،" مؤكّد، أقول هذا عن قناعة، نظراً لجهلى المُطلق بالزميل المسكين".

" الجنّة بالنسبة إلىّ أن أكون مع الأسرة." قالت دوروثى،" لا شىء صحيح بالكُليّة دونهم" كانت سعيدة بشكل سريع الزوال، وهى تقف وتحدّق بالمحيط الأطلسى، سوى أنّ ابتسامتها خبت وهى تقول،" ما كنتُ لأهتم أين كنت أوماذا امتلكت، لوعجزت عن رؤيتهم. أظنّ أنّ تلك الإجازة لطيفة جداً، وأتفهّم لما يولع الناس بالإجازات، ولقد قابلنا مثل هؤلاء الناس الطيبين " توقّفت، تنصهر، وقد احمرّ وجهها من السخونة،" طيبون لكننى أفتقد أسرتى، وقد أُنعِم علينا أنّه يلوح لى إحساسهم الأمر نفسه حيالنا، أليس كذلك يا جورج ؟".

أومأ وقلب فنجانه رأساً على عقب،" ناشف" قال،" ناشف ".

وَثَبَ بيلّ لفرضه وشال غطاء زجاجة طازجة. قدّم زجاجة بيرة إلى جان، وقال، ورأسه يتأرجح من

جهة لأخرى، " الجنّة. ما الجنّة ؟ أهى مكان يجعلنا نشعر بالسعادة أم يجعلنا ناسًا أفضل ؟".

خيّم صمت غير مُريح، ووَكَزَ بيلّ ذراعه بالبيرة، مُردفاً،" هـأنتَ تمضى، يا رجل، على الرغم من أنّك تقلّب الأمر فى رأسك ".

استلقت المجموعة، بثلاث زجاجات خاوية من النبيذ وكومة من زجاجات البيرة الفارغة، وكان جورج غافياً تقريباً حين نهض بيلّ مُترنّحاً، ينفض الرمل على مقربة منه، يفرك كفّيه معاً وقد لاح اهتمامه بتجربة الماء. مشى نحو شاطئ البحر، وراح يخلع قطعة من ملابسه كل عدّة خطوات إلى أن انتصب الأربعة الآخرون واحداً تلو الآخر،

"لن...".

"بل...".

تخلّص من سرواله التحتى وقذفه عاليًا فى الهواء وراءه قبل أن يثب إلى الماء بارتماءة ماهرة.

حين طفا لاستنشاق الهواء، ناتئاً أكثر، أطروا عليه، فرفع يديه عرفاناً وهتف مثل ولد،" واووه ـ هووه! بالغ الروعة !".

بابتسامة عريضة انشق عنها وجهه، نهض جورج وفكّ أزرار قميصه.

"ليس قُدّامنا" قالت دوروثى،" اخلع مثله، تحت الماء. وفِّر علينا التفاصيل".

حجل جورج، عابساً من سخونة الرمل على قدمه الحافية، يتحرّك مثل رجل فى نصف عمره إلى أن، بمناورات شاقة تقلّب فيها على الجانبين، تدبّر فيها إنزال سرواله ولباسه التحتى حتى كاحليه. كانت مؤخرته البيضاء بشقها الأحمر تشبه صليب القديس جورج تلوّح لهم وأوشكوا على الضحك، واضعين أيديهم على أفواههم وعيونهم، وبقى بيلّ طوال الوقت يحتج.

"ليس أنت يا رفيق،بل السيدتان !" ثمّ،" لوأنّك تفكر كثيراً فالمشهد بالخلف هناك سيئ...".

نظر جورج للوراء ليهتف،" أرنِى نفسك! " وغطس فى الماء، وساقاه العظيمتان تصنعان الكثير من موجات، وتركلان الزَّبَد، يخترق الموجات ويكسر الحواجز بينه وبين بيلّ. وسرعان ما كانا يتقارعان برفق فى الماء مثل شقيقين، وقد اتسعت ابتسامتهما، وهما يحاولان تحيّة بعضهما بأصابع القدمين.

"كيف يتأتّى للبحر أن يفعل ذلك برجلين ناضجين؟" قالت لوريا.

رأت أن دوروثى تمسح وجهها بمنديل مائدة.

"رجل أحمق "قالت وفمها يرتعد.

"هلا انضممنا لهما ؟ " قالت لوريا،" لم يسبق لى أبداً أن غطست فى البحر عارية ".

"أبداً؟" قال جان، وهو يناضل لتذكّر مناسبة سبق له أن غطس عارياً.

"لست سبّاحة ماهرة ".

"طيب، لا أستطيع السباحة وسأصير مشهداً مُريعاً " قالت دوروثى،" لكن لو أنّ الجميع أشاحوا بوجوههم للجانب الآخر حالما أبلغ الماء، سأنضم إليكم".

وهكذا، راح جان ناحية شاطئ البحر ورتّب مع الرجلين الآخرين أن يشيحا بوجهيهما، راح جورج يحتج أنّ له حقوقًا، وحدّقوا جميعاً بالبحر أوبالطريق، يعدون إلى عشرين، بصوتٍ عالٍ، مانحين دوروثى الوقت لتغطس فى البحر.

"تمام! " قالت لاهثِة، وقد راح رأسها وكتفاها يرتعدان فوق الماء وهى تحاول أن تعتدل فوق الحصى.

"أحسنتِ يا بطّة " قال جورج، وهو يشقّ طريقه نحوها.

تبادل جان ولوريا، والأغلبية تسلط عيونها عليهما من البحر، النظرات.

" لا أظن أن لدينا خياراً " قالت لوريا.

"لا" نهض جان ومشى، بملابسه كاملة، إلى الشاطئ. خلع ثيابه تحت وطأة تصفيق الآخرين البطىء بالأكفّ، وحطّها على جنب بشكل مُرتّب على الشاطئ حتى انحصر ما يلبسه على بوكسر فحسب. شرع يمشى داخل الماء، وبدأ الآخرون يحتجون، لذا فقد رجع وخلع البوكسر بسرعة، ممسكاً به أمام ذكره

حتى غطس، ثمّ طرحه. وأحسّ، عند رؤيته لباسه التحتى ماركة رالف لورين المنقّط يسبح عبر السماء ويهبط كيفما اتفق فوق بعض الخشب الطافى، بنوبة من البهجة.

"تباً ! الأمر رائع " قال وهو يشعر بالماء يحوط بقضيبه وبين جانبيه. مدغدغاً، ضحك بصوتٍ عالٍ.

ثمّ هبطت لوريا نحوالشاطئ وثوبها قُدّامها، لا تزال نظارتها مُعلّقة فوق رأسها وشعرها معقود للوراء وتعبيراتها مُختلسة. ألقت الثوب وانحنت لتغطس فى الماء بخجل، وراحت ترشّ نفسها بالماء وهى تمشى داخله كأنها تعوّد نفسها عليه.

"لم يسبق لى أن فعلت ذلك من قبل أبداً" قالت بمجرّد أن صارت داخل الماء.

راحت تعلو وتهبط على قدميها، وشعرها يثب وراءها، يداها تغطسان وتبرزان من الماء وتنثرانه مثل غبار جنّى على جانبيها، وفمها مفتوح طوال الوقت.

ظلّ جان ساكناً، ينظر لهم الأربعة، يسجّل المشهد الّذى رآها بعينيه. غرباء، تقريبًا.

"هذا جنون " قالت لوريا، وهى ترشّه بغتة، " جنون. أشعر أنّى محظوظة جداً ! ألا تشعر بأنّك محظوظ؟".

-٣٦-

لم يكن ثمّة سبب يمنعها من تكوين حياة جديدة، أو يمنعها من الحصول على كل ما تُكنُّ له إعجاباً. كم من رجالٍ أثرياء تزوجوا بنساءٍ دميمات، ورجلٌ أمريكى ليناسبها.ساعتها، لتصير بدايةً عَذْبة.

جلست على جانب اليخت تحدّق بالأفق، مُستشعرةً قوّة الشدّ فى عظام ترقوتها وقد قست حلمتيها قبالة الثوب الرقيق. كانت قادرة على إعادة إنتاج نفسها، وكان ولداها يتلاءما مع الترتيب، أيّا كان.

كان مالك اليخت، صديق جاسون، رجلاً صلبًا، راسخاً فى كهولته وآرائه. كان يُصر على هذا وذاك، ولأنه كان المضيف، فقد وافقه الآخرون بشكل مكرور على أى شىء كان يقوله.

قادهم القبطان إلى مكان لصيد السمك واحتشد الرجال حول الدُمى فى مؤخرة القارب، وكل منهم يُلِح على الآخر ليُشارك، ملؤهم حماس لمشاهدة المرح. لم تتعوّد على البقاء فى مرتبة أدنى فى قسم السيدات وأغضبها أنّ أجزاءً من هذا اليوم كانت مُخصصة

للرجال فحسب. لم تدعَ لشراب بيرة تلوالأخرى شأن الرجال بل سمحوا لها بخدمة نفسها من صندوق الصودا المثلّجة.

أضجرتها النساء وهن يناقشن بعضًا من أكثر الجرائم الصادمة تلك الأيام، وعند الغداء، أكلوا السمك الّذى اصطاده الرجال وامتدحت النساء الرجال، وأعلنت ميسى أنّ ما يخصّ جاسون هو الأضخم وفقد الجميع القدرة على منع ضحكهم، آخذين ما قالته على نحو يؤكد أن التلميح لم يمرّ دون ملاحظة. شعرت آنّيمايك بالإقصاء، فجلست ساكتة حتى سألها المالك نفسه، بين اللقيمات، عن نفسها. عزمت على أن تنحى بالحديث صوب منطقة ترملها الوشيك، لكنها راوغت، بتواضع سفسطائى، ناعتةً نفسها بأنّها لا شىء سوى واحدة من الطبقة الوسطى، لكن ميسى خادعتها.

"كلا مطلقاً ! فآنّيمايك متزوجة ببطل. لقد قضى زوجها ليلة كاملة بالخارج من أجل العثور على سيدة عجوز، تاهت من المنتجع".

بانتباه مهذّب، يتلو ألفته بالغداء، رفع المالك حاجبيه الكثيفين ليلقى النظر على ميسى وآنّيمايك، وهو يمصّ أطراف أصابعه.

"طبعاً، تبيّن أنّ السيدة تعانى الزهايمر "قال جاسون وهو يهزّ رأسه علامة عدم التصديق،" كان ينبغى على زوجها إمعان التفكير بالأمر قبل أن يجيئا".

"هل تتصوّر" قالت ميسى، وقد رفعت يدها اليمنى،" راحت المرأة العجوز تمشى، بمفردها، فى قيظ الصيف، غريبة، هائمة. أمرٌ سيئ " قالت وهى تنظر صوب زوجها بتركيز مفاجئ،" أليس كذلك ".

أضاق عينيه قبالتها وقد تجلّى أنّه لم ير شيئًا فى الأمر ؛ لأنّه حدّق بها طويلاً وهزّ رأسه على خفيف.

"مرّة رأينا رجلاً عجوزاً يمشى على جانب الطريق السريع خارج شارلوت "بدأت بيفرلى بالكلام،" كان يحمل حقيبة، أبطأنا، أنا وجو، أقصد ألا أحد يمشى فى الطريق السريع، صحّ ؟ كان أمرًا غريبًا للغاية. ويحمل حقيبة. وحين سألناه ماذا كان يفعل ـ".

قاطعها زوجها:" قال :"أمشى للبيت" وهكذا سألناه أين هو وما كان ليقول شيئاً، فقط ظلّ يمشى".

"حسناً"واصلت بيفرلى، بفم مفتوح تركته يرتخى،" لم نقدر على مواصلة القيادة وحسب، وقلت لجو، ماذا لوكان خرج للتو من السجن. ألا، إذا رأينا شيئًا فى التلفاز أوفى الصحف، بعدئذ، ورأينا وجهه، لن نسامح نفسينا أبدًا؟ رحنا نفكر فى جون بينيت رامساى، وما شابه هذه الأمور، استغلال الأطفال، البورنوجرافيا، الإنترنت...".

"كلا" قال جو،" كان ينبغى أن نفعل شيئًا، وهكذا طلبنا الشرطة ولحدٍ ما سحبناه إلى السيارة الجيب بطريقةٍ ما، حتى حضروا.رجال مُهذّبون، أخذوه معهم،

فاحتج مثيراً بعض الضجّة، هذا العجوز، محاولاً الإفلات منهم ".

"لابد وأننا سبق ورأيناه، كانت ذقنه خشنة وملابسه مُريعة. رجلٌ مسكين. أعنى أنّه ربما كان محض رجل عجوز. ألا أقول دائماً، اقتلنى لو أصير مثل ذلك..".

"ولطالما أقول، لا أعتزم دخول السجن لأجلك يا حبيبتى " وحطّ كفّه على يديها.

ضحك الآخرون وهم يتداولون سلطة الكرنب والبطاطا التى أعدّها القبطان.

"المريض العقلى خطر حقيقى.." بدأ المالك بالكلام،" أنا عضو فى مجلس، لا تسألنى كيف، بهذه المؤسسة فى ماين، وما كنتم لتصدقوا ما ينبغى على الناس هناك المعاناة منه دون تذمّر. الحقيقة أنّه لا توجد أماكن كافية لوضع هؤلاء الناس بأماكن مُغلقة. السجون تحتوى البعض، لكن السجون تكاد تنفجر تحت وطأة مدمنى المخدرات. كيف نسع هؤلاء الناس؟ كيف نجد أماكن كافية لاحتجاز كافة البشر الّذين نعجز عن احتوائهم فى مجتمعنا؟ذلك هو لغز أمريكا، باعتبارها قائدة العالم المتحضّر. بالتأكيد لم ينجح أصدقاؤنا الأوروبيون فى حل تلك المعضلة أبدًا. كلا، إنّها تنزل إلينا، إنّه سؤال كبير وشىء يكلفك ويكلفنى، كمواطنين عاديين، مبالغ ضخمة " هزّ رأسه من جانب إلى آخر، حِمل ثقيل.

"هذا الرجل العجوز، الهائم على وجهه، أعجز عن إخراجه من رأسى "قالت ميسى،" باحثًا عن بيته... إنّه أمرٌ له مغزى " كانت تتكلّم بصعوبة الآن. أومأ جاسون للقبطان، الّذى أعاد ملء كل كئوسهم، بادئاً بكأس ميسى؛ لأن جاسون أوحى إليه بضرورة ذلك.

"يجوز أراد الموت هناك "قالت بيفرلى.

" يجوز"قالت آنّيمايك، منتهزة الفرصة للحديث،" غريزة حيوانيّة. البعض يفرّ منها، طبعًا. مثل جان "أشاحت ببصرها بعيداً نحو البحر. وحطّ صمتٌ محدود.

"زوج آنّيمايك مريض جداً، جداً " قالت ميسى.

"آسف" قال المالك، ممسكاً بقطعة من الخبز الفرنسى وراح يمزقه بين أسنانه. نظرت آنّيمايك إليه. كان جلده مسفوعاً، وشعره قصيرًا ومصففًا جيداً، بدنه، الّذى تعرى نصفه العلوى، مثل ميزة مليحة، لكن عيناه كانتا كسولتين. أخفضت بصرها نحو جثمان السمكة فوق الطاولة.

نهضت لترتب الأطباق جانبًا واعترضها القبطان الّذى جاء ينطّ من مؤخر القارب.

"إنّها وظيفتى "قال فعادت تجلس، بمفردها مع أفكارها، وفيما انجرف الآخرون فى مناقشاتهم المُختلفة، انجرفت آنّيمايك فى ذكرياتها عن ولديها وهما صغيران.

تـذكّـرت قـراءة الـقـصـص لـهـمـا، صـبـى عـلـى كل جانب، تحسّ ملمس جلدهما ناعم مثل الشاموا على جسدها، شفتاهما على خدها، بكل جانب، وهى تقرأ، ينضج صوت الأم فى صدرها. فكّرت كيف أنها كل سنة تشترى ثلاث أوأربع قصص ممتعة كان يُطلب منها قراءتها باستمرار، يمكنها تذكّر تلك القصص كاملة، رجل كعكة الزنجبيل، الأمير الضفدع، رامبلستيلتسكين(*). تذكّرت مطلب الملك الأخير، "أغزلى هذا القشّ ذهباً بحلول الصباح وغداً تصيرين عروسى "،"كان رجلاً شرهاً "، كان ماركيوز ليقول كل مرّة وكانت تومئ موافقة. انضمت لهما فى تلك القناعات، آنذاك.

"هل تودين السباحة؟"قال القبطان، رافعًا رأسه من أسفل، واقفاً على الدَّرَج،" سنكون فى مكان صاف للسباحة، على حرف الخليج فحسب، خلال خمس دقائق ". كانت الساعة نحو الثالثة بعد الظهر.

"متى نرجع ؟".

"نحو الخامسة ".

فى طريقها نحوسطح اليخت، رأت الأمريكيين يتمددون يأخذون حمام شمس، وكان المالك يجلس بجوار ميسى يدلّك ظهرها بالزيت.

(*) شخصية فى حدوتة جِنّ فى الفلكلور الألمانى، الذى جمعه الأخوان جريم. (المترجم).

-٣٧-

متى فكّر جان فى الكاريبى، فكّر فى سخاء الزبرجد بالسماء والبحر ورطوبته. فى بليز، كان يستلقى مراقبًا تشكيلات السحب، التى كانت تلوح مُحالة، خرائط دول، سمكة مارلين ضخمة مُعلّقة، وسيوف مستقيمة ذات حدّين فى خطومها، أفكار وإشارات بين ثنايا منامة الربّ. لم يطلب إجابات من السماء البلجيكيّة الكابيّة البكماء من يوم لآخر. لكن فى الكاريبى؛ حيث البحر والسماء يتشاطران العالم فيما بينهما، فإنّ الأرض محض إيماءة فى الجزء الخاص بالبحر. درس اليوم مكتوب فى الأعالى، لأجلك كى تتبعه.

رقد جان على الرمل، عارياً لا يزال وقد ستر سرواله التحتى أعضاءه الحميمة، بعين واحدة مفتوحة ضاقت نحو السماء.

حين اعتدل رأى الماء ينشق عن لوريا، ثابتة القدم، مثل ديفا تقطر ماءً، تشقّ طريقها مباشرة نحوه. انقلبت معدته من الرهبة. جلست جواره، تعتصر الماء من شعرها وراء رأسها، ورأى بطرف

عينيه ثدييها، ناعمتين ومُبللتين. خشى على نفسه وتجشأ عدة مرّات.

"هذه هى الجنّة ! هنا والآن!" صاح بيلّ من الماء، واثباً مثل نبتون.

"إنّه مصيب تمامًا " قالت لوريا وعبس جان لحظة إزاء غرابة لكنة هونج كونج، التى شابت تعبيراتها الإنجليزيّة،" لا أظنُّ أنّ ثمةَ ملكوتًا فى السماء، بل أظنّها وظيفتنا أن نصنع واحداً فى الأرض، أثناء حياتنا ".

ابتسم وحافظ على وجهه مصوبًا للأمام، مسلطًا تركيزه على بيلّ كأنّه ولده ويخشى عليه خطر البحر تذكّر حلم يقظته بشأنها.

"أنتِ جميلة يا لوريا".

ابتسمت، وقد رفعت رأسها فى الأول، وعيناها وفمها يستفسران ـ ثمّ اعتدلا بتفتّح الإدراك. شبّ نصفها العلوى وهوى عدة مرات دون أن تطرف، وقبل أن تنبس بحرف، باغتها قائلاً،" هل تساعديننى؟" توقّف،" لا أعرف ماذا أقصد بكلامى ".

أمامه، على ركبتيها، وضعت أصابعها حول معصمه وقلبته وهكذا كان الجلد الناعم فوق أوردته يقابلها، نظرت إليه وأدنته من شفتيها وقبلته.

"شكرًا " قال، وقد أحسّ بمزيج الشمس والبيرة يضطرمان فى صدره.

-٣٨-

"حسناً، لقد منحتنا من غير ريب بعض التسلية يا بيلّ، كُنّا فى حاجة لها " قال جان بودّ، حين انضم لهم بيلّ يقطر ماءً ليجفف نفسه ويلبس سرواله التحتى مرّة أخرى.

"أنت على حقّ.لقد كان ثمّة زحام شديد ليلة أمس، وهوالسبب الّذى جعلنى أرغب فى الخروج. سيكونون عدداً وفيراً سهل الاستثارة الليلة، وستحترق أعصابهم أيضاً دون شكّ " رفع بصره نحوالشمس وتنهّد بابتهاج وهويجرع بيرته.

:" لقد أخبرتنى زوجتى أنّك مسيحى مُتديّن، من أتباع الميلاد الجديد"(*).

"الآن، هل أبدو كمسيحى مُتديّن ؟".

(*) يمثل الميلاد الجديد تجربة روحية رمزية تقبل بالسيد المسيح باعتباره المسيا Messiah وتعترف بالروح القدس. ويعود أصل المصطلح لعبارة وردت على لسان السيد المسيح حسب العهد الجديد «أجاب يسوع وقال له الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يوحنا ٣: ٣)، وهو مفهوم يرتبط بالخلاص فى المسيحية. (المترجم).

وضعت لوريا كفّها فوق جبينها لتحجب أشعة الشمس عن عينيها وتراه،" لكن أى امرئ يمكن أن يبدوكرجل مسيحى" قالت.

جلس بيلّ، يعدّل سراويله التحتى قليلاً أثناء جلوسه.

"فى الحقيقة أنا رجل مسيحى".

أومأ جان."ماذا يعنى ذلك ؟" سأل، ثمّ أضاف،" لا أقصد أن أكون وقحاً. لقد نشأت كاثوليكيّاً، وكذلك زوجتى، سوى أنّى لا أظن أنّا كُنّا لَنَصِف نفسينا كمسيحيين مُتدينين ".

"كاثوليك، بروتستانت، مسلمون..." قال بيلّ، "كُلّ ذلك الهراء يصدمنى، كما ترى. لدىّ علاقتى الخاصة... أعجز عن الكلام عن الطريقة، التى يؤمن بها رجل آخر".

"لكن ماذا يعنى الإيمان لك؟ ".

"سأخبرك"وتوقّف برهة، مُتأملاً البحر،" إنّه يعنى محاولة استحضار الربّ فى قلب كل شىء أفعله، أن تجعله حاضرًا، حتى الآن. أحياناً تكون مُثقلاً جدًا بدرجة تعجز معها عن الإفساح أو أنّك لا تُفسح وأحيانًا تكون خفيفاً للغاية، فتنسى. إنّك تُخفق باستمرار وهذا ما أجده مُبهجاً، الإخفاق طوال الوقت. أحد أسوأ الأمور".

مدّت لوريا ساقيها ورفعت وجهها إلى الشمس، ومال جان للأمام، قَلِقاً ومتأرجحاً، كأنّ الجوع قرصه.

"كيف تعرف يقيناً؟ لم أعرف أبداً، حتى وأنا طفل".

"حسنًا، الأمر يختلف من شخص إلى آخر. بالنسبة إلىّ، كانت مُعجزة ".

حَزَنَ جان فجأة. وجهه على حبّة طماطم، راسمًا صليباً على بطاطا، ضربٌ ما من شفاء مروى عنه فى لوردز(*)، كُلّ أمنيات الأمهات لأطفالهن المرضى، والنساء اللائى يصلون بقدر رجائهم.

"زوجتى، جيرى، كيف أقول لك ذلك " أبتلع بيلّ ريقه،" هيا نبدأ بحقيقة المسألة. لقد ولدت فاشلاً. وجيرى، التى عانت كثيراً، مفعمة بالأمل أن تنتشلنى من الخمور. الآن، أقدر على الشراب والتوقف بعد كأس أو كأسين، لكن فى بداية حياتى كنتُ أعجز عن ذلك. كنتُ، وما أزال، نموذجاً عفناً للرجل، أستطيع القول، وكفّى مبسوطة فوق قلبى، أنّى بحياتى السالفة، ما فعلتُ خيراً؛ لأنّه خير فحسب، لعلمك، دون أوتار مشدودة. لقد جرجرنى الناس وراءهم فى فضلهم أومُتخبطاً فحسب بين الناس أنوب عنهم فى مُعظم مصالحهم، مُتصوراً أنّه أنا من يملك خطة. لقد رحلت عن بلفاست طفلاً برفقة أمى الأرملة إلى جنوب إفريقيا. وهى أحبّها الله، جرّتنى وراءها طوال حياتها.

(*) مدينة جنوب غرب فرنسا على حدودها مع إسبانيا يروى أن السيدة العذراء تجلت بها، وهى إحدى مزارات الرومان الكاثوليك للحج على أمل حدوث معجزة بشفائهم من الأمراض. (المترجم).

كانت امرأة ذكيّة، وقد أنهت تعليمها وهى حبلى بى، ربّتنى وهوتُدرّس الإنجليزيّة بالجامعة الملكيّة فى بلفاست، براتب ضئيل يعيننا على الحياة. حين مات أبى - كان يكبرها سِنّاً بكثير - قبلت عرضاً للذهاب إلى جامعة جوهانسبرج للتدريس، وهكذا نشأت فى جنوب إفريقيا، بدءًا من عمر الخامسة عشرة.كانت مُتألقة، ومع ذلك كُنت أعدّ بشقّ الأنفس الأصابع على كفّى السمين، رغم أنّى، مثل أغلب المراهقين، حسبتُ أنّى كنتُ شخصاً استثنائياً.

كانت تمارس التدريس طوال اليوم لأبناء البيض، وفى الأمسيات كانت تروح للضاحيّة للتدريس هناك، لأبناء الزنوج. كانت امرأة طيبة، باركها الربّ. نقطة ضعفها الوحيدة كانت حنينها للمملكة المُتحدة، وقد أحبّت، فى أيامها الأخيرة، اقتناء المجلات التى تحتوى على صور للأسرة الملكيّة. لم تشرب، عدا كأس ما أحياناً، لم تدخّن وإذا كانت قد اجتذبت فى أى وقت رجلاً آخر، ما كُنتُ لأعرفه أبداً. لا أستطيع تذكّر أنّها قالت شيئًا ذكيّاً، يدلّ على كونها أستاذة جامعيّة، لكن من المؤكّد أنّه لا يقرّ فى ذاكرتى أنّها قالت شيئاً غبيًا طوال عمرها. لِماذا، أنا على الجانب الآخر، ثرثارا.

عملت لدى شركة صغيرة فى تثبيت معابر الأمن فوق النوافذ والأبواب، وحالفنى بعض الحظّ، فقد كان ثمّة طلب كبير عليها فى السبعينيات حين بدأت، وقد نسخت ذات يوم فى كراسة أسماء مورّدى الشركة وبعض زبائنهم، ثمّ، فى العام التالى، أطلقت مشروعى

الخاص معتمداً على نقود من أمّى. اشتريت شاحنة، واكتريت غلاماً من قبيلة النكوزا كان يساعدنى فى حشد المُفلسين من باب لباب. بين الاستهجان تارة والطقطقة تارة، كنتُ أخبر الخادمة الزنجيّة كيف يمكن لهؤلاء النكوزا الملاعين أن يصلوا إليها، لوكانت من الزولو، ولوكانت من النكوزا أخبرها أنّ الزولو كانوا ليذبحوها فى فراشها. طبعًا كانت لتخبر سيدتها وتعطيها بطاقتى. كانتا إذا راحتا تهربان أخبرهما أنّ هذا ليس كفاية وإن لم تفعلا كنتُ لأقرأ عليهما دينهما الجديد. الخوف، هوما كُنّا نتاجر به. وهكذا، صارت لى عشر فرق أوأكثر من الرجال فى شاحنات تحمل اسمى تتجوّل فى صاندتون، ضاحية فى جوهانسبرج. لا ترى بيتاً هناك لا يشبه حصناً. وشغلى أغلبه قائم على هذا.

الآن، صرتُ مدمناً للكحوليات. كنتُ قد أدمنت الشراب منذ سنى المراهقة، تخليت عن بيت أمّى بعد أن أنهت تدريسها ورحتُ أرتاد البارات أشرب مع أياً من كان، بوير(*) وإنجليز، لم أعر هذا اهتمامًا، ثمّ فى العشرينات من عمرى، صار لدىّ المال لأكون فارس المكان، أتحمّل نفقات لفّة جرعات الشراب على الموجودين مرّة بعد مرّة فى بار رخيص أو آخر. وصار لدّى دولاب للخمور فى العمل وكنتُ أبدأ يومى بكميّة لا بأس بها من الويسكى، وتعوّدت على الاحتفاظ بزجاجة من ذات النوع فى تابلوه السيارة. وحين كنتُ

(*) البوير: هم الجنوب إفريقيون من أصل هولندى. (المورد).

أتعرّض للتوقيف من جانب الشرطة، كنتُ أجلس فى مقعد القيادة، مُتشبّثاً كما يرضى المرء بالزجاجة فى يدى،" أوه سيدى الضابط، لقد أفزعتنى، هذا ما فعلته يا سيدى، لذا تجدنى مضطراً لاحتساء رشفة صغيرة من تلك الزجاجة. بتلك الطريقة كانوا يعجزون عن تقرير لأى مدى كانت حداثة رائحة الخمر. ياه، لقد نجحت تلك الحيلة عدة مرّات، وفى الغالب لم يهتمّوا.

صرت عاشقاً للخمور، ولا أظنّ أنّ ثمّة ضربًا منها لم يسبق وجربته، حتى ذلك الهراء الغبى الّذى يصنعونه للشابات أوالعجائز منهن، وخمر الشيكولاتة وما شابه. وكونى جربت كل أنواعها صارت لدىّ مقدرة على مساعدة الآخرين ممن يجدون صعوبة فى العثور على ما يُرضى ذائقتهم.لم أطق ألا تكون لدىّ رفقة، وحين حصلت على بيتى الخاص شيدت مشربًا للخمور إلى جانب حجرة المعيشة. ملأت الرفّ العلوى والثانى أيضًا، ووضعت خلاطات على الحنفيّة. كان لدىّ علم المملكة المتحدة فوقه وصور للملكة مؤطرة وتتدلى وراءه. آه، لقد أحبّت أمى تناول حبّات قليلة من الكرز وهى تقف إليه. ولكم أقمنا حفلات بجواره، جميعنا أغراب، روديسيون سابقون وإنجليز جنوب إفريقيون، كُلّنا سكارى قدامى. كّنا نسكر حتى الثمالة، نعزف ألحاناً عسكريّة وأغنيات خاصة بالخمّارات. كُنا ننتهى مُعلقين بالمشرب نحاول الوقوف لأداء النشيد الوطنى، بنصف تحيّة، الرجال، والنساء تهتف.

قابلت فتاتى، جيرى، من خلال صديق أحضرها معه للبار. جاءت حديثاً من روديسيا وسبقت لها زيجة فاشلة. فى الأربعين وحسنة المظهر. كنتُ فى أواخر الثلاثينات وبديناً جداً. رثّ المظهر أغلب الوقت. فى هدوء، انتقلت للعمل معى وساعدتنى فى المكتب. وكانت تأتينى بكأس جِن مباشرةٍ فى الصباح. كنتُ أثير فوضى ضخمة قبل هذه الكأس. ثمّ شرعت تحضّنى على الإقلاع عنها. لا يمكنك أن تلومها، لقد قتلتها أكثر من مرّة تقريباً خلال السنوات العشرة التى قضينها معاً. أكثر من مرّة نكون فى السيارة ويُغمى علىّ. مرّة، كُنا فى جبال داركنسبرج وغفوت، وأمسكت جيرى بعجلة القيادة فى الوقت المُناسب وحين صحوت وضعت قدمى على المكابح، وانحرفت إحدى العجلات خارج حافة الطريق. لم تكن جيرى مدمنة كبيرة للخمور. الشكر لله أن واحداً منا لم يكن مخموراً. تعودّت على الصخب والغضب والقول إنّى كنتُ مهجوراً أوسمه ما شئت، كانت تتركنى سوى أنّها كانت دائماً تعود. لأننى كنتُ فى حاجة إليها، فقد تضرعتُ إليها أن ترجع. كانت امرأة رائعة لكننى قُدتها للخَبَل. كما ترى فقد أرادت حقّاً إنقاذى، لقد حلقت كل شعرها الجميل الطويل من أجل تسجيل احتجاجها، أخذت ماكينة حلاقتى الكهربائية وخلفت الشعر فى كومة فوق الأرض.مضيت وأنا أفكّر أنّ رجلاً بالغ الصلع غير مبال كان يسرقنا، وقد جلس فوق أريكتى يتطلع إلى الحديقة. كانت هى. لن أنسى أبدًا هذا

المشهد، شرائط من المسكرة تنثال أسفل وجهها، والخادمة جالسة فى الباحة مع مكنستها، لا تجرؤ على الاقتراب منها. "هلا توقفت الآن" سألتنى، "هل ستقلع ؟" قلت لنفسى، امرأتى العزيزة أصابها الجنون، يجب أن أعتنى بها. كما يُقال، لم أفعل خيرًا أبدًا عن قصد. ثمّة أنا وسط هذا كله، وما احتجت إليه.مؤكّد أنّى أعطيت بناتها بعض النقود من وقت إلى آخر، بنات جيرى، لكن هذا كان لأجل أن تظل قريبة منى. وحين ماتت أمى صنعت قبراً رائعاً لها، مبهرج، مثل مقبرة بارزة، لكن هذا كان لأجلى، كانت بالتأكيد تكره ما فعلته.

أصبت بأزمة قلبية وأنا بالسادسة والأربعين، عصفت بالمراوحة الخفيضة فى أهدأ جوانب حبّ حياتى، بسبب البار اللعين. كان ينبغى عليك رؤية حالتى آنئذ، كنتُ ضخمًا، ربما حتى ضعف حجمى الآن، لم تكنْ سيارة عاديّة تسعنى وهوالأمر الرائع لأنّى كنتُ أمتلك واحدة فاخرة. كنتُ أعجز عن ارتقاء عدة درجات دون التوقّف، وتنشيف العرق لاهثًا. تضرعت لى حين خرجت من المستشفى لأرى فيما جرى تحذيرًا، رمت الخمور وحوّلت البار إلى مشرب عصائر. ليباركها الربّ، الآن هل سنشرب البابايا والزنجبيل هذا الصباح، تقول، أم نتناول عصير البرتقال ومخلوط الجزر ؟".

قهقه كثيراً وشرع جان ولوريا بالضحك أيضًا. عاد جورج ودوروثى ليدخلا مجال الرؤية، كانا يمشيان

خلال الأمواج، حافيين، بملابس نصف منقوعة. كانت دوروثى ترفع أطراف تنورتها معاً، ولاح جلياً أنّها تراوح مجموعة من الأصداف، لوّح بيلّ لهما.

"آه. كانت عجيبة.كانت حياتى" تنهّد وقد جاش صدره،"لقد وهبتنى كل شىء" وأغمض عينيه لحظة." عُدّتُ لشرب الخمر. أنا أروى لك مُختصر الحكاية. إنّها صعبة كفاية على طاقة المرء كى يرويها مُختصرة. رحتُ أهيم وقت الظهيرة هنا وهناك؛ لأجل حقيقة واحدة فحسب هى عدم رغبتها فى المعرفة وقد أجّل هذا رؤيتها الأمر أسبوعاً أوأكثر، ثمّ كان عليها أنّ تواجه الأمر وتعاركنا. ضربتها. وفى اليوم التالى حين رجعت، كانت فى الحمام، مُسجاة فوق الأرضيّة. كان باب الحمام مفتوحاً، وغطاء زجاجة الحبوب مُلقى على جنب وكانت قد فرغت من بذل جهدها، قصارى جهدها، من أجل التأكّد أنّها لن ترجع مرّة أخرى ".

نظر جان إلى بيلّ وحين رأى أنّ وجهه كان غارقاً بالدموع التى سالت دون أن يمسحها، أخفض بصره نحوقدمه.

"حاولت ضخّ الدماء إلى قلبها "قال بيلّ،" هم أيضاً حاولوا ضخّ الدماء إلى قلبها لكن الأوان كان قد فات. كنتُ قد نمت حتى الحادية عشرة تقريبًا وأخبرونى أنّها ابتلعت الحبوب منذُ وقت مبكر. كانت تعرفنى، وتعرف أنّه من غير المُرجّح أن أرجع قبل وقت الغداء وكان فى جدارتى كسكير قضاء نحبها".

شرع جان بالكلام سوى أنّ بيلّ وضع يداً فوقه ليبقيه ساكتاً.

"كنتُ معها فى الحجرة حين أسلمت الروح، كنتُ أعرف أنّها تحتضر، بنبض القلب الضعيف الظاهر على الشاشة، وأنا أسمعها تخبو، فجلستُ أثرثر فحسب عن مدى فجيعتى بفقدانها، وكيف سأعجز عن الحياة بدونها وكلام من هذا القبيل ثمّ دهمتنى الفكرة، ماذا عنها ؟ أنت أيها الكومة الضخمة من العفن، ماذا عنها ؟ وعند تذكّرى كيف كانت مولعة بجمال الكلمات فى الكتاب المقدّس قلت لنفسى: «أفعل شيئاً لأجلها» ونهضت التقطه وفتحته على المزامير وشرعتُ أقرأ ثمّ دعوت الله أن يساعدنى، لا لأجلى، بل لأجلها؛ لأنها آمنت. كنتُ أجهل كيف أصلى لذا تكلّمت فحسب، بصوت عالٍ، أدعوه أن يحبها أفضل مما فعلت. بغتة، دخلت الشمس الغرفة ومرق سهم من النّور عبر نصف وجهها التحتانى وكأنّ الرب نفسه يميل فوقها ليقبّلها وطاف النور فى رويّة، يُعانق جسدها كله حتى أخمص قدميها وأنا أتفحّص حولى وحول فتحة النافذة الصغير جدًا، وكان الجو رماديًا جداً بالخارج بسبب ارتفاع مبانى المستشفى بالجوار. وكالأحمق، رحتُ أتلفّت، باحثًا عن مصدر الضوء وسمعت بالخارج هذا الصوت، فى رواق المستشفى، رجلاً يجرى بالأرجاء هاتفاً "يسوع المسيح"، كان المرء يعجز عن تبيّن ما إذا كان يلعن أم يحمد، لكنّه كان صوتًا ملؤه تأصّل، كأنّه يتشبّث بذيل معطف الربّ.

تلقّفها الربّ مباشرة مِني إلى ذراعيه وتأكدت من مكانها أنّى رأيت ذلك، وعرفت ذلك.

"كانت مُعجزة " قال بعد برهة،" كنتُ مُلحداً ثمّ صرت مؤمنًا ".

"اسأل يُستجاب لك.." قالت لوريا." بلى، أذكر".

- ٣٩ -

كان ستيف برنز يُطعم السمك عند رصيف المرفأ، فى انتظار عودة قارب الأمريكيين. كان يُشرف أيضاً على مساعى موظفيه لحشد الطاولات من أجل حفل الشواء المزمع عمله على الشاطئ هذه الليلة. كانت الأسماك تتدفّق فى الماء، تتزاحم لبلوغ فتافيت الخبز الأبيض، مثل أسماك السردين فى قبّة من الثلج.

فكّر أنّه لا يهم أن تكون أفكار المرء صائبة جدًا أوحتى استثنائيّة، بل أن يكون لديه الكثير من الأفكار فحسب وأن ينفّذ واحدة أواثنتين منها. كان يستعمل هذه البادرة فى اجتماع الموظفين. أدار ظهره للسمك تاركاً كعكة هوت دوج تهوى كاملة. فكّر فى أحداث تلك الليلة، كانت الحقيقة الجليّة أنّ ثمّة شيئاً ما جرى، لاح أنّ النُزلاء مستاءون هذا الأسبوع، وقد فشلوا بالاسترخاء. اضطر لتوفير بعض التسلية، شيء نادرًا ما تُطلب. مرّ صبى بجانبه يحمل سلالاً ملؤها فاكهة، يتبعه آخر يجمع ثمار الأناناس والمانجو، التى سقطت على الشاطئ. ثمّة عالم كامل من التباين بين الفكرة

والحدث. راح يُفكّر، أنّ الحفل كان يفسد بسهولة! فقد فشلوا فى توفير كابل كفاية لمدّها بين أجهزة تشغيل الأسطوانات، وهكذا لجئوا لاستعمال أجهزة الإستريو المحمولة بدلاً من ذلك ونصبها شأن المراهقين ذوى السراويل القصيرة المقصوصة عاريى القدمين. كانت الفكرة تثير حنيناً لدى زبائنه من الكهول، رقص الجاز على الشاطئ، المعانقة فوق كثبان الرمل، التمشيّة بمحاذاة الموج المُتكسّر، بلا حافظة نقودك ولباس امرأة ما التحتانى فى جيبك... اتسعت ابتسامته، مُسترجعًا مُراهقة لم يعشها أبداً. انفرمت مراهقته طبقًا للمزاج الّذى ولّدته زجاجة عصير تُفّاح فى حقل وتدخين سيجارة شخص ما فى المدرسة أوباينت كوكتيل وشريط من عقار الهلوسة فى بولى.عجز عن الانتظار حتى يرحل عن كل هذا الهراء.

رسا اليخت بمحاذاة رصيف المرفأ، وقد وقف القبطان فى المقدمة يحمل حبلاً جاهزاً ليلقيه من أجل تأمين اليخت فى النهاية. أومأ أنّ ستيف ينبغى أن يربط الحبل فى الرصيف وشرع ستيف بالأمر فعلاً لكن بمجرّد أن عقد الحبل وثب القبطان نازلاً وفكّ ما عقده.

"طاب مساؤك " قال ستيف وهو يمدّ يده،" ستيف برنز، مدير المكان ".

ألقى القبطان عليه نظرة، وأومأ دونما انتباه وقفز عائدًا إلى القارب. تقدّم الأمريكيون وقد بدا عليهم الإنهاك الشديد، وحدها المرأة الهولنديّة لاح

أنّها جاهزة للترجل عن القارب، وقد حملت حقيبة كتف مشدودة تحت ذراعها وعبست لدى الفجوة بين القارب والرصيف، فمدّ ساعده لها.

"حسنًا، إنّه لطفٌ منك " قالت وهى تبتسم فجأة،" لطفٌ منك". كانت يده جافة وثابتة. فكّر فى أول بنت قبلها، كانت يداها جافتين أيضًا وصلبتين وفمها مشدوداً. هاريت. أمكنه تذكّر اسمها حتى الآن، مع أنّها لم ترق له أبدًا. روح كسولة، وجسد بالٍ، كئيبة، وهى لا تزال بالرابعة عشرة.

"أنتِ على الرحب والسعة" قال بابتسامة مُشرقة، أفضل ما لديه، ورأى جاسون وميسى متشابكى الأيدى، وراء المرأة.

"هيه..كيف الحال؟".

"ليس بالكثير فيما يتعلق بالسمك" قال جاسون وهو ينظر شزراً لبرنز، الّذى مدّ كِلتا يديه لميسى. بقدمه قبالة جانب القارب، وجسده الممطوط، اختلّ اتزانه. انزلق حذاء برنز، وانكفأ للأمام بغتة وترنحت ميسى. أمسكها زوجها من أعلى ذراعها وسحبها للوراء.

"يا الله "صاح.

عدل برنز نفسه، كفّاه مبسوطتان قبالة حافة القارب، وقد انكبست وجنته على القارب.

"أنا بخير، أنا بخير " قال بسرعة مُنحنيًا وتقهقر بيديه،" لا تقلق. أنا بخير، بخير ".

"لا أظن أنّه قلق عليك " قالت المرأة الهولنديّة.

كان جاسون يتفحّص زوجته." هل أنت بخير يا صغيرتى" أومأت برأسها." أنت أيها المعتوه اللعين، كِدت تتسبب فى حادث لها ! ".

"أنا آسف " قال برنز وقد آلمه فكّه لكنه عزم ألا يلمسه. كان لديه الواجب الذى ينبغى عليه أداؤه، كجندى فى خندق، وهوأن يعاونهم جميعًا على الترجّل من القارب، بيسر، سوى أنّه قد لاح أنّه اقترف خطأً لا يمكن إصلاحه. فكّر فى الغضب الّذى تملّك أمّ هاريت حين أكل آخر قطعة من الكعك فى حفلها، زيادة على نصيبه من الكعكة، دون أن يدرك أنّها كانت محجوزة لعيد ميلاد البنت." يا لك من صبى شَرِه"قالت مُنزعجة، "صبى خنزير شَرِه كريه".

دار على عقبيه وتسلّق الشاطئ صوب الدَّرَج المؤدى للفندق.

ـ ٤٠ ـ

استقبلت آنّيمايك جان فى حجرتهما بصمت مرير. سألته إذا كان قد أمضى وقتاً ممتعاً ـ برفقة السيدة الصينية. ردّ بالإيجاب، وبأنّ السيدة الصينية كانت ساحرة شأنها شأن الآخرين. كان يومًا رائعًا، ولم يخبرها بشأن السباحة عراة.سألها كيف كان يومها، فهزّت كتفيها باستهجان.

"سيعملون حفل شواء يبدأ فى السابعة والنصف"

"لا يهم لو رُحنا متأخرين" قال، ملقيًا النظر على الكتاب الموضوع فوق الطاولة الجانبيّة بالقرب من الباب الزجاجى المزدوج، كان الكتاب المقدّس الخاص بالفندق مخفياً بتمامه تحت غلاف كتاب جاك بارزون من البزوغ إلى الانحطاط: خمسمائة عام من عمر الثقافة الغربية.كان كتاباً سخيفاً، بحقّ، سوى أنّ ما قاله بيلّ قد مسّه.كان يحاول قراءته بالترتيب، وهوالآن لديه فكرة قراءة الصفحة، التى يقع بصره عليها كيفما اتفق. نوع من الروليت الروسى، حيث يرجو المرء أن ينال حياة أبدية.

"سيشكّل أهميةً لى أنا.أحبّ أن أحضره. لقد قضيت يومك بالكامل على الشاطئ فى حين كنتُ أنا

على متن قارب. لو كنت أعرف أنّكم ستذهبون جميعًا للشاطئ لكنت جئت معكم ".

"لا أظن أن الأمر كان مخططاً. لقد جرى صدفة فحسب "كانت إمّا نبرته التواقة أوحقيقة أنّه كان يلتقط الكتاب، ما جعلها تنتفض غضبًا.

"إنك حتى لم تسألنى كيف قضيت يومى".

"لقد سألتك "قال.

"كلا.لم تسألنى ".

كان حوارًا غبيًا وأراد أن يضحك، سوى أنّه رأى شوكة مغروسة فى جانبها الحيوانى.

"أتوقّع أنكم الثلاثة رجال قد تعلّقت عيونكم بمراقبة المرأة الصينية عارية ".

سكت.

"حظّك أننى لم أحضر.هل هى على علاقة مع بيلّ أم غير مرتبطة ؟".

"أظنها غير مرتبطة".

"طيب، أفعل ما يحلولك، لا أهتم".

"وماذا عنك، هل وجدت لنفسك رفقة ما لطيفة ؟ حدثينى عن يومك ".

"حسنًا، لا شىء يُقال" قالت،" كانت زوجتك منبوذة. كل الآخرين كانوا أزواجاً.كنت مثل الأرملة، فعلاً".

"آنّيمايك ".

تركها تأخذ حمامها أولاً، ثمّ وهو واقف تحت زخات الماء سمع صراخها المحبط بشأن غرفة النوم وهى تحاول أن تلبس. عادت تدخل الحمام ولا تزال بقميص نومها لتزيل طلاء شفتيها وتجرّب لوناً آخر. حين وضع أصابعه فى أذنيه أحسّ بنفسه تغرق فى الماء، وتركه يجرى فوق وجهه.وحين فتح عينيه، رآها تقف أمامه بملابسها كاملة، فى ثوب قصير وحذاء لائق بكعب عالٍ.

"الحذاء غير مناسب "قالت.

"بل يبدو لطيفاً. تبدين رائعة ".

"الحذاء لا ينسجم مع الثوب. سينغرس كعباه فى الرمال "وغادرت الغرفة.

"لقد جرى أمر ظريف اليوم "قالت حين خرج من الحمام. جالسة فوق الفراش، ركبة فوق أخرى، وهى تراقبه يلبس القميص الأبيض المعتاد طويل الأكمام وسروال البحريّة بطول الركبة." أسقط المدير زوجة الأمريكى، ميسى، وهو يساعدها على الترجّل من القارب ".

"هل هى بخير ؟".

"آه، أكيد. تعلم إلى أية درجة هؤلاء الأمريكيات متصنعات، لقد صنعت من الحبّة قبة ".

"لعلها كانت مصدومة ".

"ليس مثل صدمة السيد برنز. لقد خبطّ وجهه بجانب القارب".

"لابد أنّه أصيب بجرح "قال جان وهو يجلس جوارها ليلبس جوربيه.

"لقد نعته الأمريكى بالمعتوه اللعين ".

"هذا الكلام قاسى بعض الشيء".

ضحكت آنّيمايك ووضعت راحة يدها على خده. استرخى، واقترب منها ليضع يده على ركبتها، ممسكًا بها ليثبتا معاً. كانت ترتج من الضحك وكان هو ببساطة يرتج.

- ٤١ -

تلّقت آنّيمايك ترحيباً حاراً فى حفل بيلّ تلك الليلة. أكلوا معًا، وقوفًا، مُلقين النكات بشأن الوجبة التى كانت مُغايرة لحد ما فى وفرتها عن تلك التى كانت فى الصباح. كانت ثمّة سكاكين وشوكات وكئوس وقد خدموا أنفسهم على مائدة الشواء التى ضمّت لحماً ومأكولات بحريّة .

"الكثير من اللحم طوال الوقت "قالت آنّيمايك، وهى تنظر إلى طبق جان،" سيضرّك هذا، أحبّ أن آكل بشكل أكثر بساطة ".

"لطيف رؤيتك فى ملابسك "قالت دوروثى لبيلّ .

"هل يرغب أحد فى شيبولاتا(*)؟" سأل جورج وهو يلوّح بقطعة سجق صغيرة فى شوكته. وضحكوا .

"أخ. هذا يؤدى الغرض الآن "قال بيلّ .

وضعت آنّيمايك طبقها الآن بتفاخر.

"لقد فقدت شهيتى" قالت، ورأسها يدور جانبًا بعينين نصف مُغلقتين. نقل جان بصره بينها وبين بيلّ

(*) نوع من السجق يُعتقد أنه فرنسى الأصل. (المترجم).

الّذى ترنّحت ابتسامته برهة وشاهده جان يستردها ليفقدها سريعًا . أخفض بصره ناحية طبقه ليمنح الرجل المجال ليحاول مرّة أخرى .

تكلّمت المرأة الصينية،" كيف كانت نزهتك على متن القارب يا آنّيمايك ؟".

:"لم تكن نزهة على متن قارب. فتلك اليخوت، مترفة ومُجهزة بشكل رائع، جلد بيج فى حالتنا، فى كل مكان، بعدد قليل من الموظفين.تناولنا غداءً شهيًا، وشربنا النبيذ وأخذنا حمام شمس.دردشنا بشأن هذا وذاك. كان يومًا من طراز عالٍ. تلك اليخوت تكلّف مئات الآلاف من الدولارات، ناهيك عن تكلفة الصيانة والإرساء. آلاف. والخدمة والأكل! لقد كانت لى خبرة سابقة باليخوت لذا لم يكن الأمر جديدًا علىّ. كلهم متشابهون ويتركون انطباعًا رائعًا ".

أومأت لوريا وبدأت بالكلام :"فى هونج كونج ..." لكنها قوطعت سريعاً .

:"إذًا، هل اشتركت بالسباحة عارية ؟"قالت آنّيمايك دون أن تطرف عينيها، واكتسى وجه المرأة الصينية بالحمرة .

"كلنا فعلنا" قالت .

نظرت آنّيمايك نحو جان،" حسنًا، حسنًا، لكم تملؤك الطاقة ".

عرف ما تفكّر فيه .الباطل المُتخيّل. بدت كأنّها تعرضت للخيانة .

"أهلاً، أهلاً " ترنّح آدم بمحاذاتهم، وقد بدا مُبتهجًا. وكان ليصرّ، قال، على اصطحاب إحدى السيدات للرقص .

سمحت له لوريا بجرّها بروح خفيفة، إلى حافة الماء؛ حيث كان بعض النزلاء يرقصون على أنغام الموسيقى الصاخبة .

"إنّ المرء ليحمل بعض التساؤلات "قال جورج وهو يراقبهما يبتعدان،"عمّا يفعله الصبية هذه الأيام " .

كان آدم يتواثب فى الماء، محيطًا بلوريًا وقد أربكها بحركاته المرحة المُتقطعة، هاتفاً ومشجعًا لها أن تنضم إليه .

:"أنا فاشل قليلاً فى الحقيقة" قال حين أعادها .

"ماذا تراك تشرب يا بنى، فرائحة أنفاسك مُريعة "قال جورج، مبتعداً عنه خطوات .

"آه، بل ماذا لم أشربه " قال آدم غامزًا .

"لا حاجة بك للصياح . لستُ أصم"قال جورج مستاءً، ووضعت دورثى يدها فوق ساعده.

شدّ آدم يد آنّيمايك تاليًا، لترقص، وحين رأت الأمريكيين يرقصون الآن وثمّة زحام ما، رقصت .

"ما الخطب؟" سأل جان جورج، وهو يراه يحدق فى أثر الغلام .

"أكره رؤية رجل فى تلك الحالة . فاقداً صوابه على هذا النحو".

"أوه، مرّة كل فترة، يشرب مرّة أومرتين"قال جان.

"لديه عمل هنا، وهو بذلك يبحث عن المتاعب. هل سبق لك أبداً أن انطلقت إلى مكتبك مخموراً ضريراً".

هزّ جان رأسه نافياً . كلا، لم يسبق أنّ راح مكتبه مخموراً، لكن سبق وأن ذهب إليه ضريراً مثل دودة أرض .

راقب خمستهم آدم وهو يميل بين الراقصين، دافعًا امرأة إلى الانزلاق داخل الأمواج التى تنكسر على الشاطئ لوهلة. ضحكت واستجمعت نفسها فى حين راح آدم يعتذر مُدّة طويلة، دون أن يتخلى عنها ليساندها طوال هذا الوقت .

انضم ستيف برنز لمجموعتهم وتبادل معهم النكات وساعداه معقودتان أمام صدره، وقد بدا، بذقنه المرفوعة قليلاً، سيد المكان، ومع ذلك تمكّن جان فحسب من التفكير فى الأمريكى وهو يدعوه بالمعتوه اللعين .

كان آدم ممسكًا بآنّيمايك، مصغيًا إليها وهى تقول شيئاً. لاح أنّها تلقى عليه نصيحة ما، وقد بدا جاداً وهزّ رأسه بحماس.ثمّ قصدا البار عند رصيف المرفأ. شاهد جان آنّيمايك وهى تسحب نفسًا من سيجارة آدم وتجرع سريعاً مشروبًا فى كأس صغيرة. كانت تضحك بقسوة شديدة.

"آه يا عزيزى" قال جان،" لدينا الآن مشكلة " مشروبان زيادة وضِعا أمام الاثنين وقد ابتلعاهما دونما

إبطاء ثمّ عادا نحوالبحر، وآدم يقود سياقًا خاليًا من الهموم، مُقحمًا نفسه بين الراقصين الآخرين .

"يبدو أنّ الحفل يسخن " قال برنز برضا .

"من الرائع أن يراك المرء مسترخياً، فهذا هو مغزى الأمر كله "ابتسم،"هل هذا آدم؟"سأل،مغمضاً عينيه نصف إغماضة فى الضوء الخفيف. تبدّلت الموسيقى وكان آدم يتواثب وينطّ راقصًا فى مكانه أمام آنّيمايك، التى راحت تضحك وتصفّق. عرف جان أنّه المقصود بهذا الأداء. وعلى جانبيهما، تفرّق الحضور. كان آدم الآن يرشّ آنّيمايك بالماء وسرعان ما شفّ ثوبها، ثمّ أمسكها من رسغها وشدّها إلى البار، حيث شربا كأسًا أخرى من الكحوليات، فى جرعة واحدة .

تمنّى جورج ودوروثى للمجموعة ليلة طيبة وشاهد جان الزوجين يتسلقان الشاطئ بخطوات قصيرة منهكة كأنّ حذاءهما يؤلمانهما. ورأى جورج يلتفت للوراء، وقد تلاقت عيونهما، يومئ برأسه، ثمّ هزّ جورج رأسه صوب البار وابتلع جان ريقه بصعوبة. ياالجورج المهذّب الرقيق، لقد عرف هوالآخر مغزى الأمر كله ولم يرغب فى البقاء ليراه .

اتجه جان ناحية البار ووقف بجوار المراهقين الجدد.

"لا بأس يا جان، احتس شرابًا "قال آدم وهو يمنحه نظرة عجلى، مشغولاً طوال الوقت بعمل الساقى ." هذا ليس مكيالاً كاملاً "قال .

"أنت مخمور؟" سألت آنّيمايك دون أن تنظر إلى زوجها .

"كلا. أنا بخير .شكراً"قال .

"هيا يا آدم "قالت.جاء ستيف برنز إليهم ووضع كفّه فوق كتف آدم.

"اسمع "قال بهدوء،" كلمة واحدة، إنه شرابك وعُدّ لبيتك الآن ".

"لما هذا الكلام ؟"سأل آدم، واضعاً حفنة من فواتير الدولارات فوق المشرب .

"لأنّك من الموظفين يا رجل، أم أنّه يجب عليّ أن أذكّرك بذلك؟ الآن أنه شرابك ".

"آه بلى،أنا الزائف الكبير ..." شرع آدم بالغناء. نظر إلى ستيف بشفة ملتوية، وأنفه مثل زناد مسدس مسحوب للوراء، وقال هازئاً،" حين تدفع ما تدين لى به، بأمانة، ساعتها يمكنك أن تكون رئيسى وسأكون من موظفيك. لكن حتى تلك اللحظة أنا زبون أدفع نفقاتى . يا رجل ".

"ستأخذ مستحقاتك عند نهاية الشهر " تفحّص ستيف برنز ما حوله، ثمّ تحرّك كى يحجب ظهره النقاش عن جان." انظر "قال بنبرات خفيضة، "لما لا ترحل الآن، وسأبذل ما فى وسعى لأدفع لك فى الصباح الباكر، كمعروف ".

"أكره أن يدعونى أحد بالموظف.لدىّ ليلة إجازة "ردّ آدم ثمّ سار بتؤدة نحوالشاطئ مُشعلاً سيجارة أخرى أثناء سيره.

تبادل برنز النظرات مع جان، "محضُ سوء تفاهم "قال بابتسامة قصيرة،" يريد أن أدفع له قبل الآخرين، مع أنّى شرحت له النظام المتبع لدينا حين تسلّم العمل. ما حيلتى ؟"سأل وبدا لجان أنّه حقًا يسأله .

"لقد شرب كثيراً" قال جان،" لا نفع من الكلام مع رجل فى هذا الحال أبداً ؛ فهم لا يتذكّرون ما قيل". كان جان مندهشاً لرؤية أن آدم كان من النوع الّذى يصير بغيضًا حين يشرب، وقد استطاع سماع آدم يكرر، بنبرات عالية" إنّه أحمق لعين "محملقاً فى برنز بوجه مضطرم، عاقداً قبضتيه .

"لوكنتُ أعلم أنّه سكّير ما كنتُ لأستأجره . مسئوليّة لعينة "أخفض برنز بصره نحو حافة الماء فترة طويلة.تتبّع جان نظرته المحدقة، وشعر بأن برنز يلتفت للراقصين لكنه، هو نفسه، واصل التحديق فى البحر .

:"أوه.اللعنة ! كلا!" .

التفت جان، مُجهزًا نفسه للأسوأ، متوقعًا رؤية آنّيمايك تعانق رفيقها الراقص الشاب، لكن زوجته كانت تقف جانباً، تتمايل على ركبتيها فى مظهر من مظاهر التقدير للموسيقى فى الوقت الّذى كان آدم يراقص زوجة الأمريكى متلاصقى الوجنتين. راحت يدا الشاب تنزلقان أسفل خصرها وهما يرقصان على أنغام همس طائش(*) معاً، أنفه فى شعرها، وجسده

(*) إحدى أغانى جورج مايكل، صدرت عام ١٩٨٤ (المترجم).

يتكئ على جسدها. بغتة، اندست يداه بصلابة فى فخذيها ولسانه لابد وأنّه فى أذنها أو يلعق عنقها؛ لأنّها تراجعت كأنها لسعت وندت عنها صرخة قصيرة "لا" ونزل جاسون نحو الشاطئ فى ثوان ورغم أن لكمته لم تكن حسنة التسديد إلا أنّها كانت كافية لتفقد آدم توازنه .

جثا آدم على ركبتيه على حافة الشاطئ كرجل يبحث عن نظارته، يقول "اهدأ، اهدأ، هدئ من روعك "مكرراً مرّة بعد مرّة وهو يحاول النهوض. ركض جان وبرنز نحو الشاطئ وأمسك جان آدم فيما أمسك برنز جاسون .

"أغرب عنى "قال جاسون، منحياً برنز بسهولة. وقال يهاجمه،"أى نوع من الأماكن هذا الّذى تديره هنا بموظفيك الّذين يضايقون النزلاء ؟".

"لقد طلبت منه الرحيل".

"ومن المؤكد أنّه قد أصغى إليك". وقف جاسون يرتجف.أخرق بدنيًا، بأنف ذابل وخديّن غائرين كما عالم أومبرمج كمبيوتر، لقد كان شعره الأحمر الكثيف وملابسه القشيبة ما يمنح جاسون مظهر رجل أبيض ثرى. كان جسمه يتشنج حين يغضب، وقد بدا عند تلك اللحظة مثل علامة استفهام. فى مثل تلك اللحظات النادرة عتيقة الطراز حين يُفترض بالرجل أن يكون رجلاً، فكّر جان، يكون لدى المرء الفرصة ليكتشف معدنه، كما لوكان بأشعة إكس . كان أمرًا

اضطراريًا. لم يكن بمفرده، فقد رأى، عند تفحّصه المحيطين، أنّ الجميع كانوا فى حالة ذهول.

اصطحب جاسون زوجته من يدها، وقد أرخى عضلات فكيه ببعض الجهد، قائلاً لبرنز، "سأتكلّم معك فى الصباح، أفضل لك أن تعثر لنا على فندق آخر لليلة الغد". اخترقا الراقصين، الّذين كانوا تقريبًا مسمرين. واستمرت الموسيقى.عند لحظة ما التقت جاسون، بساعد مضموم مطوٍ، كردّ فعل لا وظيفيّة، فيما استمر باقى جسده بمحاذاة زوجته.

مُلقياً النظر صوب الصبى الّذى كان يضع الإسطوانات المضغوطة فى جهاز الإستريو، رأى برنز أنّه قد أغمض عينيه وكان يلوك كلمات الأغنيّة.

غريب بدرجة كافية، أدرك أنّه كان مرتبكًا كأنّه صاحب اللكمة سيئة الحظّ ويرتعد مثل شيرلى تيمبل فى مواجهة الجمهور. راح وهو يجرب قدر استطاعته التنصل من الأمريكى، مؤاساة نفسه ذاتيًا عبر كلمات مثل "وخزة" وفشل فى زحزحة إحساسه أنهما الشخص ذاته. واحد وشبيهه، مقسومان ـ حسب الظروف ـ بالحظّ.

ـ ٤٢ ـ

لأنّهما نادرًا ما يغفوان أكثر من ساعة أوساعتين بعد الفجر، فقد اعتبر جورج هذا مساويًا لانحراف "التكاسل فى الفراش". وصباح الأحد، هاتف ابنته الكبرى، القائمة على رعاية المنزل، وبفارق توقيت يبلغ خمس ساعات من جهتها، توقّع أنّها فى منتصف يومها.

كانت دوروثى تحتسى كوب الشاى الأول لها، فى الفراش، واضعة طبق الفنجان فى حضنها. كانت تمدّ شفتيها دون فنجان، وبدت تائهة فى الأفكار.

"لا تزال فى الفراش" راح جورج يتكلّم معها، ويده فوق السمّاعة، لكن بدا أن دوروثى لا تسمعه." أقول إنّ أمّك يا كارول لا تزال كسلانة فى سريرها. حتى العاشرة والنصف صباحاً، لا عجب أنّها لم تنجز شيئًا البتة. لا تندهشى لوكانت نباتات الجيرانيوم ظمأى. لقد قلت لها، صباح مساء فى هذا التوقيت من العام.

"بلى، لا نزال هنا" واصل الكلام فى الهاتف،" هل رتبت أمورك الآن ؟ضعى الكلب بالخارج. هذا النازف

المسكين، أنا مندهش أنّه لم يتبوّل فى كل ركن. من الرائع إبقاء كلب بالداخل حتى العاشرة والنصف، لابد وأن أحشاءه فى حالة طيبة" جفل جورج، ملقياً نظرة على باب المرحاض.

"بلى يا حبيبتى" بدا وكأنّه يعمل تنازلاً بغيضاً."نمضى وقتاً طيباً، لكننا سنعود قريبًا، لعلمك. لا نرغب أن نرى الزهور جافة.طبعاً أنا قَلِق، وكذلك أمّك. بلى، هى بخير "نظر جورج نحوها، كانت تتمدد دون حراك، دون أن تطرف، فظن لوهلة أنّها لقيت نحبها.

"دوروثى" قال بحدة،" هل أنت معنا؟" نظرت دوروثى إليه، دون أن يتغير التعبير المرسوم على ملامحها.

"متى يجئن ؟"قالت،" سأضع قطعة لحم زيادة على الغداء" .

"عمّا تتكلمين ؟" قال،" ابق معى يا حبيبتى كارول؛ فأمك تتكلم " .

شرع فمّ دوروثى بالحركة بقلق،" لا أذكر إذا كنت قد تسوقت. هل لدينا بطاطس؟" .

"استجمعى نفسك حبّاً لله" قال جورج، ثمّ، فى الهاتف، "سنعود للبيت يوم السبت. ليس بعيداً الآن. وسنراك حينئذٍ "ثمّ حطّ السماعة.

"عمّا كنت تتكلمين ؟"سأل، واقفًا نظرت إليه بتعبير ملؤه الخوف، كأرنب محبوس فى ركن. وأحسّ بلهيب الغضب يتضطرم بداخله.

"كنتُ أقول فحسب، إنّنى أجهل ماذا لدينا لنطهوه للغداء، من أجل البنات".

"نحن فى إجازة لعينة يا امرأة، نحن فى الكاريبى. لسنا مضطرين لتوضيب غداء، والبنات لن يجئن إلى هنا ".

استمر فمّ دوروثى بالحركة دون أن تخرج كلمة واحدة. ودون أى أحد آخر بالمكان، عرف جورج أن لديه خيارات، يمكنه أن يجعلها تسترخى، أو أن يصرخ بها، يستطيع أن يفعل ما شاء. وما كان أحد ليراه، مهما فعل، ولا حتى دوروثى؛ لأنّها هى الأخرى كانت غائبة.

وقف أمام سريرها، مثل تمثال ضخم.

هونى عليك "قال،"هونى عليك يا حبيبتى العجوز، حبّة قلبى، لابد أن تحاولى أكثر قليلاً ".

- ٤٣ -

مع انتهاء العمل فى المبنى المُلحق الجديد، لم يعد الفناء المقابل تحوطه الحبال وهكذا أعيدت طاولات الأكل والكراسى، التى شكّلت فى السابق الجلسة الخلويّة، وصار بإمكان النزلاء استهلال يومهم بالفطور إلى جانب بركة المسبح. كان أمرًا مفروغًا منه، كالفرمان، عبر النشرات المُعلنة فوق أبواب المطعم المزدوجة وقوبلت الأنباء باهتمام. كان يوضّب الفطور بنفسه أيام الآحاد ولاحظ سقسقة الإثارة، التى تتملّك المجموعات التى تفطر مبتهجة. كان مضطرًا لابتكار شىء "جديد" بمنتصف كل أسبوع، وجلّ ما احتاجه تلك المرّة كان إعادة ترتيب الجِلسة فحسب.

أى كائنات بشريّة مطبوعة تلك التى تجد فى فعل تناول وجبة عادية بمكان مغاير لذّة كبرى، فكّر جان، واقفًا على مسافة من النزلاء، الّذين شغلوا الطاولات بالفناء، يبحث عن بيل. يمكنهم احتمال بتر كل أشكال الحريّة، مادام لديهم وسائل لهو صغيرة. ما من يومٍ أبدًا استيقظ فيه وقال، اليوم سأختار الحريّة قبل أى شىءٍ آخر، أو العدل، المتعة أو حتى خبرات

جديدة. كلا، لقد فضّل القهوة أوالشاى، وإن كانا من نوعية ممتازة جدًا، وأحيانًا كان يتلوّى مع الترتيب المناسب للأشياء ورمى بمكعب سكر. المستشفيات والسجون والمدارس ـ تلك المؤسسات محشوة بالرغبة الإنسانيّة، الرغبة التى تعرقلها قوى أخرى، وتسجنها وتذبحها.لقد كان هو والكثير من الرجال والنساء مثله، مبانى خاوية.

بغتة، وقعت عيناه على لوريا تنظر إليه، تمسك قطعة كرواسون تعبر فمها، فى شبه ابتسامة. ضحك. كان ثمّة مقعد خال بجانبها مع فنجان فارغ وطبق ومسافة بين سكين وشوكة. ينبغى عليه التلاؤم فحسب مع المساحة المتاحة.

على الطاولة نفسها كانت بقيّة الطاقم."صباح الخير يا ولدى" قال جورج، متطلعًا إليه، قبل أن يعود إلى فطوره. وبتعبير شره على وجهه، راح جورج يُفرغ ما يحتويه برطمان صغير من المربى ويفرده بسكين ضخمة.

"مرحبًا" قالت دوروثى مشرقة، وهى تمسح فمها. ثمّة قشور صغيرة من الكرواسون علقت بالتجاعيد المحدودة المحيطة بشفتيها.

"كيف حال حرمكم؟"سأل بيلّ، دافعًا بقطعة خبز محمص مثلثة مغطاة بالبيض داخل فمه. نظر جان إليه لحظة، ليرى لسانه طالعًا ليلعق ما علق من بيض على جانبى فمه، وطلائع قطرات عرق فوق جبين الرجل، حتى فى تلك الساعة المبكرة.

"إنّها نائمة "قال.

"تتخفف من آثار ليلة الأمس؟" سأل جورج وهويقلب البرطمان رأساً على عقب ويتركه فى وسط طبقه.

"لِما، بلى، هذا هوالواقع فى الحقيقة". قال جان.

ألقى جورج عليه نظرة سريعة،"تبدوعلى ما يرام".

"ولِما أكون على العكس؟".

حطّ صمت.

"ما من سبب يا بنى "قال جورج.

"إذًا فسوف تنضم لنزهات السيد مولونى الأسطوريّة مرّة أخرى، أليس كذلك ؟"سألت لوريا.

"ما من أساطير اليوم سأذهب إلى الكنيسة. ثمّة واحدة صغيرة، واحدة من أوائل الكنائس، التى أنشئت خارج البلدة الرئيسية، كلها مدهونة بالأبيض، مبنية من الخشب، جوهرة صغيرة حقيقية، أعلى الناحية الشمال شرقيّة وأنا أتطلع للخدمة. أى شخص لديه رغبة فى المجيء معى محل ترحاب.مع ذلك سيكون علينا الانطلاق سريعاً، ينبغى أن نكون فى الطريق خلال نحو نصف ساعة ".

"حسنًا، أظن أنّنى جاهز "قال جان، بشكل رسمى إلى حدٍ ما.نظر إلى لوريا، محدّقاً بالجوانب النحيلة

من عنقها تتحرك وهى تشرب عصير البرتقال "سأنتهى من فطورى وألقاكم جميعًا فى ردهة الاستقبال لو تحبوا ؟".

"رائع "قال جورج،" لابد أن نرجع لغرفتنا، أشعر بحاجة مُلِحة لدخول المرحاض. سأعجز عن مواصلة اليوم دون إفراغ مثانتى تمامًا" جفل وهو ينهض وساعد دوروثى على النهوض.

"برفق "قالت دوروثى وهو ينجذب نحوها ممسكًا أسفل ساعدها.

"حسنًا، سارعوا إذًا " قال.

"لا بأس، لا بأس"كانت تقول وهما يرحلان ناحية المشى الّذى تحوطه الخبيزة.

"عفواً!"سمعوا جورج يهتف وتبادل الثلاثة النظرات وأوشكوا على الضحك، وطوت لوريا منديل المائدة ووضعته فى طبقها، قائلة،"رجل مسكين ".

مال بيلّ للأمام، يلوح بسكينه أمامهم."إنّه ضحية لجهازه الهضمى، لقد كرر على مسامعى كثيرًا هذا الصباح حين كان الفطور يُعدّ، يحذرنى ألا أُكثر من البصل، قائلاً إنّه سيعانى مشقة كبيرة من تلك الخضراوات البغيضة ".

قبل أن يرحلوا فحسب، انضمّت لهم آنّيمايك من أجل احتساء فنجان من القهوة السوداء وقطعة كرواسون. تجنّبت القائمة بيد النادل،"لن أتناول شيئًا

مطبوخاً، ألم تلاحظ غياب الموظفين ؟سأندهش لوعرفت أنّ برنز نفسه من لا يقوم بالطهى" قالت، وهى تشيل نظارتها الداكنة وترفع حاجبًا. مُضطجعة للوراء فى كرسيها، قشّرت قطعة الكرواسون،"تليق بى أماكن أفضل ".

"طيب، نحن لا ندفع مقابل ذلك "قال جان.

"ليست تلك هى النقطة الأساسية. بالنسبة إلى الرجل أعمال، غالباً ما تفوتك تلك المسألة، ماليًا".

شرع بيلّ ولوريا يجمعان حاجات فطورهما.

"إذًا، لأية جهة سيتجه فريقك اليوم يا سيد مولونى ؟".

"ألن ترافقينا يا آنّيمايك ؟".

"لا والله"قالت بابتسامة مقتضبة "أعذرنى، لا. فليس لدىّ عطلات كثيرة ولا أحب التجول فى مجموعات.سأكون عند المسبح، أقرأ، وأسترخى...".

"أخ، طيب، تجدين فى ذلك الأمر متعتك ".

"بلى".

"يا له من أمر مُرضٍ".

"بلى".

"سنقصد كنيسة صغيرة، تعود لثلاثة أوأربعة قرون فاتت "قالت لوريا،" واحدة من أوائل الكنائس هنا".

"طيب، حين تكونين من أوروبا، لا تبدو الكنائس بتلك الدرجة من الجاذبية، فلدى كل بلدة كنيسة تعود

لألف سنة أو أكثر، وأنا لست متدينة، ولا زوجى. حين ترين ما جرى اقترافه باسم الدين بكل أرجاء العالم، ساعتها يكون من العسير الإيمان بالله".

"حين أرى ما فعله الإنسان بالإنسان، فهذا بالضبط ما يجعلنى أؤمن بالله "قال بيلّ وقد عاد يجلس فى كرسيه مبتسمًا لها،" بالنظر للأعماق الحقيقية، التى يمكن للإنسان أن يهوى إليها، أليس من المدهش أن النوع البشرى لا يزال على قيد الحياة؟".

رفع جان بصره نحو بيلّ من طبقه، يمضغ، فمه يتحرك، وعيناه ثابتتان.

"أترى، إنّه يعتزم هدايتك هذا الصباح، أيها المادى جان "واصلت زوجته، تعقد ساقيها." خطيئتى الصغرى(*)، بعض الماء المُقدّس وتُغفر خطاياك، لكن بعدها ينبغى أن تقتدى بالحياة النموذجية التى يعيشها السيد مولونى".

حرّك بيلّ كرسيه للوراء، محدثًا ضجّة مباغتة ذات صرير،" الآن حسنًا، لقد أنهيت أغلب العمل، لقد عمدتهم الأربعة بالأمس، نعم فعلت.فى البحر. لقد نال رجلك ميلادًا جديدًا ".

(*) *Mea culpa*.

- ٤٤ -

فى حِصّة مثلثة من الأرض، قريبة من طريق ملتو مُقفر وقبالة واحد أواثنين من المتاجر، كنيسة بيضاء مُكتملة كصورة فى كتاب ذات برج بدا كأنّه فى جرف. فى الحقيقة، كانت الأرض على الجانب الآخر من الكنيسة تنحدر بتؤدة نحوالمزيد من مزارع القصب التى قادوا السيارة خلالها للوصول إلى الكنيسة.

أخذوا جولة تمشية سريعة بالجبّانة وراء الكنيسة عبر بلاط الرصف المتصدّع، يطوّقه أزهار بلاستيكيّة فى مرطبانات جدباء، المقابر المطليّة بالرخام الأبيض على الطراز القوطى وبلاطات الضريح على شكل شرائح خبز القربان بأسمائها الفيكتوريّة النّكِدة - إيرنشتاين، أرشيبالد، وآرنولد - وتصغيرات التحبب للأجيال التالية، نيتّى، آرشى أوآرنى.

أتاحت الكنيسة بعض الغوث من الحرارة وتسلّقت المجموعة الممر وراء بيلّ وجلسوا جنبًا إلى جنب فوق دِكّة خشبية بالقرب من الواجهة. كان الكاهن كهلاً أبيض يتصرّف بودّ وقد تعوّد على إغماض عينيه نصف إغماضة، عونًا لقصر نظره. كان جمع المصلين

يرتدون السواد فى جزئه الأكبر، والخدمة، كما أخبرهم بيلّ، على مستو عالٍ نسبيًا بالنسبة إلى الكنيسة مشيخيّة. كانوا مستمتعين، رغم ذلك، بسماع ترنيم وكلام كافة جماعة المصلين بحرية أثناء العظة والصلوات.

"بلى يا سيدى" شعر واحد من جيرانهم بالتقيّد بالترديد كل بضع دقائق،"مم-همم".

تذكّر جان ذهابهما لرؤية قسيس الكنيسة، التى اختاروها للزواج بها، على أطراف بروغ. ربّما كانت تلك آخر مرّة شاركا فيها بأى شكل من أشكال النقاش الدينى. كان اللقاء تمهيداً إلزاميًا من أجل عقد زيجاتهما فى الكنيسة، وقد سرّ رجل عجوز أن يقدّم لهما شاياً ويصطحبهما خلال الخدمة. وقد فكّر آنئذٍ، رغم كونه نفسه أعزب، أن يشاركهما بعضاً من أفكاره، وملاحظاته. كان يعتبر، حسب كلامه، أنّه على طول الطريق فى حياتهما الزوجيّة كانا يواجهان عراقيل تعيق مسارهما، وقد أستأذنهما أن يدعو تلك العراقيل "أفيالاً".كان التشبيه قد تعفّن من كثرة الاستعمال. وقد حاول جان بصعوبة الإصغاء إليه، وعرف من هيئة فم آنّيمايك ما كانت تفكّر به فأمسك يديها، كانتا سميكتين كأيدى اللصوص فى تلكم الأيام. سيكون ثمّة أفيال ضخمة وأخرى ضئيلة، تابع كلامه، وما يهم هو أن تميزا بين الاثنين لتجدا طريقكما لتجاوزها، متشابكى الأيدى. حتى ـ أو يجوز خصوصًا ـ كرجل فى أواخر العشرينات غير مُتعلم ساذج نسبيًا، فقد

استوقفت النصيحة جان كشىء عديم الجدوى. مع ذلك، كانا ممتنين أنّ الأمر مرّ بيسر. ولاح أن أفضل ما يتمناه المرء من أى فعل دينى هو إحسان مبهم. وأحسّا بالارتياح.

راحا يسرعان الخطو واتجها إلى السيارة الفورد الصغيرة، التى كان جان يقودها تلك الأيام، ثمّ ذهبا إلى بروغ ليشربا بيرة. فى تلك الأيام، كان مذاق البيرة رائعاً وكلما زاد سكرهم، كلما جعلته يضحك أكثر، وقد قدرت على إضحاكه حتى دمعت عيناه. كانت نقيض ضميره، كانت حسّ الدعابة الشرير الّذى يفتقر إليه لكن إدراكه منذ الطفولة كان أداة حيويّة لأجل الحياة الجيدة.

الآن، وهو يلحق بدفق العظة، موقظاً نفسه من الاستغراق فى أفكاره، كانت لديه القدرة على استيعاب أنّ ممثل الكنيسة العجوز ينقّب فى حقيبة ذكرياته، يروى حكايات شبابه فى بلدة صناعيّة فى إنجلترا، ثمّ صادف قفزة مفاهيميّة صغيرة وتضرع إلى الحاضرين أن يكونوا رواقيين(*) فى مواجهة الشدائد. ثمّ قرأ

(*) الرواقيون: نسبة إلى زينون الرواقى واسمه زينون الكتيومى مؤسس المدرسة الرواقية ينحدر من أصل فينيقى من سيتيوم (٣٣٣ ق. م - ٢٦٤ ق.م) كان فيلسوفًا هيلينيًا من مدينة سيتيوم فى قبرص، وكان أشهر الشكاكين فى عصره باليونان وعندما بدأ مدرسته الرواقية للفلسفة سمى على اسم مكان تدريسه، وهو الرواق المطلى STOA، وتعنى فى اليونانية الرواق أو الشرفة وكان تدريسه بداية للفلسفة الرواقية التى من الممكن تلخيصها فى.. أن أفضل طريق للوصول إلى السكينة ليكون عبر تجاهل المتعة والألم.

فقرة من رسائل بولس وأنهى عظته بمشاركة بعض الأنباء الطيبة التى جمعها من جموع مصليه بشأن ولادة توأم ومجموع نقاط فريق الكريكت.

أسعد جورج جداً أنّه حين بلغ الكاهن ممشى الكنيسة مُصافحاً الحاضرين يمنة ويسرة، تلقى عناقًا حميمًا ودردشة سريعة، تبادلا خلالها معرفة مسقط رأسيهما ثمّ أماكن خدمتهما العسكريّة، وتصافحا مرّة أخرى ووافق جورج نيابة عنهم جميعًا على الانضمام للكهل لشرب الشاى بعدئذٍ. استدار نحوالآخرين وأخبرهم عمّا شاهدوه يحدث للتو،" لقد قصدنى مباشرة، اصطفانى، كأنه كان يعرفنى، وهل كنتم تصدقون أنّه كان فى شمال إفريقيا أيضًا خلال الحرب ؟"هزّوا رءوسهم،"طلب منى العودة لشرب شويّة شاى. حسنا، كلنا مدعوون طبعاً. كم هو كهل لطيف.

"يبدوأنّ الشيطان المسكين على سيقانه الأخيرة " قال لدوروثى، ملتفتاً ليشاهد الكاهن يرحل. وعلّقت دوروثى أنّ الكاهن، وزغم مشيته المصحوبة بإحديداب خفيف فى ظهره، فإنّه مشا بخطوة أفضل منهم جميعاً."دائمًا تجدين نفسك مضطرة لمخالفتى الرأى "قال جورج متذمرًا.

شأن بيلّ، خطت دوروثى وجورج داخل حجرة الملتقى التى على جانب الردهة الداخلية مباشرة، واستدارت لوريا لتقول لجان، الذى كان يقف وراءها "هيا نخرج أنا وأنت ".

ـ ٤٥ ـ

في وقت الغداء يوم الأحد، كانت الشمس في أوجها، ملتهبة، وتنتفض. وكان ستيف برنز يفوح برائحة كريهة، فقد بقي إلى القلايات يُرطّب البطاطا المقليّة، يضيف المزيد والمزيد من الزيت النباتي إلى المِقلاة، مُرسلاً البطاطا الباردة إلى الجحيم الملتهب. وبريان، الراستافاري، واصل مناجاة ذاتيّة بشأن كُلفة المعيشة في دولة من دولهم.

"نحنُ نعيش في مكان له نظامان اقتصاديان يا رجل. في أحدهما، ينبغي أن تكون يدًا عاملة رخيصة لدى ربّ العمل ليحقق ربحاً، في حين ينبغي أن تكون غاليًا في المحلات بسبب الكلام الفارغ الّذي نتكسّبه هنا بأنفسنا. إنّ المرء ليعجز عن الحياة بتلك الطريقة، لا يهم مقدار حُبّه لبلده؛ فهو مُضطر للطيران، والابتعاد ".

اتفق معه ستيف دون أن يبدي اهتماماً يُذكر. كانت النقود محض مجموعة من النقاط، هذا كُلّ ما في الأمر، دمغة أصالتك، وحظّك أيضاً، وما من فائدة من الشكوى. كدّس قشر البيض الفارغ، نصف في

نصف، بإحساس من الرضا، أكثر من مائة بيضة فارغة. مادام الدجاج على حاله دافعًا بالبيض من مؤخراته، ما بقى الناس على حالهم بالشوكة والسكين جاهزين لالتهام بيضة مع رغيف عيش محمص، لا الدجاجة ولا البيضة تهمّ، ولا من جاء أولاً، بل شهيّة البشر. هذا كُلّ ما فى الأمر. حطّ شفرة التثليج على المقلاة ودَلَق الزيت فى كومة النفايات، مفرغًا قشر البيض فى البالوعة، مُتجاهلاً صيحة الأسى، التى أطلقها بريان، ليبدأ دفعة جديدة من الزيت والبطاطا.

"بريان، خُذْ بالك من تلك الدفعة. راقب طهيها من أجلى "قال وانصرف حاملاً طبقًا كبيرًا مكشوفًا من المقليّات. فى الصيف القائظ، تقطّر العرق من وجهه إلى الطبق. ملح فى ملح. احتاج لشراب، فنزل نحو بار الخبيزة وجلس هناك ليتلذذ ببيرة مُثلّجة.

فى غضون ثلاثة أو أربعة شهور سيؤسس طاقم موظفين مخصوص ليوم الأحد ؛ فلا يليق بمدير أن يكون مكانه المطبخ، لقد بدا أمراً غير مُستساغ. سوى أنّه كان مُتحمسًا لتسجيل أعلى هامش ربح فى ذلك الفصل السياحى، لينظّف المراحيض بنفسه إذا استدعى الأمر. لقد كان مكانًا مخبولاً ليدرّ ربحًا. التكاليف! كانت الطريقة الوحيدة للربح هى تحميل المقامرين أعباء إضافيّة قاسيّة، لقد كانت إيمّا مُحقّة، يتعيّنُ عليه أن يشرع بـ"خضّهم"(*) والدفع بهم نحو أنشطة إضافيّة، المريحة أكثر منها. لا فائدة من تركهم

(*) الخضُ هو خض اللبن لإنتاج الزبدُ. (المترجم).

مُسترْخين وقد أسكرتهم الخمر، جثثاً هامدة تتحلّق حول المسبح. ولا فائدة من مواصلته دور الأمّ بالنسبة إليهم، يفتّش عن الضائع، ومحاولة منعهم من الشجار على دُمى لا يملكونها. ينبغى أن يصير، بدرجة أكبر، مصرفياً شخصيّاً لهم، يوفّر لهم مقابلاً من المُتعة والتنوير، أينما كانت كانوا وراءها، بدرجة تتناسب مباشرة مع حجم استثماراتهم.

شعر بنخسة على ظهره واستدار ليجد نفسه قبالة خصمه اللدود.جاسون.

"طاب صباحك "قال،" هلا تنضم إلىّ لشرب البيرة ؟أوه، حسبتك بالخارج ؟ هل أعاونك فى حمل الحقائب ؟".

"ليس الآن "قال جاسون، مصوبًا عينيه ناحية الساعة،" لدينا مسألة عالقة ".

طيب، تبًا لى، فكّر برنز، يا لها من مفاجأة .ألا يمر يوم ولا يكون لدى هذا الرجل مسألة عالقة ؟.

:"المرأة الدّانمركيّة، من المُفترض أن تخرج معنا برحلة بحريّة تشمل الفطور والغذاء ".

وضعت زوجته يداً طويلة الأصابع فوق كتف جاسون، وقد لفّت جسدها فى السّارنغ ببراعة كى تُفشى ساقًا طويلة كاملة، وهى تلبس قطعة بكينى علوية أخرى بحمّالات، قاطعت الكلام لتقول:" نزيلة أخرى من نزيلاتك صارت ضائعة".

"أمهلينى دقيقة، أنا على وشك تفسير الأمر" قال جاسون بغتة، كأنّها موظّفة فى المكان." لم تلحق بنا، المرأة الدانمركيّة، مدام دى ج.، وهاتفها يبدو أن سماعته مرفوعة ".

:"ربّما لا ترغب فى الذهاب ؟" ابتسم، رافعاً كتفيه." ربّما تتجنبكما، أو تحتاج لبعض الخصوصيّة " جرع من بيرته المتبقيّة، وقد خامره إحساس أنّه يكون شعوراً قصير الحياة، المرارة الواهية وسُبات العقل المُخدّر.

"كلا، لقد أرادت المجىء، كانت مُتحمّسة الليلة الفائتة ".

ومتى لم تكن كذلك، فكّر برنز." أغفرا لى صراحتى، لكنها كانت مخمورة جداً البارحة، ويجوز أحسّت ببعض الخمول هذا الصباح ".

"أكيد، ممكن. سوى أنّ ساقيك أخبرنا أنّها شوهدت هذا الصباح، عند المشرب هنا، تحتسى شرابًا ".

ابتسم، بنيامين، السّاقى، بعصبية وهزّ كتفيه:" إنّها الحقيقة ".

"ثمّ رحلت برفقة زميلك، الرجل الّذى يحبّ إثارة الفوضى مع النزيلات حين لا يكون فى نوبة تنظيف الأرضيات والحمّامات ".

"قال لها إنّه سيساعدها ببعض الأعمال المنزلية، وكانت تلوح عليها أمارات الإعياء "قال بنيامين، وهو ينشّف قلب الكأس:

"فى الحقيقة، لا تتعلّق تلك المسائل بنا "قال برنز، وندت عنه لفتة بنقرة فى رأسه أنّ بنيامين ينبغى أن يكفّ عن الكلام.

ظلّ بنيامين فى مكانه ساكتاً. لديه ابتسامة ملاك، فى دفئها تنضج بندورة وجنتيه. أغمض عينيه برهة وراء نظارته، وحدها العدسات روّضت جمال وجهه المصقول."شربا ربما كأسين، أو ثلاثة من البلودى مارى لكل منهما، وطلبا منى كأسًا مزدوجة قبل المرواح. أضع لمسة خفيفة من خمر الشيرى تلك الأيام، وهى ما يمنح البلودى مارى طعمها اللذيذ ".

"إذًا، ماذا تعتقد يا برنز؟ ربما حتى أنت لديك ما يميط اللثام قليلاً ؟".

"ممكن يا سيدى، سوى أنّنى لستُ موكلاً لفعل ذلك. أحبّ أن أدعم خصوصية زبائنى ".

"بلى أنا متيقن أن السيد ديفيز وحرمه كانا سعيدين بخصوصيتهما ليلة ضياع السيدة العجوز ".

كيف صار هذا الرجل حارسه؟ واهتزت البيرة فى كأس برنز.

"أى امرئ..." قالت ميسى وكأنّها تبدأ حوارًا جديداً، وأشرق وجهها بابتسامة مرسومة لهما فى المقابل، وهى تخطو بينهما،" هيا ندع الأمر لهم فحسب،يا جاسون، أنا متيقنة أن السيدة دى جروت تستطيع تدبّر أمورها بنفسها ".

"لا أظن ذلك " قال جاسون،" إنّها ضعيفة الآن، فريسة سهلة. زوجها يحتضر...".

"يحتضر" كرر برنز، وقد بدا منزعجًا، وعيناه فى مكان آخر.

"إنّه يعانى المراحل الأخيرة من السرطان، لديه أسابيع فحسب، وربما أيام، حسب كلامها، لا أحد يعلم. يتلقى حقنات من المورفين كل صباح..".

ابتلع برنز ريقه،" لا فكرة لدىّ ".

"هيه. إنّها هدف سهل كما تعلم، لحم رخيص ".

"أين زوجها ؟".

"لقد خرج لقضاء اليوم بالخارج "قالت ميسى،" برفقة السيد مولونى والسيد ديفيز وحرمه، فى الكنيسة ".

"أتفهّم الأمر".

"أظن أنّه ينبغى علينا الاطمئنان أنّها بأمان قبل أن نرحل هذا اليوم، يا جميل " قال جاسون، ملتفتًا إلى زوجته، التى أومأت موافقة ورفعت يديها فى خضوع.

"لا يمكن أن ندعها تصاب بأذى ".

نظر برنز إلى القلائد الكثيرة المتدلية فوق الوادى الناعم بصدرها، مثل متسلقى صخور مُعلقين بحبال ذهبيّة رقيقة. أخفض بصره سريعًا نحومعصم جاسون ورأى الرجل يضع ساعة الرولكس الأصلية، التى وعد نفسه بشرائها يوماً ما، حين يملك ثمنها. أومأ برأسه. وكانت بيرته قد فرغت.

"كلا. لا يمكن أن ندعها تصاب بأذى" وتنهّد، مُتخلياً عن كأسه.

-٤٦-

"إذًا، كرري على مسامعى ما قلتيه مرّة أخرى" قال آدم، مُبقيًا يده فوق زرِ اغلق الأبواب فى المصعد وهما يدخلانه،" ستدفعين لى لقاء ممارسة الجنس ".

"بلى ".

"مائة وخمسون دولارًا ".

"بلى".

"لا بأس" وقد أحسّ، وهو يحدّب حاجبه، بضفيرته ترتفع. توقّف المصعد وانفتح الباب." لكن لا، لا، لا، لا، لا" قال وهو يهزّ رأسه ويمدّ يده ليمنعها من الخروج،" هذه محضُ نزوة !".

كانت قد أخرجت بطاقة حجرتها الممغنطة.

"هل ترغب بعمل ذلك أم لا ؟" سألته.

"أنتِ مخبولة" قال.

"لِما ؟ لأنّى أدفع مقابل الجنس أم لأنّى أدفع لممارسة الجنس معك؟ بالنسبة إلى الأخير، بلى، ربما يكون لكلامك وجاهة ما. سنرى "وتألق تعبير شيطانى جامح فى عينيها،" لم يسبق لى أن فعلت ذلك من قبل

أبدًا " تابعت،" سوى أنّى مُتأكّدة أنّه كلما تكلمنا أقل بهذا الشأن، كان أفضل، بالنسبة إلىّ ".

"ب ـ لا ـ هو ـ ية" قال، مُتلفظًا الكلمة التى أكّدت عليها فى البار وهما غارقان بكئوس البلودى مارى.

"أريد شخصًا بلا هويّة" قالت،" لكن الأهم أريد أنّ أكون مسئولة . أريد أن أنام مع رجل لا أعرفه جيدًا، وأطلب الوضع الّذى يستهوينى ".

"لا ـ بأس " قال بتؤدة.

"أنا موشكة على تغيير، لمادام نمت مع رجال عرفتهم ".

خشى أن تكون بصدد الثرثرة، وقد جاهد نفسه، مُفكرًا، أيها العاهر الكئيب، من جهة، لكنه فكّر أيضًا، أنّها حدوتة، حكاية تُروى، إنّها شخصية حقيقية غريبة، وليس من ثمّ شخصيات غريبة الأطوار بما يكفى فى هذا العالم، ورأى أيضًا أنّ بإمكانه استخدام هذه الحدوتة مع نساء أخريات أكثر شبابًا وجاذبية، للحصول على بعض المزايا. يقدر على جعل روايتها اعترافًا، والادعاء أنّه كان عاهرًا مذكّرًا؛ فالنساء يحببن هذا المنحى. وهكذا، شرع بالضحك إلى جوارها. من الممكن ليكونا شخصين آخرين، مرغوبين من بعضهما.

"طيب" قال،"طلباتك أوامر" ووقف وراءها وهى تفتح الباب ورمق الرواق يمنة ويسرة.

حين دخلا الغرفة، جفل قليلاً عند رؤية مُتعلقات جان بالمكان، كتاب ضخم فوق طاولة القهوة، وسروال كاكى قصير على مسند الكرسى الورّانى.

"سأدخل الحمام" قالت،" وسآخذ حمامًا سريعًا، ثمّ أودُّ لوتحممت أنت الآخر ".

"معقول" ابتسم، نازعًا الشريط المطاط من حول شعره، فرمقته منتقدة.

"حسنًا " قالت،" لا بأس " ثمّ دلفت إلى الحمام.

رمق نفسه فى المرآة ومنحها ابتسامة عريضة مُتكلّفة كى يُذكّر نفسه بماهيتها. بمرح، خطا للخارج نحوالشرفة ليدخن سيجارة. خطر له أنّه لا ينبغى أن يُدخّن، وكانت الساعة الآن تتكتك، كان فى توقيت شخص آخر." آه، تبًا " قال، مُستندًا على الدرابزون، بقدم واحدة تتأرجح، والأخرى تدعمه. أخفض بصره لأسفل صوب نبات الورديّة فى الظل ونقر بعض الرماد إلى أسفل. كتاب جان، مفتوحًا، مستريحًا بالمقلوب فوق الطاولة الزجاجية بالقرب من الشرفة، لاح وكأنه سقف معبد رومانى. خطا إلى الأمام، لكن مُبقيًا يده الممسكة بالسيجارة برّه، ألقى نظرة خاطفة لأسفل ليقرأ الغلاف الورّانى :خمسمائة عام من عمر الحياة الثقافية الغربية. أومأ برأسه،" خيار صائب " قال لنفسه. لاحظ أن الغلاف مُعلّق فوق جانبى الكتاب، وبأصبع واحد وكز الغلاف للوراء، ليعود مُرتبًا، وبمجرد أن فعل ذلك، جعل الغلاف الزائد على الجانب الآخر من الكتاب ينشفط وينسحب خفيفًا،

لذا، بيديه الاثنتين، ممسكًا بالسيجارة بحذر شديد بين أصبعيه، حاول أن يقلبه ويعدله، وبمجرّد أن أداره، رأى الطباعة ثقيلة وسوداء ودقيقة وأن الصفحات تقريبًا شفافة." كتاب مُقدّس. ما أغرب هذا؟"مُتحسسًا من ثقله، نقر بعض الرماد فوق الصفحة ووثب خارجًا لينفخه بعيدًا عن الصفحات. لكن الرماد ترك أثرًا، لطخة فوق الطباعة، دون أن تحترق." تبًا " قال لنفسه، مغلقًا الكتاب المُقدّس بالغلاف الّذى بالكاد يتصل به، ودفعه مرّة أخرى فوق الطاولة بمجرد أن سمع صوت باب الحمام ينفتح.

كانت آنّيمايك ملفوفة فى بشكير أبيض، شعرها جاف، فتبادر إلى رأسه، أنّها ربما تحممت على عجل.

"دورك" قالت، تشير إلى الحمام، وأثناء مروره، عابرًا إياها بين الفراش والدولاب، قال،" معذرة " وهوعلى وشك الارتطام بها وقد تناهى لسمعه جلبة خفيفة أصدرتها فى المقابل.

فى مرآة أوضة النوم، فغرت آنّيمايك فمها على آخره لتفحص أسنانها. رفعت ذراعيها لتتأكد أنّ إبطيها منتوفان، ثمّ تركت البشكير يهوى لترى جسدها. رفعت بصرها لأعلى نحو وجهها، رأت أن تعبير سمكة شبّوط انغرس شِص فى حلقها ارتسم على وجهها، شفتاها مترهلتان ومكتئبتان. نفضت هذا التعبير عن وجهها وكسته بالعجرفة. دلّكت ثدييها بإحدى يديها ووقفت ثابتة بساقيها منفرجتين،" أقدر على الحصول على ما أشاء "قالت، ثمّ راحت إلى

الشرفة، عارية، وقفت هناك هنيهة ثم سحبت الستائر.

"هل ينبغى أن أغسل شعرى ؟" صاح آدم من الحمام.

"كما تحب" أجابت، مصغية لصوتها يتردد فى الحجرة الفارغة.

"هل أستعمل شامبو الفندق أم الخاص بك ؟".

"لا يهم ".

"هل أغسل أسنانى ؟".

"طبعًا" قالت، وهى على وشك ارتقاء الفراش على أطرافها الأربعة، راغبة فى الاستلقاء على ظهرها وفرد ساقيها قليلاً.

"أيهما ؟".

"ماذا؟".

"أى فرشاة أسنان ؟".

"فرشاتى".

"أى واحدة؟".

"آه، حبًا لله" قالت لنفسها، وقد دفعت ذراعيها قدامها، مخفضة صدرها ورأسها إلى الفراش. نهضت،"لا ألقى بالاً، لا يهم ".

"لا بأس، لا بأس " قال، بتبدل هزلى فى نبرة الصوت.

الرجل الألمانى سيكون مثاليًا، قالت لنفسها، كُله أداء، بلا كينونة خاصة. سيارة بى. إم. دبليو. فلنأمل ألا يكون هذا الرجل مينى كوبر. أدارت رأسها لترى فى المرآة بالجوار ردفيها."أشبه كليوباترا "قالت لنفسها،"أبدو كملكة ".عبرت الفراش للناحية الأخرى، ورفعت سمّاعة الهاتف.

نتأ آدم بخصلات شعره الداكنة مبلولة، تحوط خصره منشفة. مرر يده خلال شعرها ليوقف قطرات الماء التى تسيل فوق وجهه وصدره. ها هنا لحظة مكاشفة، قال لنفسه بتبجح مصطنع، مُسقطًا المنشفة.

"حسنًا" قالت آنيمايك بحاجب مرفوع،" نقدر نشتغل على الموجود ".

"ممكن أشرب حاجة ؟".

"نعم.أفتح بعض النبيذ، ثمّة نحو نصف زجاجة فى البرّاد ".

شاهدته يمشى نحوالبرّاد، وينحنى، يصطفى زجاجة. فى الأول، عرّى مؤخرته دون اكتراث ورأت الجانبين المنقطين على خفيف والوادى المظلم بينهما، وارتعشت عضلات خصره مرّة أومرتين وهو يخفض ركبتيه.

"أحمر أم أبيض ؟".

"أحمر".

"تمام. أوامرك يا زميلة"كُلّ هذه الردود الحاضرة الخفيفة الدمّ كانت من أجل بث الإحساس بالطمأنينة

فيه، لكنها أشعرتها بعدم الارتياح ؛ فلا وجود لما يدعوه الإنجليز بالرفقة.

"إذًا، صُبّ لى كأس، وخُذ أنت الأخرى بعضًا، ثمّ تعال هنا وهيا نبدأ".

رمقها سريعًا فى المرآة ورأى تحدّر الجلد من وجنتيها حتى رقبتها، الجلد المُنهك المدبوغ، الّذى يغطى أعلى صدرها. كان ثديها وفيرًا سوى أنّه بدا فى وادى آخر، يتدلى منخفضًا، جاهزًا للإصغاء لحدوتة قبل النوم. شهوتها ذات دهاليز من النشاط ورغم أنّ شكلها مقبول، وليست بدينة، إلا أنّ ثمة شيئًا ما بها فشل فى جعله ينتصب. قطعًا، منع نفسه من التفكير فى أمّه. أوجان، يمكنه تخيّل نفسه فى حفل أوبار، يحكى القصة." إذًا، هل انتصبت بعدئذ ؟" "حسنًا، لقد تلاطمنا خفيفًا وفوتنا بعض الأجزاء لكنّى خرجت سالمًا ".أو" حسنًا، بعد أن أوشكت تقريبًا على إشعال النار فى كتاب زوجها المقدس، عبثت قليلاً بنازعة السدّادات، ثمّ قدمت بعض التبريرات وغادرت ". ثمّ لسبب ما، وهو ينزع فلينة الزجاجة، فكّر فى دوروثى زوجة جورج. تذكّر ذات التعبير المرتسم على الوجه ـ الإحباط، يتأكد أكثر من مرّة.

هل هذا ما تريده النساء؟ هل فى ذلك أى نوع من التعويض؟ أوهل كانت، كما قالت، مثل رجل ؟ ما من فرصة للعناد الآن. أقحم نفسه بالكرسى الّذى يتدلى فوقه سروال جان القصير.

"اقترب منى " قالت، تفسح له مكانًا بالفراش. بدت كزوجة مناسبة عابسة وأنفها مثل طوفى ممضوغ.

جرع كأسه وناولها الكأس الأخرى، واقفًا على يسارها، قضيبه متدلٍ مثل سحّاب جرس، يمكنها استعماله لاستدعاء خدمة الغرف.

جرعت نبيذها بضجّة وناولته الكأس ليضعها على جنب.

"هل أنت واثقة أنّك ترغبين فى إنجاز هذا الأمر "سألها، وهو يحطّ كأسه بجانب كأسها فوق الطاولة المجاورة، ثمّ أردف،" مهلاً، ثمّة جلبة بالخارج. ربّما يكون جان؟" .

ارتفع صدرها وقالت:" أريد أن تمارس معى جنسًا فمويًا الآن ".

ارتفعت نوبة هائلة من الضحك فى صدره وصفق يده فى وجهه، مُغطيًا فمه، يجرجر الجلد تحت عينيه لأسفل. وحين فتح عينيه مرّة أخرى ليراها ميّز خوفًا يُطلّ من عينيها وعرف سِرّ الحكاية من الأصل ـ رجاء.

لا بأس. كان يجاريها، وليكن الربّ فى عونهما. كانت النقود لتأتى فى المتناول، وبها يقدر على الحصول على سفرته التالية. واصل. مضى إلى حافة الفراش وقبع هناك، يتطلع إليها وهى تفرق ساقيها. رمقها بنظرة عجلى مُشيحًا بعدها مُخمنًا مثل كنّاس

المدخنة وتجشأ، مرتين، قبل أن يشرع فى تقبيل ربلتيها برفق مكروبًا وهو يتسلقها. ولحسن الحظ، فاحت منها رائحة الصابون. ممكن تكون أى أحد، ليست زوجة جان، ولا أمّه، ولا دوروثى.

تظاهر بنوبة ابتهاج مفاجئ لدى اكتشافه فخذيها وألقى بنفسه يقبلهما، مُصدرًا الضوضاء الواجبة لضيف على العشاء. انفرج ساقاها أكثر ولاحت أمامه هضبة فينوس، حارة سدّ. بتهور، تلمّس ما بين فخذيه ليرى إن كان سيعجز عن تقديم قليل من العون لنفسه، وشجّعه الدفء والألفة فى الوصلة المصنوعة. بيده الأخرى، شرع يلاطف وينقر شعر عانتها، وفمه يواصل تقبيل فخذها لكن، وقد عجز عن التفكير بشكل مرتب، راح يُقبل المكان ذاته بشكل مُتكرر.

كانت آنّيمايك قلقة ؛ فقد بدأت تشعر بأنها غير مرغوبة، وبحركة متشنجة مباغتة فتحت ساقيها أكثر.

لم يعد بوسعه التغافل، هوى آدم فوقها وبذل واجبه الذكورى كاملاً، ويده الأخرى تواصل عملها تحت. " ليست هى، بل امرأة أخرى " راح يُكلم نفسه، سوى أنّ رائحتها أخذته بعيدًا، لا لصديقاته السابقات، ولا لأى جسد أنثوى آخر، بل لرائحة الكتاب المقدس الّذى فتحه.

رقدت آنّيمايك ساكنة تمامًا، كأنّها على حافة العين، وافترض أنّه يجب أن يواصل حتى تخبره بشىء آخر. لم تكن لديه فكرة عمّا إذا كانت راضية، وقد ارتفعت هضبة فينوس خفيفًا، عند لحظة ما، ثمّ

انخفضت مرّة أخرى. بقى على حاله بطريقة محافظة بشكل معقول. وحين، في النهاية، حصل على انتصاب، استمر بثبات. فجأة، تقوّس ظهرها وراحت تغمغم شيئًا بشأن" اشتهاء ذلك "، أحسّ برعشة في وجنتيه وهي تدفع وجهه نحوها، كلتا يديها وراء رأسه، وعندئذٍ قالت له :"هاك ما أريد ".

فهم. نهض على ركبتيه ودخلها، ظهر يده ينشف فمه، دون أن ينظر إليها حتى بلغ التناغم الكامل. كانت ساكتة، وحين أخفض بصره كانت تلقى برأسها للوراء، كانت قد رمت الوسادة جانبًا، وتحركت حلمتاها مكروبتين دون اكتراث بما يجري سوى أنّ جسدها بدا راضيًا كفاية، ونعم، في النهاية، يمكن أن تكون أية امرأة أخرى، سوى أنّه طلبًا للسلامة فحسب، أبقى صورة شارلوت في رأسه، الأمّ الكاريبية الشابة، الفارعة، طويلة السيقان، المبتهجة دومًا.

حين بلغ ذروته، تنهد مرتاحًا واسترخى قليلاً دون أن يسقط فوقها في عناق، وحين فتح عينيه بعد هنيهة رآها ترمقه.

"أخرج مني الآن ". قالت، مُشيحة بوجهها.

"ما الخطب؟"قال، وهو ينحي نفسه جانبًا، ولسانه يتحسس طرف شعرة بين أسنانه.

لم تجب. رباه، قال لنفسه، مزيلاً الشعرة خلسة. لقد مرّ بتلك الحالة من قبل، وهو يعرف ما تعنيه.

كانت ثمّة جلبة مباغتة عند الباب، دخلت بطاقة ممغنطة ثمّ انسحبت من القفل وارتج الباب قليلاً.

"إنّه جان " قال آدم.

"كلا" قالت،" لا يمكن ".

علق الباب وانحشر فى السجاد، لكنه فى النهاية انفتح وسمعت صوتًا يقول،"مرحبًا؟ مرحبًا ؟ أثمّة أحد بالداخل؟".

ـ ٤٧ ـ

حين ضحكت لوريا، كانت ضحكتها قوية وضاءة، حتى ظهرت أسنانها،"هار، هار، هار!".كانا جالسين فوق دَرَجِ الكنيسة، متجاورين.

سبق وراح جان إلى هونج كونج ترافقه آنّيمايك وقوبلا بالصدّ من الكانتون [١] وبصاقهم المتطاير، وطريقتهم المؤلمة فى مخاطبة بعضهم البعض، وطهيهم المكرور لكل أسوأ الروائح فى العالم. تسرّب إليه شعور وكأنّه قد مرّ عبر بخار طنجرة تبقبق بالكونجى[٢]، حين طافا بالشوارع. حين يُفكّر فى هونج كونج، يتذكّر الرائحة العفنة للجمبرى المجفف، مُتعلقات البرتقال الصغير كثير اليرقات، مُعبأً فى سِلال ومتروكًا فى الهواء المُشبع بأول أكسيد الكربون فى الشوارع خارج المتاجر. لم يكن على ما يرام آنذاك، وقد تجلى للتوّ الجانب الآخر من علاج كيميائى ما، وباستمرار كان الغثيان عالقًا فى سقف حلقه. وفى حين كان يتعافى من جراحة مُبكرة فى صدره، اقتربت منه، تُقلّب فى بعض المجلات الخاصة بالمرأة التى أحضرتها معها

(١) غالبية سكان هونج كونج. (المترجم).

(٢) نوع من عصيدة الأرز مشهورة فى الدول الأسيوية. (المترجم).

وأشارت إلى مقال شرح أنّ الألم كان فى السابق يوصف فى المستشفيات طبقًا لمقياس من واحد لعشرة، الدرجة العاشرة، الأسوأ، خاصة بآلام الولادة. وقد قبلت، أنّه ربّما بلغ الدرجة الرابعة.

كانت لوريا لا تزال تضحك، وهى تغطى فمها بيدها، والسبب: انطباعاته عن هونج كونج. سوى أنّ عقله قد عدا مثل النفاية خارج أزقة هونج كونج وعلى طول أروقة مستشفى بروغ.

"حيث توجد قذارة، وفوضى، وضجّة، توجد حياة "قالت له،" هذا قول مشهور بين الكانتون. إنّهم قوم نابضون بالحياة، أنت على حقّ.لدينا لغة سيئة ونحن نتصايح بها، ومتى واتتنا الفرصة لاستعمال كلمة بذيئة، لا نتوانى أبدًا. أحد الأجانب(*)، طلب منى أن أترجم له لقاءً جرى مع بعض ممولينا، كان زبونًا لى، وقد نقلت له ما يُقال، تقريبًا. قال إنّه ميّز كلمة بذيئة، وقلت له إنّهم قالوا إنّى لأكون عاهرة عجوز درداء تمصّ أعضاء الرجال قبل أن يخفّضوا أسعارهم وأنّه من المعروف جيدًا أنّ أمى كانت تضاجع الكلاب ".

مرّة أخرى، ضحكت بقوة مثل صبى.

:"أفتقد هونج كونج " قالت، كأنّها تُسِرُّ له بسرّ.

:"ذهبتُ لأوروبا لأنسى هونج كونج عدة أسابيع وحين ضقت ذرعًا بأوروبا مضيت إلى أمريكا ثمّ لم

(*) Gweilo كلمة باللغة الكانتونية تعنى أجنبيًا، لها تاريخ من الاستعمال العنصرى المستهجن. (المترجم).

تستهونى فجئت إلى هنا. الآن، أعرف أنّى سأعود إلى هونج كونج تاليًا. لأواجه الموسيقى ".

"أية موسيقى؟".

"إنّه تعبير بريطانى"(*) قالت، تعبر المسافة الفاصلة بينهما لتجلس بالقرب منه. خدشت ركبتها خفيفًا، مُخلفةً علامة بيضاء رقيقة.

"افتقدتُ رأس السنة الصينية " قالت وهى تخفض وجهها قريبًا من يديها، ومرفقها يتكئ فوق فخذها :"مكان مخبول " قالت هامسة،" tchi-sin

نظرًا خلال الممر المُقرمد إلى العشب الناشف بالمرجة أمام بوابة الكنيسة، جزء من سياج أبيض ذى أوتاد. هبّ غبار بزوابع واهنة وعاد يرقد أرضًا. عبر الشارع الرئيسى، باب سدّ بكابح مفتوح ورجل وقف كأنّه على وشك مغادرة البار المؤقت هناك، ثمّ بدّل رأيه. بغتة ظهرت امرأة، تتمايل بوجع واضح فى وركيها ونزلت الدَّرَج الخشبى إلى المخزن الصغير تحت، فتحته وغابت داخله، ثمّ عاودت الظهور تحمل سجائر وزجاجة وصعدت الدَّرَج بنفس المشقّة والبطء. كان الجو حارًا وخلوًا من الهواء.

"لقد هجرت زوجى، كما ترى "قالت لوريا،" وبدأت بعلاقة مع رجل أسترالى، زبون عندى. سوى أنّ أبنائى، الّذين يدرسون بالمدرسة الثانويّة، قاطعونى

(*) Face the music تعبير يعنى القبول بالعواقب الكريهة لأفعال المرء. (المترجم).

ومكثوا لدى والدهم. هونج كونج مجتمع محافظ جداً ونحن نربى أبناءنا لينشئوا مثلنا، ليصيروا لائقين، أن يكدّوا، أن يشرّفوا آباءهم، لذا فما فعلوه لم يكن مستغربًا. أبواى قاطعانى أيضًا، وأمّى، صفقت الباب فى وجهى. عاجلاً، كل ما جعلنى أحبّ هذا الرجل بدا وكأنه لا شىء مطلقًا، وعملت حادثة بالسيارة أثناء قيادتها نزولاً من القمّة ذات ليلة. أصبت ورحت للمستشفى. بعدها طلبت تذاكر طائرتى لأوروبا وبمجرّد أن قدرت على المشى غادرت إلى المطار ".

"أوه" قال،" وماذا تنوين أن تفعلى حين تعودين؟".

"قد لا أعود ".

"لكن يبدو أنّك تفتقدينها أيما افتقاد ".

"صحيح. لكن لا أعلم إن كان بمقدورى العودة، لأن الناس الّذين أحبّهم" توقّفت،" ليسوا قادرين على محبّتى. لا أحد، لا هو، الأسترالى، ولا زوجى، ولا أبنائى، ولا والداى، ما من أحد جاء لزيارتى بالمستشفى. الأسترالى، تعرف، اسمه كان بريتّ، اسم فظيع، كنتُ قد أنهيت علاقتى به للتو وكنتُ أنتقل من بيته، وهذا هو سبب عدم مجيئه. لكن الآخرين كانوا يستطيعون المجىء ".

"لكن يا لوريا، ربما عرفوا أنّك بخير أومنعهم أحد من زيارتك بسبب حالتك...".

هزّت رأسها ورمقته هنيهة، ثم حلّق بؤبؤا عينيها نحو السماء كطائرتين ورقيتين غامقتين.

"كلا" قالت.

إنهم غاضبون منك لكن لو اعتذرت، سيسامحونك".

أومأت دون اقتناع.

"هذا الأمر مشروط ".

"هكذا الأمر دائمًا، حبٌ مشروط".

"لماذا طلبت منى العون ؟".

كان جالسًا يحوط رضفتى ركبتيه بيديه، وحطّت يدًا فوق كلٍ من يديه. لم يتحرك، أراد أن يُلمس، أنّ يتشبث بمكان واحد، أراد الانخراط بحياة شخص آخر، احتياجاتهم.

"هذا النوع من الأمل لا يموت أبدًا "قال مُسلمًا،" ليس حقيقةً، لا يهم ما يخبرك به عقلك، أوخبرتك، هذا هو اللغز الإنسانى" أشاح ببصره، نحوالمخزن، ورأى المرأة العجوز المتثاقلة ترافق رجلاً عجوزًا مناسبًا نحو السيارة. كان بالكاد يمشى، وقد راحت يده تواصل إلقاء التحية على أصدقاء غير مرئيين. أجلسته فى مؤخرة السيارة وقد تخطى الباب المفتوح بساقيه مُعلقتين خارج الباب. مرقت خفيفة بنفسها ودخلت للوراء.

"أعرف أنّك تحتضر".

"آه".

"بيلّ أخبرنى بذلك ".

"وكيف عرف ؟".

"زوجتك أخبرته".

زفر من أنفه، كان زفيره تقريبًا ضحكًا ساخرًا، وجهل ما إذا كان مُغتاظًا أم متململاً. مزيد من الأنباء السيئة على وشك المجىء، فكّر، أكيد.

"هل تحبّ زوجتك ؟".

"لا أدرى".

"هل تحبّك ؟".

هزّ رأسه:" ما من فكرة لدىّ ".

"هل تحبّ لوذهبت لباريس معى ؟".

مرر يده فوق وجهه، ليمنح نفسه وقتًا للإجابة،" أودّ، لكن لا يمكن".

"لِما لا يا جان، ماذا لديك لتخسره...؟".

"ما أفكّر فيه يتجاوزك " قال،" أنا أتعاطى المورفين كل يوم الآن وقالوا لى إنّه حين يحدث ذلك فالمسألة مسألة وقت فحسب " أخفض بصره نحو دَرَج الكنيسة، التى يقعدون فوقها وأحصى المكان كفكرة طريفة.

"حين يكون الوقت قصيرًا، من السهل أن نحبّ، أنا على يقين أننا نستطيع". أدهشته صراحتها، فنظر إليها ورأى الغيرية تطل من وجهها. من قبل ، كان يراها امرأة صينية لا تشبه مثيلاتها، ناعمة وفريدة، الآن، نظر إليها مجددًا ورأى كم هى شرقيّة بالنسبة

إليه بملامح كليلة ملؤها الصدق والإحساس، كانت تحدّق فيه، تزنه،" ثمّ متى لقيت نحبك، ساعتها سأكون قد وجدت من يُحببنى. من يحببنى دون شروط.ستقدر على هذا، أظن".

عند رؤية وجهه غارقًا فى الفوضى، قصدت نحوهدفها مباشرة،"ستكون تلك أعلى درجات الحبّ ؛ لأنّك تحتضر ".

"أوه، لوريا" بادرها، وهوينهض، ينفض غبار دَرَج الكنيسة عنه،" وإذا كنت لا أحتضر أوانّك لا تعلمين أننى أموت...".

"لا" قالت، مقضبة ما بين حاجبيها،" هكذا الحال".

نهض ومشى بالجوار فى دائرة، مُحاكيًا السيارة الوحيدة، التى رآها تسير قريبة فى الطريق الملتوية. جهل ما يفعل بإزاء هذا الأمر، أحس داخله بالوجع، كأنه يُستغل. كانت مفاجأة، سريعة. لواتفق مع إيمانه، إيمانه بنوعيّة الشخصية، التى تصور أن تكونها، إذًا لألحق بها مغزىً حقيقًا. كانت تعرض عليه حُبًّ، كانت تقول أن بمقدورها أن تحبه، مع كل شىء. كفّ عن النظر إليها. كانت تجلس مثل مراهقة، تتعلق بتنورتها كى لا تنكشف ملابسها الداخليّة. ابتسمت له باستعداد حَذِرٍ لفتاة شابة تسعى لمدرس متوقعة درجات عالية.

"إذًا؟".

"دعينى أفكّر بالأمر. ثمّة الكثير للتفكير بشأنه".

-٤٨-

"كان بإمكانك دقّ الباب " قال آدم، مُحكمًا المنشفة.

"ما هذا، ماذا يجرى؟ " راح جاسون يسأل من عتبة الباب، رأى رأس آدم،"كُنتُ أعلمُ ذلك.."همّ بالدخول لكن برنز قال له سريعًا، بيد ممدودة،

"لا أستطيع السماح لك بالدخول يا سيد رايدر ".

"ما هذا، ما هذا ؟" راح جاسون يُكرر سؤاله.

فجأة، تصاعد نشيج هائل من آنّيمايك وحين التفتا إليها، آدم وبرنز، شاهداها ملفوفة بالشراشف المنزوعة، تبكى ."دموع حقيقية"، فكّر آدم. بدأ كتفاها بالارتعاد واصطكت أسنانها .ظلّ الرجلان متسمرين يحملقان بها، وتخيّلها آدم على حافة المسبح تضع نظارتها أو ترفعها ونظراتها المقوسة. قحبة، فكّر. استدار برنز ليرمق آدم وقد أطل من عينيه اتهام قاسى.

"لا تبالغى بالأمر كثيرًا " قال آدم لها.

"مدام دى جروت" قال برنز،" من الأفضل أن تحكى لنا ما يجرى هنا. أنت جد مضطربة ولا أرغب

بالقفز لأى استنتاج، سوى أنّ الأمر لا يبدو كمشهد يبعث على السرور..." .

خطا جاسون داخل الحجرة ووقف بمحاذاة برنز وقد عقد ساعديه أمام صدره.

"واضح ما كان يجرى" قال مُستديرًا وجهًا لوجه صوب آدم.

"لقد طلبت منك البقاء بالخارج" قال برنز،" الآن، مدام دى جروت..." .

أومأت بسرعة ونشّفت عينيها بالشرشف الأبيض.

"لا أدرى حقًا" قالت،" كنتُ قد شربت كأسًا أو كأسين، وعرض آدم علىّ أن يصطحبنى حتى الحجرة، لم أكن على ما يرام، فزوجى مريض جدًا". طفحت مجموعة جديدة من التشنجات وهرع برنز للتخفيف عنها، قائلا:" لا بأس" عدة مرّات حتى سيطرت على نفسها كفاية لتواصل.

"عمومًا، أفترض أنّى دخلت الفراش تلاه أن وجدت هذا الرجل يركبنى" أغمضت عينيها نصف إغماضة ومسحت وجهها بيديها، فساحت المسكرة خطوطًا أسفل وجهها.

"لقد اغتصبها!" قال جاسون.

:تبًا" قال آدم،" لقد طلبت منى أن أضاجعها..." .

"إذًا فقد وقع فعل جنسى" قال برنز،" أنت تعترف بذلك..." .

"رباه !" انتحبت آنّيمايك.

"لقد طلبت مِنى هذا" كرر آدم، شاعرًا بالدموع تطعن عينيه،" لقد عرضت علىّ القحبة المختلة أن تدفع لى مقابل مضاجعتها...".

"هذا لا يُحتمل" قال جاسون بجفاء، ملتفتًا ليضع كفًا فوق ساعد برنز." يجب أن تتصل بالشرطة ".

ظلّ برنز فى مكانه.

"اتصل بالشرطة ".

"لا" قال برنز، مُحررًا ساعده من قبضة جاسون. مشى نحوالباب وأوصده برفق، ثمّ عاد إليهم، عابسًا.

"ينبغى أن تضعا ملابسكما، يجب أن نهدأ ونفكر بالعقل "قال، يخاطب ثلاثتهم،" ثمّ سنلتقى فى مكتبى ولورغب أحد فى رواية حكاية أخرى، سيكون أمرًا محمودًا. سيبقى الأمر طى الكتمان تمامًا".

"لقد اغتصبت هذه المرأة! " قال جاسون، ورمقها بتقزز." ربما تحتاج لرعاية طبيّة " أردف بهدوء:

"بلى . أقترح هذا " قال برنز.

" لست فى حاجة أن تُقاضى...".

"لكن نصف ساعة لن تغيّر شيئًا".

"دليل "قال جاسون يهسهس باستهجان،" عينات، سائل ما...".

"إنّه يُقرّ أنّه ضاجعها " أشار مؤكدًا.

"لقد طلبت مِنى هذا" قال آدم مرّة أخرى ."ماذا يضطرنى للنوم معها ؟" كفّت آنّيمايك عن النهنهة وفتحت فمها كأنّها على وشك قول شىء ما، وأغلقته

سريعًا. وببطء كحمم ذائبة، واصل تصلب ذقنها كسوة أسفل وجهها، مبتلعًا أنفها أولاً دون توقف، مُشكلاً وجهًا حجريًا فريدًا.

"سيستغرق الأمر نصف ساعة" قال برنز. فى نصف ساعة ربما ينتهى الأمر برمته. لديه وقت ليشرب." الآن، ولا كلمة من أى أحد، أى أحد منكم" مضى نحو الباب ليقود آدم نحو الخارج، ثمّ تقدّم نحو الحمام ليلتقط الروب منه." هيا، غط نفسك بهذا، ثمّ من الأفضل أن تأخذ ملابسك ".

"لا أدرى ما مشكلتك يا رجل "قال وهما يمشيان نحوالمصعد،" إلا أنّك تحب المشكلات . أجهل ما جرى هناك، سوى أنّى أملك فكرة. لقد رأيتكما معًا الليلة الفائتة. لا أدير ماخورًا هنا". حين انفتح باب المصعد خرجت السيدة العجوز وعشيقها الزنجى الشاب. كان يحمل حقيبة برسَن تحتوى على هدايا ملفوفة بورق جرائد." سنقيم حفل شاى إنجليزي لائق فى القاعة الملكيّة، فيما بعد" كانت تكلمه.

فى تلك الأثناء، كان جاسون يقف خلف الفراش، ما زالت عيناه تتجنبان النظر إليها، وفمه ممتعض كأنه ذاق شيئًا حامضًا،" إذا كنت على ما يرام، سأرحل، ليس من ثمّة الكثير يمكن لرجل أن يفعله. ممكن أطلب من ميسى المجىء إن أحببت".

"لا" قالت آنّيمايك بفظاظة،" أرجوك لا تفعل ".

أومأ جاسون ومشى نحو الباب . لم يحبّ المرأة أبدًا.

ـ ٤٩ ـ

توقفت المجموعة عند مطعم يطل على الشاطئ فى طريق عودتهم إلى المنتجع، شربوا شايًا وقهوة وأكلوا بعض الكعك ثمّ تابعوا القيادة بمحاذاة الساحل الغربى للجزيرة. علّقوا على الطريقة التى استفاد بها السكان المحليون من المصدر الواسع للبحر، يغتسلون فى مائه يوميًا، بكامل ملابسهم. وأخبر جورج ودوروثى البقيّة كيف رأوا هذا عند أول ضوء تحت عند الشاطئ كل يوم.

"أمرٌ مثير بقاؤهم بالملابس " قالت دوروثى.

"آخ، لأنّك فحسب تأقلمت على الغطس عارية" قال بيلّ، "لا يجب أن تحكمى على الآخرين حسب إسرافك فى الملذات يا دوروثى".

"فاجأنى أنّ ملابسهم لا تتقلّص" وتابعت،" مع ذلك، لا أظن أنّهم يلبسون أصوافًا كثيرًا ".

تبادلت لوريا وجان النظرات وضحكا. محملقًا عبر النافذة، يشاهد المحليين يحدقون بهم وهم يتحركون فى مسار ملتو عبر الكفر، أعاد جان إمعان النظر فيما قالته لوريا، حبًا فى درجته القصوى، لأنه

كان يحتضر. تعليق واحد غريب لا ينبغى له أن يبدل رأيه فى شخص ما. بأى درجة من الأهمية كان عامل الموت، أساسى أم ثانوى ؟ وهل يهمّ ؟ كان رغم كل شىء يموت، هذه هى الحقيقة. كان جد ساخر. كان عرضًا بالحب، ربما كان مرّة مؤمنًا، ويجوز لا يزال، والتقت عيناه بعينى بيلّ فى مرآة القيادة.

بدأت دوروثى تهمس فى أذن لوريا، بصوت عالٍ بدرجة كافية لهم ليسمعوا،" أقول، كان استعراضيًا بدرجة رهيبة أمام الكاهن، وهو يحكى له عن حربه، كما تعرفين "أدارت عينيها وابتسمت لوريا. وتنهد جورج، الذّى عجز عن الالتفات بسبب آلام ظهره.

"يمكننى سماعك ".

"لم يسمح لى بلفظ حرف بجواره ".

"امنحيها فترة راحة يا عزيزتى" قال جورج بنفاد صبر.

"طبعًا، جميعنا يعلم ما كان يفعله فى حربه: يحاول النوم مع الفتيات الإيطاليات ".

كان عنق جورج مُتيبسًا، وقد حرّك يديه لتدعماه، واحدة على إطار النافذة والأخرى فوق لوحة القيادة. شرع بيلّ بالكلام،" أنا على يقين أن لديه صورتك...".

"لا أحسبنى رُقت للكاهن" راحت دوروثى تواصل كلامها، وهى تربت على ساعد لوريا."هل تعلمين أنّه لم يمنحنى فرصة طوال اليوم، ليس أكثر من كيف حالك. هؤلاء الرجال يلتصقون معًا...".

كان جان غير مستريح، وبدت السيارة بالغة الضيق بغتة، وسمع جورج يتنهد مرّة أخرى، تلك المرة غاضبًا. حطّ بيلّ يده على ذراع الرجل العجوز وربت عليه.

"لطالما أُنبذ من كل شىء. لكن تلك حصتنا، نحن النساء، أليس كذلك ؟" تابعت دوروثى. ولم تقل لوريا شيئًا، غمغمت قليلا، غامضة، مُبدية تعاطفًا دون موافقة. خارج الكفر، مضت السيارة بسرعة أكبر عبر الريف وهبّ نسيم.

"يحبّ المباهاة، هذه هى مشكلته. يحبّ رنين صوته "وندت عنها ضحكة نشاز.

فاق الأمر احتمال جورج، الذّى بذل ما يمكنه ليستدير فى كرسيه لكنه كان مُقيدًا بحزام المقعد. بصق وهوعلى وشك القىء،" أصيخى السمع يا من تتكلمين، أيتها البقرة العجوز السخيفة ".

أخفض جان رأسه كى لا يرى، ومدت لوريا يدها نحو يده و وضغطتهما، وردّ الضغطة.

"سأخبرك ما جرى هناك. كُنا نقضى وقتًا ظريفًا، وتكلّم الكاهن معك أكثر من نصف الوقت، لابد أنه أصغى إليك تكررين الكلام نفسه ثلاث مرّات، عن كيف أنّ البنتين كانتا بالجامعة معًا. ثلاث مرّات. لم يكن بإمكانى الا أمنعك من مواصلة الكلام نفسه على الوتيرة نفسها. كانت كارول فى جامعة ساوثامبتون منذ سنوات. جانيت، حسنًا، لابد أنّها

غادرت جامعة بريستول منذ عام ١٩٧١. فى كل مرّة نهم فيها أنا وهو بتبادل كلمات قليلة، تنحشرين أنت بحمولتك نفسها من الهراء المكرور. كيف تقدرين على الجلوس هكذا وتقولين أشياء عن ذلك الرجل اللطيف، لا أستطيع استيعاب الأمر. لا أدرى ".

"صحيح " قالت،" افضحنى أمام الجميع".

جذب نفسًا عميقًا.

"أنت منْ يفضح نفسه" قال مُتجهمًا،" لست فى حاجة لى كى تنفضحى، يا عزيزتى ".

قاطعتهما لوريا: "يوم مجيد آخر، هل الأمور هكذا دائمًا كئيبة..".

"سأرحل فى القريب العاجل" تابعت دوروثى.

"نعم. صحيح، سبق وسمعنا كل هذا الكلام من قبل " قال جورج مُقدمًا على نصف نهوض شاق، مبدلاً من وضعية جلوسه.

"لن يطول الآن ".

"كلا. لن يطول ".

سقطا فى سُكات. حين بلغوا المنتجع، توقّف بيلّ بمحاذاة مكتب الاستقبال وقال إنّه سيتركهم جميعًا بالخارج ثمّ يركن السيارة. ترجل جان ودار حول السيارة ليفتح الباب لدوروثى.

"أوه، شكرًا لك أيها الشاب" قالت تغمرها السعادة وهى تحدق بجان طوال الطريق، وقد عجز

جان عن تبين ما إذا كانت تستغريه أوأنها تلعب. ممسكًا بذراعها من تحت قادها عبر الدَّرَج. ورأى، وهو يلتفت للوراء، جورج لا يزال قاعدًا، جاسئًا فى الحقيقة، داخل السيارة وهكذا، حين انضمت لوريا إليهما، أقترح أن يصطحبا دوروثى للخارج إلى المسبح لشرب الليمونادة.

"لقد كنت قاسيًا " قال بيلّ.

"بلى" أجاب جورج، مصوبًا نظره إليه،" سآتى معك، لنركن السيارة ".

"ثمّة خطبٌ ما بها يا جورج ".

"ينبغى أن أتجرأ على مواجهة الأمر، أعلم ذلك ".

"ما من فائدة من التعامل معها على هذا النحو، حسنًا، تبدو طبيعية، فقط كونها غير معقولة. هل تتابعنى ؟".

"ماذا كنت تفعل، إذًا ؟" سأله جورج، مستديرًا ليواجه بيلّ وهو يلوك على أسنانه كما لاحظ بيلّ أنّه يفعل حين يكون فى أى موقف انفعالى، كأنه يحاول إيقاف انفعالاته، للتحقق منها.

"لا أدرى يا صديقى. ينبغى أن تراجع طبيبًا حين تعود للوطن".

أومأ جورج." أتوقع أن يوصى لها ببعض الحبوب "قال.

"ربما" وضع بيلّ عصى سرعة السيارة على الأول وتحركا حول الباحة صوب منطقة وقوف السيارات.

"الأمور تزداد سوءًا، كما تعلم، هذا ما قاله الطبيب ".

:"ربُك ربٌ عطاء، يعطى البرد قدر الغطاء يا جورج ".

دخلا بالسيارة لمكان خالٍ، وببطء، فتح جورج الباب ومتكئًا على يديه سحب نفسه خارج السيارة." ظهرى اللعين" قال، بلهجة من يشرح.

ـ٥٠ـ

"سيد دى جروت ؟" خطا المدير متقدمًا من مكتبه برشاقة،" هل لى بكلمة معك على انفراد ".

بدا جان مندهشًا وغير واثق، كان لا يزال ممسكًا بدوروثى بذراع واحدة، فالتفت نحوالسيدتين،" هل تأذنا لى ببضع دقائق؟" سأل، موجهًا سؤاله إلى لوريا.

"بلى، لقد كنت غاية فى الذوق، شكرًا لك" شرعت دوروثى فى الكلام، وتابعت هى ولوريا مشيهما نحوالشرفة الأماميّة.

وقف برنز، وراء باب مكتبه الخشبى الداكن، مُشيرًا لجان بالدخول، وأوصد الباب خلفه وقدّم مقعدًا لجان.

"سيد دى جروت" قاصدًا مقعده بسرعة،" لقد واجهنا حادثًا بغيضًا جدًا حين كنت بالخارج ".

رفع جان حاجبيه،"أوه، حقًا؟".

لعق برنز شفتيه ورسم نصف ابتسامة،"زوجتك يا سيد دى جروت...".

"هل هى بخير ؟".

"حسنًا. لا، أحسبها ليست بخير. لقد تعرضت لتحرش جنسى".

شقّت ابتسامة صغيرة طريقها نحو أحد جانبى فمّ جان.

"هذه ليست دعابة ظريفة يا سيد برنز؟".

"كلا، نادنى ستيف".

"لكن ماذا جرى؟ أظن أنها كانت برفقة الأمريكيين اليوم؟ هل هوأحدهم؟" مال جان للأمام وأحسّ برنز بالامتنان جراء سيطرة الرجل على أعصابه.كرّس نفسه للتعامل مع مسألة الاعتداء على زوجته تقريبًا بتركيز أكاديمى.

"بلى، مؤكد.إنها بحال جيدة، قبل، كل شىء.لقد جرى الأمر منذ قليل. إنها فى غرفتكما، وقد طلبت منها المجىء هنا حين تكون جاهزة".

"أيعقل هذا؟ ألم تتأذ؟".

"تبدو بحال جيدة" قال برنز، ثم صحح نفسه،" ظاهريًا، أممم، بدنيًا، أعنى. نفسيًا، أحسبها مسألة أخرى...".

"نعم، نعم" قال،" من فعل هذا؟".

"آدم واطس. موظف مؤقت هنا. أنت تعرفه".

"بلى أعرفه" عاد جان يجلس فى مقعده. نظر إلى الخرائط الاستطلاعيّة المستنسخة المؤطرة فوق الجدران وراء برنز. خرائط لإفريقيا، ذات حواف محترقة عمدًا ومتهرئة. فكّر فى الشاب بشعره الأشقر

القذر الطويل وابتسامته المستهترة."لكن، أعجز عن التصديق أنّه استطاع الإتيان بمثل هذا الفعل "قال جان، وهو ينزع نظارته ويطرف بعينيه، مسح غبار الطريق عن عينيه ووضع النظارة فى جيبه. بدا منهوكًا جدًا فى الحقيقة، وفكّر برنز أن السبب هو المورفين.

"هل ترغب ببعض الشراب يا سيد دى جروت ؟".

هزّ جان رأسه نافيًا.

"وهل تقول زوجتى أنّه اغتصبها ؟ كيف ؟ ومتى؟".

"فى وقت الغداء اليوم، دخلنا عليهما بشكل غير متوقع ورأيناهما. كان السيد رايدر قد جاءنى يقول إنّها فشلت فى اللحاق بهم هذا الصباح وأن هاتفها مشغول، وقد فكّر أنّ الأمر مريب أنّه يودّ أن أطمئن عليها، لذا صعدنا وقرعنا الباب ودخلنا. على العموم، لقد لاح كأنها برفقته عند الغداء، أظنه النبيذ، وقد استغل الموقف، أثناء نومها " وأردف،" لم تكن على ما يرام، كما أخبرنى الساقى، فعادت لحجرتها كى تنام، يرافقها آدم واطس. يجوز كان يسير معها وهى عائدة بسبب إحساسها بالسوء ".

أخفض جان رأسه ونظر تحت بين قدميه إلى الأرضيّة.

راح برنز ينظر إليه، ممسكًا بقلم افقيًا بين سبابتيه وإبهاميه. حكّ جان جبينه وتنهد طويلا، وهو يهزّ رأسه.

"ماذا يُفترض بالمرء أن يفعل حيال هذا يا سيد برنز؟".

تردد برنز.

"أودّ أن أعرف لو كنت ترغب بملاحقته قضائيًا...".

مطّ جان شفتيه وهزّ رأسه مرّة أخرى،" لا ينبغى أن أفكر على هذا النحو يا سيد برنز، بل يجب أن أتكلم مع زوجتى...".

كان ثمّة دقّ على الباب وصوت امرأة يقول،" معى مدام دى جروت يا سيدى".

نهض برنز ومسح كفيه الرطبتين فى مؤخرة بنطلونه الكاكى،" لقد طلبت من أماندا الذهاب والاطمئنان عليها وإحضارها إلى هنا حين تجهز. أودّ أن أسمع القصة من جانبها".

"أكيد" قال جان ورأسه يواصل الإيماء كغصن شجرة تحت مطر غزير. ومرتاحًا لإيقاعه الخاص، كان جان لا يزال يومئ حين شعر بيدى زوجته فوق كتفيه. نهض بتؤدة وعانقها، مداعبًا شعرها وشاعرًا بالرطوبة عبر صدر قميصه. لم يقل شيئًا، سوى أنّه ربت عليها بوتيرة إيماءته نفسها. وحين انفصلا عن بعضهما، سألها إن كانت على ما يرام وهزّت رأسها نافية.

"أوه جان " قالت،" أشعر بالقذارة جدًا...".

أسكتها جان وأعادها بين ذراعيه، محدقًا فى برنز، رامقًا الخرائط فوق الحيطان، والأوراق فوق المكتب.

"ماذا سنفعل ؟" سألت زوجها.

"صه " دمدم، واستحضر فى ذهنه مشهد إمساكه بوسادة فوق وجهها والهمس بكلمات حلوة فيما يفعل ذلك.

تورّد وجه برنز، وتجشأ وجمع الأوراق القليلة التى لديه فوق مكتبه بحثًا عن مفكرة.

"ربما ينبغى لنا التثبّت أولا مما جرى فعلا" قال، وقد عثر على قلم مصادفة.

أشار ناحية الكرسى الآخر كى تجلس بمحاذاة زوجها.

بشفتين واهنتين، شرعت بالكلام. أغلقت عينيها وجذبت نفسًا،" اصطحبنى أثناء عودتى للحجرة. كنت أشعر بالترنح...".

"قال بنيامين الكلام نفسه " أضاف برنز.

"مَنْ؟".

"الساقى".

"كنت أشعر بالخوف، والصداع، لذا عرض آدم أن يمشى معى أثناء العودة، فى حال إذا ما أغمى علىّ، تعرف ".

كان جان ينظر إلى زوجته بيقظة، ولا يزال يومئ برفق، وكأنه يصغى لولده يحكى مسألته للمدير. كان ابنه ليحكم روايته.

"تجردت من ملابسى، وقد حسبت أنّه رحل، لكن كما ترى، كنت بحال مُزرية. جُل ما أردته هو أن أدخل

الفراش وأبقى ممددة. تعرف كيف يكون حالى يا جان. حين أصاب بهذا الصداع ".

"أكيد ".

"لابد أنى غفوت، من الوجع. وحين صحوت، لا أعرف متى لأنى لم أنظر إلى الساعة، كان..كان فوقى. كان..." ارتسمت ابتسامة جافلة باردة ولفظ اعتذارًا لجان،" كان بداخلى. شعرت به هناك فقلت له "لا! " أعى أنّى قلت ذلك. لكنه لم يكفّ حتى فرغ. ثم جئت أنت. شكرًا للربّ . أنا ممتنة لك يا سيد برنز، لأنى فكّرت أنّه قد يبدأ مرّة أخرى، من يدرى ما كان من الممكن أن يحدث ؟" استعملت المنديل الورقى المتكور فى يدها لتمسح عينيها بخشونة.

كان جان ساكتًا. والتفتت آنّيمايك إليه وقالت،"هل تنوى القعود هناك دون أن تقول شيئًا ؟".

"ماذا تنتظرين سماعه منى ؟ " سألها، بنبرات ثقيلة كأنه قد تكلّم بقواعد لغته الخاصة.

"ما قد يقوله أى رجل ؟".

"لا أدرى ".

"كلا. أعرف ذلك. وليست تلك هى المرّة الأولى. أعرف ذلك " قالت، وعيناها تنتفخان حمراوين بالدموع، فمها مشدوه. وقد تشكل نذير هائل لبكاء عبر فمها كأنه بقبقة لعاب، تمدد مشدودًا، تفجّر وانبثق نشيج من ورائه.

"لم ينكر السيد واطس أنّهما تضاجعا بشكل كامل " قال برنز متملقًا.

"أفهم" قال جان، ومضى يأخذ بيد زوجته لكنها انتزعتها مرّة أخرى.

"بشأن الملاحقة القضائية سيد ومدام دى جروت...".

"لن يدعمنى زوجى" بدأت آنّيمايك،"أنا وحدى بتلك المسألة...".

"آنّيمايك، ليست تلك هى القضية. هل ترغبين بملاحقته قضائيًا ؟".

"أريد مساندتك...".

"أنا بالفعل أساندك، لطالما ساندتك، طوال حياتك...".

"وأن تصدقنى ".

تردد جان، وأخفض رأسه، مصدرًا بعض الأصوات الخفيضة القليلة التى لم تنته لكلمة واضحة.

"نعم " تابعت، وجرس صوتها متنافر،" نعم، أن تصدقنى ".

تورّد وجه برنز مرّة أخرى. ما كان لأحد أن يصغى لمثل هذا الحوار بين رجل وزوجته. تاريخهما كامل أمامه، يعبر عاريًا خلال مكتبه. رأى بتفاصيل دقيقة كيف كان حال زواجهما، رأى بعين خياله الأثر الّذى خلفه فوق الشراشف جسدين رقدا منفصلين، رأى ملابس رجل متروكة فوق الأرضيّة، ندبة على باب الدولاب حيث تبدى مسمار برجى، حقيبة سفر نصف محشوة على الأرض. استطاع تصوّر الأحداث الكبرى

التى جرت بينهما تفصيلا كتلك، حفل التعميد الّذى لم توضب له كعكًا بسبب نزاع لم يُحل بشأن مسألة أخرى تختلف تمامًا، أول أيام دراسة ابنهما البكر، الّذى جاء ومضى دون وجود فيلم بالكاميرا، رأى السيارة تتجنب المحلات فى سنويّة زواجهما.أصغى لوشيش التليفزيون الذّى يُخفف من حِدة كل تلك الزوابع. لم تكن لديه فكرة أين تقرّ نجاحاتهما الزوجيّة، أشياء تتآلف كما تتداعى أشياء، تصوّر بشكلٍ واه، أنّ الشمس لابد وأنها تألقت وأن الأيدى تشابكت، وأنّ مزحة رجّتهما معًا بذات الوقت، لابد وأنّ الطفلين قالا أشياء طريفة، يقينًا. أفكاره الشخصيّة عن النجاح، بالغة القوة والإشراق بالنسبة إليه، فريدة، وقد أنجزها بمفرده، مع ذلك حظيت بتقدير واسع. كانوا يحبّون إعلانات التليفزيون عن السيارات الغالية، ومرّة، وعد نفسه أن يكون على طريق أمريكى سريع، جواز سفره وحقيبة واحدة على مقعد مجاور، وقدمه فوق دواسة بنزين سيارة كفؤ، يتوقف متى وكيفما شاء.

:"لن ينبس بحرفٍ " أعلنت الزوجة دون فائدة تُرجى. كان وجه جان صارمًا. ما من محلفين، فقط ستيف برنز. رمقته بغتة بمقت لابد وأنّه موجود، أمامهما." إنّه لا يُصدقنى ".

:"يقينًا يصدقك" تكلّم برنز فجأة، مندهشًا من اهتمامه."سوى أنّه أفضل ألا نتعجل بحماقة، هذا كل ما فى الأمر. يقينًا يصدقك. كلانا نصدقك ".

رمقه جان هوالآخر."نصدقك" كرر برنز.

"إنهم يقولون إن هذا ما يحدث، يقولون مثل هذا الكلام فى كل المجلات، سوى أنّى ما كنت لأصدق؛ لأنّى امرأة" وتذكّرت التعبير، الّذى ارتسم على وجه جاسون فى الحجرة." أنت تعتبرنى وسخة. قذرة ".

رمقها جان."كلا يا آنّيمايك ".

"بلى، أنا فاسقة، بضاعة مستعملة، بالية. امرأة عجوز مُنتهكة، لا أساوى شيئًا فى تقديرك. لم أعد قادرة على الإنجاب. فارغة، ناشفة، والآن هأنا وسخة أيضًا...".

"كلا" كلاهما احتج.

"لو عرفت، لوعرفت لأى مدى عانيت، ما مررت به" راحت تسقط الكلمات المتثاقلة خلال الفتحة الضيقة لفمها. دون تمييز بين الرجلين اللذين تساقطت عليهما كلماتها،" كل شهر، نقتل أطفالنا ".

أراد برنز شرابًا، فتحسس مقبض دُرج مكتبه.

"عمّا تتكلمين ؟"سألها جان، واضعًا يده فوق المكتب قُدامه.

"اللولب" قالت،" اللفيفة. لقد قرأت فى مجلّتى أنّه يشتغل عن طريق التسبب بالإجهاض. لم أكن أعرف ذلك أبدًا. الآن فهمت لِما أشعرُ كل شهر كأنّى أقتلُ نفسى. هذا الشىء، لا يصارحونك كيف يشتغل. إنّه يوقف البويضة المُخصبة عن غرس نفسها. دمار، موت كل شهر، تلك هى طريقة شغله ! هذا هو سبب

اكتئابى الشديد، طوال الوقت. جسدى قاتل. كل تلك الحيوات تهوى فى المرحاض، هذا ضد طبيعة المرأة، إنّه يحطمها، هذا رجس ".

صارت مشوشة، استنتج برنز، فالتقط الزجاجة سريعًا وفضّ الغطاء.

:"رشفة " قال،" إنّها بحاجة لرشفة " ومضى لإحضار ثلاثة أكواب ورقيّة من مُبرِّد الماء.

"آنّيمايك، أنت تبالغين" قال جان، وهو يرمق برنز،" نحن كاثوليك، هكذا ولدنا" قالت، والدموع مُراقة فوق ذقنها.

"كُفّى، أنت هستيرية، لست على ما يرام" ورفع جان الكوب الورقى لشفتيها وشربت رشفة بصوت عالٍ.

"يحوطنى الموت من كل جانب والآن هذا" قالت،" سأصارحك يا جان، أبلغ ما يُحزننى فى كل هذا هو أنّك لا تصدقنى، تنكرنى، بعد عمر طويل من العيش معًا، وكأننا لم نتزوج أبدًا، ما من دليل لدينا يبرهن على ذلك ".

"يقينًا، أريد أن أصدقك، لكن ماذا لو أن الأمر خلاف ما تظنين ؟"جرع نصيبه وشعر بالسخونة تضطرم فى صدره،" ماذا علىّ أن أفعل ؟ يجب أن يكون لدينا معيار للتصرّف، أوبالأحرى يجب أن يكون لدىّ أنا " خَلُصَ جان.

قذف برنز بنصيبه المزدوج لمؤخرة حلقه وبلع.

"انظرى، هيا لا ننجرف الآن، لسنا مضطرين لقول كلمة أو شىء الآن " قال،" سأتكلم مع آدم، أطلع على جانبه من الرواية، أنا مُضطر لهذا، كما تعرفين. سنبدأ من تلك النقطة، من أية نقطة تشائين، أقصد. تريّثى، ماذا يمنعك ؟ لِما لا نتريث جميعًا ".

أرشدهما للخارج يسترضيهما بصوت عالٍ، مُقترحًا أن يرسل لهما وجبة بالأعلى فى حجرتهما، وأغلق الباب.

عاد يقعد خلف مكتبه ورمق الأكواب الثلاثة الفارغة، ثمّ صبّ لنفسه جرعة أخرى. فكّر أنّ الأكواب تشبه أكواب المستشفى، تلك التى يستعملها المرء من أجل الماء كى يبتلع حبوبًا. كان الزوج يحتضر. أمرٌ سيئ. بلغ الهاتف وطلب إنجلترا. تمهّل ليسمع أمّه تعدّ رقم الهاتف الّذى عرفه منذ كان طفلا.

- ٥١ -

كان جان قد أحضر معه بعض الفاليوم مع أدويته. أقترح أن تتناول قرصًا وهكذا يناما. شكرته بشكل رسمى، ومضت لأخذه فى الحمام. كان أمرًا مُستغربًا منها ألا تطيق أن تكون محطّ بصره وهى تأخذ علاجًا. لوتقيأت، تقيأت بمفردها والويل لمنْ يحاول التخفيف عنها، لاستدارت ناحيته أو أى من الولدين مثل حيوان برى. على نحو مماثل، مهامها النسائية، حسب زعمه، تمارسها بحساسية. لا تتكلم عنها أبدًا، لم ير مُتعلقات حميمة، ولا مغلفات، ولا آثارًا باقية.

هستيريا، أمعن التفكير، جالسًا فى كرسى الشرفة، حيث جافاه النوم، اشتقت معناها من المقابل اليونانى لكلمة "رحم" كانت حُزنًا إذًا على رحم الرجل. أغلق عينيه، مُتعبًا. لقد عرضت أنّ طمثها بلغ أوجه فى مذبحة لأغلب حياتها الخصيبة. فكّر فى اللفيفة. لم ير أبدًا واحدة، سوى أنّه تخيّل أنّها مثل زنبرك. فكّر فى الهرج والمرج فى الرصيف البحرى عند بلانكنبيرج ، رأى آلافًا من الأطفال الذين يحبون، سمينى السيقان، أذرع ممسكة بالجوانب، يهوون فى البحر. بالنسبة إلى امرأة ما قد لا يعنى هذا الأمرُ

شيئًا، لكن لأخرى قد يعنى كُل شىء. نحن نحيا فى ظلام دامس، يجوز أننا نموت فى النور، هكذا فكّر.

"جان " كانت زوجته ترقد بملابسها كاملة فى الفراش، تمسك بمنشفة وجه صغيرة فى يديها، تبكى بصوت خفيض."هل تصدقنى ؟" .

"أصدّق "كرر، فاتحًا عينًا واحدة." هل هذا حقًا ما تحتاجينه منِى ؟" .

هزّت رأسها وربتت على جانبى عينيها. رقدت على جانبها وحملقت بثبات تتجاوزه نحو الشبابيك الفرنسية،" لابد وأنّ ثمّة شيئًا بقى من سنوات زواجنا "قالت، فدمدم مُجيبًا. لقد عنى ببساطة أنّه يصغى لها.

بعد هنيهة، هدأت أنفاسها واقشعرت وأغلقت عينيها. وسرعان ما سمع الغطيط الهادئ لآلامها المسكنة وأراحه أن عاد بمفرده مرّة أخرى.كان مُتعبًا جدًا، ولديه أمور جمّة تنتظر التفكير بشأنها، آدم ودوروثى، لوريا وآنّيمايك، جورج وبيلّ، وبرنز أيضًا، سوى أنّه كان منهوكًا.

مضى بخطوات ثقيلة ناحية الفراش وتمدد بجوارها فوق الطرف البعيد. خلع كل فردة حذاء بأصابع القدم الأخرى ورفع ركبتيه خلفها.حطّ يدًا مترددة، مبسوطة وعريضة، فوق أسفل بطنها وتحسسها.

Mijn vrouw" (*)

تحرّكت قليلا ولعقت شفتيها، ثمّ، وقد أحسّت به قريبًا. تلمست السبيل إلى يده وحطّت يدها فوق يده.

(*) زوجتى بالهولندية. (المترجم).

-٥٢-

لا جاسون ولا ميسى استطاعا النوم،رغم زجاجة نبيذ تقاسماها وزجاجة براندى كاملة لكل منهما. تمدد جاسون فوق فراشهما يقرأ مجلات تجارة مُختلفة كان قد اشتراها من الاستقبال. كانت ميسى فى الحمام، قضت فيه وقتًا وفى محاولة منه ألا يُصغى وجد انتباهه يتشتت عمّا كان يقرؤه. سمع سعالا خفيفًا مرّة أومرّتين ثمّ تدفقت من الحمام. ظهرت تفوح بعطرها وتلبس ثوبًا ليليلا قصيرًا أنيقًا بشريطى كتف رفيعين. كان شعرها مبلولاً وممشطًا بعناية، لاح كأنّه سكّر ذائب، يقطر فوق جلدها الأشبه بالفانيليا.

"أعجز عن تصوّر أنه كان من الممكن أن تكونى أنت " قال لها، رافعًا بصره عن مجلته. عكست ملامحه تفكيرًا عميقًا، وتعقلا، وقد آب عقله مباشرة من تقدير الأداء ربع السنوى للبلد. وقد راح يُمعن النظر فى بيع بعض المخزون بالتجزئة.

"كلا" قالت وهى ترتجف، ماضية نحو الدولاب تحمل ثياب النهار، تعيد طيها مرّة أخرى.

"هذا الفتى فى حاجة لقضاء بعض الوقت فى سجن أمريكى، لوسألتنى ".

"بلى".

"هذا الأمر يدفعنى للتفكير بما كان جيرى يقوله على اليخت، لن تعرف أبدًا، لن تكون بأمان أبدًا ".

"هذا الأمر يفزعنى" قالت، وهى تجلس بجانبه، مائلة نحوه واضعة كفّها فوق بطنه. آليًا،تنفس الصعداء وأحسّ بالراحة. كان سمينًا بالنسبة إلى الشاب فى عمره، وكان مُلزمًا بالمرواح إلى صالة الألعاب الرياضية واتباع حميّة بروتينات قاسية،" ومن تأمن ؟ "سألت.

سواء أرادت ردًا أولا،شعر بتقيده بإعطاء إجابة. كانا قد تزوجا منذ ثلاث سنوات،وقد تطلعت إليه. ووجد تبجيلها له مُحفزًا جدًا.

"الأمر مُعقد " قال، ووضع جانبًا ما يقرؤه ،" كما ترين، يجب أن نضخ مبالغ ضخمة من المال خلف المقود كى نعثر على الأوغاد ونقصيهم" (استهواه أن يقول انحنب حين تكلّم عن بلده، تمامًا كما استهواه أن يكون برنامج التخطيط المالى، الّذى لديه على الحاسوب مُتصلاً بنظام المساعدة الرقميّة الخاص به) " يُعامل المذنبون بدرجة ما من الإقناع، ربما أكثر من أية دولة أخرى، لدينا قائمون فى السجون على كل فرد أكثر من أية دولة أخرى، حسب ظّنى، عدا روسيا. سوى أنّه لا يجب أن نُثقل على مصادرنا. الضرائب، كما ترين يا عزيزتى ـ نحن فى موقف صعب ـ عالقين

بين حرية الاقتصاد والحاجة إلى تأمين مجتمعنا. طبعًا، الحريّة الفرديّة هى القيمة الأعلى"رمق نفسه فى المرآة الآن وهو ينهض ورأى صرامة ذقنه، وهيئة وجهه النحيل ـ كان مُقتنعًا ومُقنعًا."مع ذلك ثمّة البعض ممن لا يستحقون تقاسم تلك الحرية ويجب أن نُقصيهم. إنّه تناقض يا حبيبتى. حريتنا تعتمد على نفى حرية الآخرين ".

أغلقت ميسى عينيها هنيهة وتنهدت." أعى ذلك " قالت وكأن عبء هذا كله قد يقع على كاهلهما بالتحديد ،" لكن الحريّة محضُ سقط متاع،أليس كذلك ؟ لا غرو أنّنا جميعًا بالغو الإحباط ".

"ماذا تعنين؟" قال، ناهضًا ليجلب لنفسه شرابًا وبعض الجوز من البار الصغير. رأى قطع الشيكولاتة هناك وركّز على واحدة، مقسومة، لن تضر. صبّ كريمة أيرلنديّة والتقط قطعة شيكولاتة سنيكرز.

"حسنًا، كنتُ أُفكر اليوم بشأن زوج المرأة. إنّه يحتضر. وحين يموت، سيمضى،صحيح ؟ أخمّن أنّها ستفكّر بهذه الرحلة. أعنى، إرثه، أو بأى مِنا، محضّ لا شىء، أليس كذلك؟ يمكنها أن تعطى ممتلكاته، مجوهرات، ساعات، ملابس حسب تخمينى، للأبناء إن كان لديهما أبناء، لكن يبقى أنّه مات، راح. أنت تعلم سلوك الأطفال. لقد فقدتُ خاتم زواج أمّى. الأشياء القليلة، التى ستتبقى منه ستظل فى ذاكرتهم، وذاكرتها وذاكرة الأسرة. وهى ليست حقيقة، الناس

تشوش. لذا لِما نُعلِّق مثل هذه الآمال الكبيرة على الفرص الاقتصادية المُستقلة إن كانت لا تدوم...".

فرغت من الكلام.

"كي نحصل على حريتنا يا ميسى! كي نختار الطريقة التي نمارس بها حياتنا".

عبست، وقد بدا عليها الإعياء وكأنها تعاني المغص.

"لا أعلم ما يعنيه هذا تحديدًا " قالت.

"كنتِ تعريفين لوكنتِ لم تحصلي عليها! تلك هي المشكلة. أنت سعيدة أنّك لا تعيشين في الصين، ألستُ مُحقًّا ".

"بلى يقينًا ـ أحسبُ أنّي مصدومة جدًا فحسب جراء هذا الأمر. العنف. ماذا لوكان قد قتلها ؟".

النساء عاطفيات، الرجال عمليون، سرّه أن صار هذا الأمرُ مقبولاً قوله الآن بقدرٍ ما. كانا قد قرءا الرجال من المريخ..." ووجداها بالغة النفع. كانا قد ابتاعاها لوالديهما، رأس السنة الماضيّة، كمزحة، نوعًا ما. أنبغى عليه،وقد فعل، أن يُعلل ما قالته كرد فعل عاطفية على أحداث اليوم. كانت حساسة، ليست على نحو متباه ،فليست مولعة بالفنون، فقط هي أنثى.

"اقتربي" قال، ماضيًا إلى حيث جلست على طرف الفراش. أحاطها بذراعيه واحتضنها." تعلمين يا ميسى" قال، جالسًا إلى جوارها،" كنتُ سأقتل الرجل الّذي يهمُّ بالاقتراب منك ليفعل شيئًا مماثلا بك. لن

يحدث هذا الأمر أبدًا، لن أسمح بذلك. يُغضبنى حدّ الجنون أنّ هذا الحادث جرى هنا، أثناء إجازتنا. حدّ الجنون أن تُضطرى لمكابدة هذا. هذا المنتجع كاملا خيبة أمل كبيرة. فى العام القادم سنذهب إلى بلدة أبى فى ساحل النخيل الغربى".

لم تمانع أن تكون طفلة، وصوّبت عينين داكنتين جادتين إليه،" سنظل دائمًا معًا، أليس كذلك ؟ لا شىء يمكنه أخذك منى أبدًا. وستحبنى طوال العمر ".

ضمّ وجهها إلى كتفه ونظر من فوقها إلى قطعة شيكولاتة سنيكرز، التى أكل نصفها، الموضوعة فوق التليفزيون. يجب أن يُلقى بها إلى سلة الفضلات.

-٥٣-

هاتف جورج جان فى السابعة وطلب منه اللقاء على الفطور بالخارج عند المسبح. حين وصل جان، مُغادرًا آنّيمايك التى لا تزال نائمة فى الحجرة، رأى أنّ جورج قد لبس بنطلونا طويلا وقميصًا مربعات، يناقض عادته فى لبس سراويل قصيرة واسعة وخفاقة وقمصان مبهجة. كان جالسًا أمام كوب ملؤه شاى، ساكنًا، ورأسه متجهًا صوب الأفق.

"لا أستطعمها كثيرًا" قال، حين طلب جان بعض القهوة ليوقظ نفسه بها." أنا وسيط هذا الصباح "، ونحى كوب الشاى جانبًا.

أمال جان رأسه."أنت ؟".

"طلب منى آدم الكلام معك ".

"أوه " كانت القهوة مُرّة، لذا حين نزلت فى معدة جان جعلتها تنقبض.كان قد تناول جرعته المُعتادة من المورفين، وشرعت آلام أسفل الظهر بالتقلّص، لكن لسبب ما كانت معدته حساسة بشكل غريب اليوم.

"لندخل فى الموضوع مباشرة، أريد أن أخبرك بهذا" ومال جورج للأمام وخلع نظارته. كانت ندرة

الألوان حول عينيه صادمة، وكأنّ الكوبين أزيلا من السطح المصقول، وكذلك المعطف الفوقانى،" أعتقد أنّ ما فعله كان خطأً، لا يهم ما كانت أسبابه. شىء بشع ولم أعد أعتبره صديقًا، فى الحقيقة لم يعد لدىّ مزيد أفعله بشأنه وقد كاشفته بهذا الليلة الماضية حين طلب منى المضى إلى حيث يوجد كمسألة مُلحة. لقد طلبت من بيلّ أن يُقلنى لهناك، كنتُ مُضطرًا لاصطحاب زوجتى أو، أنت تعرف. سوى أنّى لم أتشارك معهما الأمر. قُلت لبيلّ، بشكل مباشر، هل تسدينى معروفًا دون أسئلة وقد ردّ بنعم ".

كانت القهوة قد أنجزت أسوأ ما لديها، كان فمّ جان ناشفًا، وقبل ذلك صار طعم لسانه كأنه ظهر طابع بوستة. شرب رشفة ماء،" أرجوك أخبرنى بما لديك" قال.

"تكلمت معه، على انفراد فى السابعة مساءً " قال جورج مُخفضًا عينيه كأنّه يقرأ من مُفكرة،" أخبرنى، وتلك كلماته يا بنى، أنّ مدام دى جروت طلبت منه أن ينام معها، وعرضت عليه مائة وخمسين دولارًا أمريكيًا، ليفعل هذا ".

ابتلع جورج ريقه وجذب نفسًا عميقًا. استبدل نظارته ورمق جان الّذى لم ينطق بحرف.

"أعلم يا رجل، أعلم " قال جورج، وهو يمدّ يده الآن للشاى وارتشفه بصوت عال. ندت عنه آهة عجلى وتابع،" لا يبدو الكلام معقولاً، ولا حرف فيه. لكنه يقول إنّه لم يجبرها أبدًا، كانت ما يسمونه حفلاً

مُتفقًا عليه، حسب كلامه" وأشاح جورج بنظره إلى الجانب الآخر.

شحب جان.

"لم أرغب بالمجيء ونقل هذا الكلام لك، وقد أخبرته، أنّه مُخطئ حتى ولو كان كلامه صحيحًا، لطالما كنتُ إلى جانب الحقّ لكن هل هذا صائب؟" هزّ جورج رأسه، وعيناه لا تزالان تتحاشيانه.

"الحقيقة مهمة " قال جان.

"لا أدرى " تابع جورج.

"بالنسبة إليك، أعلم ذلك. وبالنسبة إلىَّ أيضًا".

هزّ جورج رأسه.

"سأساند زوجتى يا جورج، لا يهم حقيقة ما جرى".

"رأى صائب ".

نهض جان كى يعود إلى الحجرة،" الأمر سخيف حقًا يا جورج ؛ فكل الأمور تبدو متوقفة عليه، بالنسبة إلى آنّيمايك وبالنسبة لى، وللأسرة ".

"أعتذر عن نقل هذا الهراء إليك يا جان. لقد طُلِب منى وهذا ما فعلته. أنا إلى جانبك. ما فعله كان خاطئًا حتى لوكان ما يقوله صحيح. لدى ميل شديد أن أنتزع عنقه بنفسى؛ لأنّه جعل رجلا مهذبًا مثلك يكابد هذا " كان جورج يتطلع إليه بعينين محمرتين.

"لا" اعترض جان، واضعًا يدًا فوق كتفه، مُلقيًا بظل فوقه،"كلا يا صديقى، لا يزعجنك هذا".

ـ ٥٤ ـ

كانت دوروثى تنتظر جورج فى الحجرة، لديها أمر عليها أن تخبره به. فكّرت فى كتابته، فالآن، وقد حضرها عليها أن تدونه وتضعه بمكانٍ ما تحسبًا لأى طارئ، سوى أنّها عجزت عن التفكير أين تضعه، وتمنّت لو عجّل بالعودة.

حين سمعت الباب ينفتح، كانت جاهزة لتخبره، لكنه تكلّم أولا.

"كل هذا فوضى عارمة يا عزيزتى، ليس لدّى ما يمنع من مصارحتك، أشعر بالحقارة، مُحطمًا تمامًا؛ لاضطرارى التفوّه بما استلزم علىّ قوله لرجل مثل جان. حسنًا، ما كنتِ لترتجى هذا لأسوأ أعدائك".

وهكذا، نسيت ما اعتزمت أن تقوله له سوى أنّها قالت لنفسها، لا يمكن أن يكون بمثل تلك الدرجة من الأهمية ما دمت قد نسيتيه، سوى أنّ تلك الفكرة التى طالما أشعرتها بالارتياح صارت الآن خاوية مثل كذبة وشعرت بقلبها متوجعًا كأنّه تعرّض للتجريف؛ لأنّه كان من الممكن أن تكون قد نسيت فى الحقيقة أمرًا حيويًا، أمر بدونه لن يتمكنا من البقاء أحياء، لكن على أية حال تجهزا لتمشيتهما المعتادة على الشاطئ.

شاهدا سباحًا وحيدًا، يشق طريقه بضربات واسعة قويّة عائدًا إلى الساحل، وحين قاربهما راح يلوح لهما.

"منْ هذا يا حبيبتى؟" سألها جورج، وضيَّق عينيه، كان بحاجة لفحص نظارته حين يعود للوطن، فإبصاره كان يسوء.

"إنّه بيلّ " قالت .

"مرحى" قال جورج، يربت على يديها، ووقفا ثابتين .

خرج بيلّ من الماء بخطوات مترنحة، متمايلاً بسبب المدّ الشديد هذا الصباح .

"هذا المدّ الآن يستنزف طاقة المرء" قال لاهثًا. مال للأمام واضعًا يديه فوق ركبيه، يلتقط أنفاسه،"متى ترحلان ؟".

"بعد غد، باكر ".

أومأ بيلّ،" سأعود غدًا لذا فكّرت أن أستفيد بأقصى ما يمكن من هذا اليوم. سأرحل إلى أيرلندا لرؤية بعض الأصدقاء، ربما لشهر أواثنين. بالنظر أنّه سيكون الصيف تقريبًا فلابد وأنّه سيكون قارس البرودة ".

"هذا ما أفتقده رغم ذلك، قرسة برد طيبة فى الهواء، أتوق لهذا "قال جورج .

"هل تمانع لوجلسنا ؟ أنا قاطع النفس ".

"سننضم إليك" قال جورج واتجه ثلاثتهم نحو قطعة ضخمة من الخشب ترقد بعيدًا عند مؤخرة

الشاطئ. ساعد جورج دوروثى على اتخاذ وضعية الجلوس قبل أن يُخفض نفسه.أصدر الغُصن صريرًا ولفّ قليلا لكن ثلاثتهم تدبر القعود فوقه، متقلقلين فى البداية، وقد انشدت عضلات ربلة الساق لدى الرجلين، وراحوا يرمقون البحر.

"سيكون لطيفًا بالنسبة إليك أن تعود للوطن" قالت دوروثى، فمال بيلّ ناحيتها وابتسم لها.

"صحيح".

"الآن الوطن هوما أطلق عليه الجنّة.لا هنا. يستهوينى ما أعرفه" قال جورج،" يمكنك الحصول على مثل هذا القدر الهائل من الشمس والتمتع بالبحر. طقس جميل طوال الوقت، إنّه استشفاء. ما أتطلع إليه هوالريح، المطر. دائمًا حافل، الطقس فى الوطن، دائمًا ضدك، يدفعك، يضايقك. مثل زوجة ـ قد لا يستهويك لكن تحتاجه.لا تشعر بمثل هذا الدفء بأنّك فى بيتك، هنا، ألا تتفق معى ؟".

حدقوا بالبحر، يُزبد فوق الرمال، شاطئ نظيف، يقوم عليه المنتجع، وسماء مثالية، ببعض السحابات القليلة كأنها عُرف بعض الخيول الصغيرة وهى تخبّ.

"العائلة، الدفء، الطعام الطيب، الفراش النظيف.كعكة خرجت للتو من الفرن، ربما حتى لعب الورق أوالسكرابل. ليس الشاى المذاق نفسه هنا.إنّه الماء، واللبن. والشاى".

"ما يستهوينى فى الليل هوالسكون الإنجليزى، ما من صراصير ليل لعينة، محضُ جلبة صرير البيت

قليلاً حتى الصباح ثم يحوطك التغريد القادم من الخارج ".

"لطالما أقدر على سماع عصفورنا أبى الحناء العجوز، ألا تتفق معى يا جورج ؟ أستطيع أن أفطن إليه حين نكون لا نزال فى فراشنا نشرب كوبنا الأول".

"بلى، لديك آذان مرهفة يا بطّة ".

"أحبُّ أن أصغى للطيور، وأسمع أخبارهم " تبسمت دوروثى.

"لطالما أنهض مبكرًا" تابع جورج،" أترى، يستهوينى حقًا النهوض حوالى الخامسة، وأنسل إلى الطابق السفلى فى هدأة الفجر، وصباح جديد علىّ يبدأ. أجلس برفقة كوب الشاى الفخارى عند الشباك الأمامى أنتظر سريان الحياة. هذا هوفردوسك، هناك. تعرف أنّك تحوز هذا حقًا. تزودت بعائلة، وشغل، منجزًا الشىء اللائق، تقدر على رؤية هذا حين تصحو مبكرًا ".

"أوه. بلى " وافقته دوروثى،"هذا هو الأمر الأهم".

"حسنًا، بالنسبة لى، الأمر الأهم هو رفقة طيبة " قال بيلّ،" لقد تعودت أنا وجيرى أن نكون برفقة الصُحف، مشغولين، كما لو كانت عالمنا، نقرأ هذا وذاك فى أمريكا أو أوروبا. وقت ثمين. مع أنّى لم أكن أعلم ذلك آنئذٍ".

راحوا فى سُكات، قد جلسوا على الشاطئ الكاريبى، كل منهم يفكر فى سفره.

"من اللطيف أن تجد منْ تتكلم معه. سأفتقدك أنت وجان" قال جورج .

رمقه بيلّ."وكذلك أنا " قال .

"والسيدات "أردف جورج .

"لن نفتقد آنّيمايك تلك، مع ذلك" قالت دوروثى، ترسم تعبيرًا على وجهها.

رفع جورج حاجبيه وتمتم."ثرثارة " .

"إنّها كتومة " ضحك بيلّ .

"شريرة الكلمة" تابعت دوروثى،" سأتكلم كيفما اتفق، زوجها فى أيامها الأخيرة وهى تعرج باحثة عن سبيل آخر" بدت لوهلة غير متيقنة من مصطلحاتها لكنها تابعت،" لِما عجزت عن التمهل " .

تورّد بيلّ ."ماذا جرى لكل هذا ؟" سأل .

تنهد جورج." ليس من حقنا فى الواقع الكلام، لكن وقد رأيت منحى زوجتى وإفشاءها السرّ" بدّل وضعية ساقيه."اتهمت السيدة دى جروت آدم بأنه اغتصبها. وهو يقول، من جانبه، إنّها أرادت الدفع له مقابل المضاجعة. الأمر الجوهرى أنّ جان عليه إمعان التفكير ما إذا كان سيلاحقه قضائيًا أم لا وحتى الآن لم يقل إنّه سيفعل. وقد طلب منى آدم أن أنقل روايته لجان هذا الصباح وهذا ما فعلته، علىّ أن أخبرك ضد إرادتى " .

"ليرحمنا الله" قال بيلّ.

أومأت دوروثى بابتسامة رائقة على وجهها، تضع ساقيها فوق بعضهما عند الكاحل.

"ماذا على الرجل المسكين أن يفعل ؟" سأل جورج، وهو يخلع نظارته ويمسحهما فى قميصه.

"إذًا أين الحقيقة فى هذا الكلام ؟" سأل بيلّ.وهزّ جورج كتفيه .

"إنّها امرأة خبيثة " قالت دوروثى،" ذئبة " .

"لا أدرى" قال جورج،" أنا بالكاد أعرف السيدة. فى العادة، تجرى القواعد على التسليم بكلمة السيدة، ألا تتفق معى ؟ ما كان جان يقول لى ما عرفه، إن كان قد عرف شيئًا. لقد قال إنّه سيقف بجانب امرأته، طبعًا " .

"لكن آدم ؟ يجوز أنّه سكير بعض الشىء، لكنه يبدو شابًا مهذبًا..." .

"حسنًا، إنّه لا ينكر أنّه نام معها وهذا يؤذينى، تخيّل عمل هذا بجان" قال جورج ." لقد قلت له الليلة الفائتة، قلت، فيما كنت تفكر ؟ وهل كنت تفكر من الأساس ؟ إنّه يقول إنّه كان بحاجة للنقود. أنا صريح مع الفتى، أقول لك" تلون جورج سريعًا ومسح نظارته مرّة أخرى، مُخفضًا بصره ناحية أطراف قميصه.وقد لاح أن وجهه السفلى انزلق كم بوصة.

لم ينطق بيلّ بكلمة .

"ماذا تعتقد ؟ أنت مسيحى متدين . ما الشىء الصائب عمله ؟" .

"أخ، المسيحيون هم أسوأ من يعلم ما يجب عمله" قال بيلّ:

"أحسب هذا، لكنك تعرف الكتاب المقدس، أليس كذلك ؟".

"بعض الشيء " قال بيلّ.

"طيب، يجب أن تنصحنا، فأنت أفضل منى على أية حال. ما الشيء الصائب ؟".

"أخ، رباه يا رجل، أنا أجهل المتبع هنا" قال بيلّ ناهضًا،" تعوزونى الخبرة، أفضل لى أن أمضى وأضع بعض الملابس علىّ، سأراكما فيما بعد. أتمنى لكما صباحًا طيبًا، بوقتكما الحاضر ".

قعد العجوزان يراقبان بيلّ يغيب، بخطوات مترنحة بسبب الرمال العميقة عند مؤخرة الشاطئ، يشق طريقه ناحية الدَّرَج الخراسانى، وارتقى بنفسه، خطوة بخطوة، حتى التقط منشفة من فوق الحامل عند القمة، ولفها حول خصره ثمّ غادر فى عجالة.

"لقد حافظ على هدوء أعصابه، أليس كذلك؟ " قال جورج متأملا،"هل تظنين أنّه كان منزعجًا معى؟".

"ممم" غمغمت دوروثى ثمّ ندت عنها صرخة خفيفة مفاجأة والتفتت ناحيته. رمقها، منزعجًا.

"أنت على ما يرام ؟".

" تذكرت فقط ما كنت أعتزم قوله لك" قالت دوروثى، مُقتربة من يده." جورج؟ أعلم أنّ خطبًا ما بى، يا جورج، وأنت تعرف ما هو، أليس كذلك ؟".

عبس جورج،" دعينا من هذا الكلام الآن، اتركيه لحين عودتنا إلى الوطن ".

"بل يجب أن أتكلم بشأنه حين أقدر يا جورج، فربما أنساه بدلا من ذلك.أردت تفسيراً ما" لأن جورج وأومأ، ناظرًا إلى عينيها الآن.

"كما ترى، يبدوالأمر كأنى أتخبط فى الظلام يا جورج، أعجز عن ترتيب أفكارى، ولا أستطيع تذكر أشياء.أشعر بسُكات يسكننى، وكأنى سأصاب بالصمم. أنت تعلم حين تكون طفلا تبدأ بتمييز الحروف تدريجيًا ثمّ تستطيع قراءة إشارات، ثمّ كلمات وجُمل. حسنًا، كأنى أمارس هذا بشكل ارتجاعى. كأنك ترتب شيئًا، أو تعيد أموالك إلى محفظتك، قطعة نقدية تلو الأخرى، فقط الأشياء تبدو وكأنّك تعجز عن اختيار ما تفعله بها. أشعر كمن يعيد حشر الملاحظات الكبيرة مرّة أخرى، بسرعة كبيرة ...".

اعتصر كفها." أعلم يا عزيزتى، أعتزم زيارة الطبيب ليعطيك شيئًا حين نعود إلى الوطن ".

"لا أظنه سيفيدنى كثيرًا يا جورج. أقول لنفسى، أنا مذعورة قليلاً لكنى سأكون بخير. لقد عشت حياة طيبة ...".

اعتصر جورج يدها أكثر ."لا. لا. لا تشرعى بقول هذا الهراء يا دوروثى، لا أطيق هذا ".

"إنّها لا تؤلم يا جورج، بل هى لطيفة على نحوٍ ما، الظلمة.لا أبالى بها. تبدو وكأنها فترة راحة ".

"حسنًا، لابد أن تبالى بها، لابد أن تستجمعى نفسك".

كانت هادئة، ونظرت إلى البحر.

"إنّه مشهد بديع.لن نرى شيئًا كهذا مرّة أخرى ".

"لا".

"إنّه أنت من أقلق بشأنه".

"حسنًا، ركزى فى نفسك، ستفعلين ؟ إنّه أنت من يُقلقنى ".

"سيكون علينا أن نودع بعضنا يومًا ".

"سنفعل يا عزيزتى، سوى أنّى لن أفعل هذا كل يوم لعين. لا يمكنك أن تطلبى منى هذا. والآن، أعتزم الذهاب إلى بوفيه الفطور ذاك، ونستغله أثناء وجودنا هنا، قال، ناهضًا بارتباك." تعالى يا عزيزتى "مدّ لها يدًا ليشدها وأصدر كل منهما أنينًا وصافحا بعضهما.

"إننا زوجان صالحان، أليس كذلك؟" قالت، وهى تقبل ذراعه،" وقد تعودنا على التزلج على الجليد أيضًا! ".

"بمناسبة واحدة، بلى فعلنا " قال. وحين بلغا سفح الدَّرَج أستغرق هنيهة لينظر للوراء حيث البحر، مستجمعًا القوة منه وزوجته تميل عليه، بدأ يرتقى الدَّرَج.

-٥٥-

لم يكن برنز مُتأكدًا أين تكمن الفرصة فى هذه المُعضلة. جلس إلى حاسوبه ومحا المُذكرة التى كتبها بهذا الخصوص كاملة. كانت أمّه قد أصغت إليه متعاطفة ومنحته أفكارها البسيطة.

"يُقال إن الثالثة ثابتة...".

سأل نفسه، بصوت عالٍ، مثل ممثل طموح. "ما هو حافزى هنا ؟ "هل أراد رؤية آدم بمأزق؟ ليس تحديدًا، بالنظر لكونه كان أحد موظفيه. هل أراد فضح المرأة الهولنديّة ؟ ليس تحديدًا، أراد فحسب رؤيتها ترحل. وشعر ببعض الأسف من أجل زوجها المسكين، الّذى يُفترض أنّه بسبيله للموت. لقد تحمّل الرجل ملماته ومحنه جيدًا. لوكان مكانه، إذًا لجنّ جنونه.(طرأ على باله إعلان تجارى لسيارة...) ما من عائد ينتظره على الجانبين. فكّر فى أنّه يستطيع عمل الصواب، سوى أنّ القيم والأخلاق كانت مُتقلبة، لهم رواج متعلق بهم. كعادته، كان ممزقًا بين المبادئ المتحفظة لأمه والخِفّة الماكرة لأبيه ؛ ليبدى استعدادًا بعرض خدماته ما يسبب له لاحقًا إحساسًا بالاستياء، أوأن يكون صديقًا للجميع. كان والده مدينًا وكانت أمّه

دائنـة. ابتـاع أحدهم شـرابًـا لـوالـده فـى بـار عـام، من جانبه ليصر على دفع ثمنه وربما قصد هذا. لكنه لم يفعل.

افـتـرض أن الـصـداقـة تـسـتـحق، وقـد عـلم أنّه شخص طيب. يجوز أنّه أفضل للجميع لو أنّ المرء كان دون دوجما.

كره جاسون اللعين، رغم ذلك. وخزة. كان ينهى كل هذا، يقينًا. رسائل ومكالمات هاتفيّة لمارك كوهين. كان من النوعيّة التى ترسل رسائل البريد الإلكترونى بحروف كبيرة. كان ينبئه مدى عجز مديره، أولاً فشل فى استعادة الفرخة العجوز المجنونة التى هامت تتجول، ثم سمح لأحد الموظفين الهيبين أن يلمس زوجته، وحين أُتهم نفس الرجل فى اليوم التالى باغتصاب نزيلة، ها هو يجلس يطرقع أصابعه. طبعًا، لتبدأ الرسائل بتذكير بصداقتهما. ما المرادف الأمريكى لكلمة "mate" "Buddy" أهلا يا رفيق، هل لديك مشكلة هناك...".

عليه أن يحمى نفسه، هذا هو أول أمر عليه أن يفعله. ليستدعى هذا الرجل البائس دى جروت، ويستكشف آخر الأخبار، ويصر على الملاحقة القضائية، إذًا لصار بهيئة طيبة أمام جاسون ورفيقه. ليرسل بريدًا إلكترونيًا إلى كوهين، وقبل كل شىء، يخبره عن رفقته لصديقه الشخصى، وأنّه واجه موقفًا وقد تعامل معه بحزم.

ليبلغ الشرطة. يُسرح بعض العمالة. أوالاثنان معًا ويلقى بيانًا على النزلاء. لن يكنس هذا الأمر تحت السجادة. ليقول، يجوز أن ينهى اللقاء بقوله،" لن أسمح لأى عنف فى هذا الفندق أن يمر دون عقاب. لابد أن يواجه المغتصب أقصى العواقب الوخيمة، التى يسمح بها القانون ".

هاتف حجرة آل دى جروت وتكلم مع جان، وطلب منه أن ينزل إلى مكتبه فى أول مناسبة، وقال إنّه يأمل أن تكون الزوجة قد شعرت بتحسن.

ثمّة دقّ فوق الباب الّذى انفتح قليلاً، وأطل الأيرلندى المُتعرق برأسه إلى داخل الحجرة.

"كلمة، إن لم تمانع" قال، وقد بدت عليه العصبية.

-٥٦-

لم تكن آنّيمايك لتنظر إلى جان حين قفل راجعًا إلى الحجرة. كان قد أحضر لها كرواسون ولفيفة خبز، صدّته، وطلبت منه أن يُعيد إرخاء الستائر. كانت تبكى، فى سُكات، ليعرف من حركات جسدها. عرف السبب. ليس "الاغتصاب" وعدم مساندته لها. حسب أنّه الخزى، وثمّة شىء آخر. هو كان جزءًا من كل هذا الانفعال على جانبها. لقد جعله هذا يشعر بحنان أكبر تجاهها أكثر من ذى قبل. جلس على طرف فراشها ولم يقل شيئًا. عقب بعض الوقت رنّ الهاتف ومضى يجيب.

"مؤكد سأفعل" كان كل ما قاله، ثمّ أردف،" رائع".

مضى يضع يده فوق كتفها لكن بدلا من ذلك وضع يديه الاثنتين فى جيبه ووقف بجوار الفراش.

"برنز يريد أن يرانى. ويسأل عن صحتك. سيرغب فى معرفة ما ننوى عمله ".

لم تقل شيئًا لكنها نهضت، تطرف. ابتلع ريقه بصعوبة؛ لأن فمه كان جافًا جدًا.

"هل آذاك هذا الشاب ؟ هل ثمّة خطب ما بك ؟".

هزّت رأسها نفيًا، فاندفع خارجًا من الباب.

حين جاء إلى صالة الاستقبال، رأى بيلّ يخرج من مكتب برنز. رفع يده ليحييه وأدهشه أن تظاهر بيلّ بأنه لا يراه ومضى بحذائه الرياضي يطقطق فوق بلاط الأرضية ليغيب من خلال الأبواب المزدوجة.

ـ ٥٧ ـ

وقف جان أمام مكتب برنز الّذى كان مشغولاً وفمه مُطبق، بدا شاحبًا وممتقعًا. سعل كرجل مريض ثمّ تجشأ.

"خُذ مقعدًا يا سيد دى جروت " قال برنز، وهو يستعمل الفأرة ليغلق حاسوبه دون أن ينظر إلى جان.

"زوجتى وأنا، أظننا سنلاحق الرجل قضائيًا " قال جان.

"أظننا فى حاجة لرشفة أخرى من الويسكى اليوم يا سيد دى جروت ".

"كلا، شكرًا لك " أجاب جان.

أغلق برنز الدرج.

"لوكنت ترجو ملاحقة آدم واطس قضائيًا، فعليك إذًا أن تفعل ذلك على مسئوليتك الشخصية عند مخفر الشرطة المحلى ".

أُسقط فى يدّ جان. "لأفضل أن تطلب أنت من الشرطة المجىء هنا لتأخذ إفادتنا، إن لم تمانع ".

"حسنًا، أخشى أنّى بالأحرى لا أريد أن أورط المنتجع فى تلك المسألة ".

"لا تقل هراءً، لقد حدث التعدى فى دائرة مسئوليتك، واقترفه أحد موظفيك "حاول جان أن يبتلع ريقه.

"هل ترغب بكوب من الماء ؟".

"شكرًا".

مضى برنز نحو مُبرد الماء. فكّر، رجل مسكين، فى انتظار امتلاء الكوب. مشى بتؤدة عائدًا إلى المكتب. كان قد خلع حذاءه ومشى حافيًا. أعطى جان الكوب وجثم فوق ركن المكتب بالقرب منه.

"انظر، لن أعمد لإخفاء الحقيقة يا سيد دى جروت (جفل عند اللفتة غير الملائمة لعبارته) سأقصد غايتى مباشرة. ثمّة روايتان، وكلتاهما يُقر بوقوع الزنا ".

أومأ جان وأكمل البلع الذى كان يراوغه طوال الصباح. جرعة الليل من المورفين كانت تنشّف ريقه.

"إحدى الروايتان تنكر أنّه جرى بالتراضى. رواية زوجتك، لكن ما من شهود. بوضوح. لدىّ سبب لأعتقد، حسنًا، أنّ زوجتك قد لا تكون صادقة، وأفضل ألا يتورط المنتجع؛ لأنى لا أظن أننا سنستطيع دعم جانبها من القصة".

"عمّا تتكلم ؟".

"مزيد من الماء ؟".

"كلا".

رأى برنز أنّ الحواف الجُوانيّة لعينى جان كانت محمرة، وبدت متقرحة. جلده مصفر وناشف على

وجهه، فقط بياض شعيراته المجعدة فوق ذراعه ما أشار أنّ روحًا فيه. كان بهى الطلعة مرّة، بشكل صورى.

"أسمح لى أن أطلعك على الحقيقة. نزيل آخر هنا، ضيف، جاء إلىّ هذا الصباح وأفصح لى أنّه سبق ونام مع مدام دى جروت فى المنتجع، مؤخرًا ".

"لكن هذا ليس حقيقيًا ".

عاد برنز يجلس فى كرسيه ورفع حاجبيه مندهشًا" طيب، أعجز عن فهم لّما يختلق شخص مثل هذا الأمر. إنه تشويه لسمعة زوجتك.. يمكنك رؤية ذلك، ألست معى ؟".

"افتراء لحماية الشاب ".

"لا أظن هذا ".

"ماذا تعنى بأنك لا تظن هذا ؟ عملك يقتضى حماية نزلائك، وليس الحكم ما الحقيقى وما هو الزائف ".

"أصغ يا سيد دى جروت" مال برنز للأمام، يقحم يديه بين ركبتيه، مُسلطًا عينيه على عينى الرجل،" سيكون من الأفضل كثيرًا لك ولزوجتك لو تجاهلتما الأمر ".

"زوجتى لا ترغب بتجاهل الأمر "عضّ جان قليلا على شفتيه.

"سبحان الله يا رجل، من أنت لتحكم علىّ، لتحكم

علينا، لتنظر إلينا وتقول، هذه المرأة كاذبة وزوجها، مغفل ؟".

رأى برنز أن عينى الرجل كانتا تنتفخان، وأن بؤبؤيه يخبوان وراء سطح دامع ثقيل.

"رأيت الطريقة التى كانت ترقص بها مع آدم ليلة السبت " قال.

رمقه جان." إنها فى إجازة. وقد ترقص! ".

"ليس هذا ما عنيته ".

"أنا أطلب منك مساندتنا" قال جان. كانت دفقة مباغتة من الدموع إلى عينيه قد راحت تكلفه كثيراً، حلقه مجروح وناشف. سعل وآذى نفسه.

"كنت أعتزم الاتصال بالشرطة، سوى أن الشخص الوحيد المستقل عن الطرفين والّذى يمكنه إضافة أى شىء كان الرجل الّذى أفصح لى أنّه أيضاً نام معها هنا. تعلم ما ستقوله الشرطة، سيقولون إنّها مسألة شخصية غريبة الأطوار، حتى هنا، من أجل المسيح" أصرّ برنز، وهو ينهض عائداً إلى مقعده." لا أدرى حقيقة ما جرى بينهما، وكيف لى أن أعرف ؟ يجوز ثمّة منطقة وسط بين روايتيهما. أصغ، أنا حتى لا أحب الشاب...".

"لقد حكمت علينا".

"لا" قال برنز وصوته يعلو، "لست أنت. بل ما جرى فحسب. أتمنى لولم يكن هذا من شأنى ".

"ماذا سأفعل؟" وقف جان وغطى وجهه بيديه برهة، كان الظلام مريحًا جدًا. وحين رفع يديه أحسّ

بصفعة الهواء على وجهه من مروحة السقف والنور من النافذة وراء برنز، كلاهما كان بالغ الجفاف شديد الإضاءة.

"عليك أن تخفف عنها، يجب أن تجهزا حالكما من أجل العودة للديار ".

"الديار ؟" مشى جان ناحية الباب يهزّ رأسه. لو أنّ ثمة ديارًا يمكن العودة إليها، فهذا كفيل بإنهاء ما تبقى. دار على عقبيه وهو يفتح الباب، وسمع الصوت الرخيم المنبعث من حاسوب برنز وقد شرع بالعمل مجددًا.

"كنتُ شابًا مثلك مرّة، وفكّرت فقط حسب مقتضيات عملى. لا ترى حقًا ما الآخرين عليه حين تكون شابًا، لست متزوجًا، وليس لديك أطفال. الأمر برمته نظرى. سوى أن الأمور تتبدل ".

وقف برنز مستقيمًا وفتح راحتى كفيه." أنا آسف يا سيد دى جروت، تشرفت..." .

"لا، لم تتشرف. ليس فى الواقع ".

-٥٨-

تلك الليلة اقترح جان أن يخرجا من المنتجع، يستأجران سيارة أو يستقلان الباص ليلقيا نظرة حول البلدة الرئيسية. جلس بالقرب من الشرفة يتصفح مجموعة الفندق من الكراسات الدعائية، صانعًا حلقات حول أشياء بالقلم الرصاص، مستعدًا لإجراء مكالمة.

"لا أريد المشى عبر رواق الاستقبال والجميع يرمقوننى ويتهامسون ".

"لا" وأغلق المُجلّد.

"وماذا لواصطدمنا به؟".

"لقد طُرِد. سيعتنى برنز بهذا الأمر ".

"سأبقى فى الحجرة الأيام القليلة القادمة فى عطلتنا الأخيرة معًا. ليس لدىّ ما يمنع ".

"تعرفين.لقد طلبت منه رفع دعوى قضائية نيابة عنك يا آنّيمايك، ونصيحته البالغة الجديّة هوألا نفعل ذلك ".

"لما ؟ لِما هى نصيحته الجدية ؟".

"لأنّه فقط، ليكون جارحًا بالنسبة لك، من

العسير الفوز بها" قال جان بوهن، وهو يخطو خارجًا إلى الشرفة. هنا، نهضت من الفراش وتبعته إلى الخارج. رمقت سريعًا عبره مشهد المروج والأزهار ثمّ رجعت مرّة أخرى.

"إنّه لا يستلطفنى. ألا ترى أنّه لوكانت زوجة جاسون مكانى لتبدلت الأحوال كثيرًا ؟".

"حسنًا، ربما ما كانت لتكون فى هذا الموقف يا آنّيمايك" قال، وظهره يستند إلى الدرابزين، يواجهها. قوّس ظهره، يؤلمه هذا عند قاعدة عموده الفقارى، حين تنفس لاح وكأنه يلتقط أنفاسه متوجعًا.

تدفقت دموع عبر عينيها وكبست شفتيها معًا، مستجمعة نفسها برهة قبل أن تقول،" أعلم أنّنا سنبلغ هذا. لطالما أوليتنى هامشًا ضئيلا من تفكيرك. لطالما نظرت لى كأكثر قليلا من فاجرة لا يمكن الوثوق بها ولا ينبغى منحها أى احترام. أتعلم، كانت أمى مجروحة حين جئت بك إلى البيت. تعرف ما تعودت أن تقوله لى حين ناديت عليها هاتفة، قالت، "المرّة القادمة، تزوجى من بشخص من طبقتك نفسها" وقلت، «لن تكون هناك مرّة قادمة، علىّ إنجاز هذا العمل» وقالت لى، "إذًا حبًا لله ليكن لك علاقات، اعثرى على رجل يمكنه إسعادك، أنت تستحقين أن تكونى سعيدة".

"وهكذا أخذتِ بنصيحتها".

"فقط حين تهاوى كل شىء آخر ".

"نصيحة رائعة خصوصًا من أمّ ".

دقّ الباب، فى هدوء أول الأمر، ثم بإلحاح، نظر جان إلى ساعته، كانت بعد السابعة مساءً والأسرَّة لم تطو بعد. نظر إلى آنّيمايك التى أشارت إليه بمحاذاتها. وارب الباب بقدر بسيط ليرى من خلاله وأدهشته رؤية برنز يقف على الجانب الآخر. خطا خارج الغرفة، يمسك بالباب وراء ظهره.

"ما الأمر ؟".

التقط برنز نفسًا عميقًا.

"سيد دى جروت، جئت" التقط نفسًا آخر،" جئت لأخبرك أنّى سأقف إلى جانبك، نيابة عن المنتجع، سأطلب الشرطة، ويمكن أن نرفع دعوى إن كان هذا هو الشوط الّذى تودّ. لقد غيّرت رأى، أريد أن أساعدك" رفع عينيه عن النظر إلى يد جان الممسكة بمقبض الباب وسلّط نظره على وجه الرجل. رأى إنهاكًا وقنوطًا. اعتراه وجع فى بطنه، وجع من الحزن. شعور من أضناه الحبّ.

"أشكرك " قال جان،" لكن لا فائدة من هذا، أشكرك" فتح برنز فاه ليتكلم لكن جان هزّ رأسه،" وليس ضروريًا" قال مبتسمًا،" لا نفع يُرتجى من وراء هذا ".

"من أجل زوجتك ؟".

"لا نفع يُرتجى من وراء هذا ".

تلقى برنز الانطباع المباغت، عند رؤية جان عند الباب، يتشبث به، لرجل يصمد ضد إثم. وعى أنّ هذه بصيرة وكان مُرَوَعًا، وقد حاول المتابعة ليفهم ما يجرى، لكن بنفس السرعة التى خطرت بها الفكرة، كان الفهم قد راح.

-٥٩-

لم تغادر آنّيمايك الحجرة فى اليوم التالى. ترقد فوق الفراش، ساكتة دون حِراك فى وجوده. حين غادر الحجرة، تمهّل هنيهة عند الباب وأصغى لصرير الفراش وهى تنهض عنه. سمع التليفزيون يدفع بشارة التشغيل الإلكترونيّة الخافتة إنّما تتعالى، ثمّ سمع الفراش يصدر صريرًا مرّة أخرى متبوعًا بالأصوات المتعارضة عن التقليب بين القنوات بسرعة. وحين عاد فى المساء رأى صينية خدمة الغرف خارج الباب، رأى عناقيد مُقتلعة كانت تحمل حبّات عنب، لحاء قطعة جبن وعبوة زيد فارغة. ثمّة شريحة من فطيرة جبن كُشِط وجهها المغطى بالفاكهة. كانت على ما يرام.

كان جان قد غادر إلى شرفة المسبح، خلع قميصه وحذاءه وقعد على حافة مُتكأ. لم يتعرّف على أىٍ من الموجودين، وقد تمنى رؤية لوريا، وألا يرى أيًا من الأمريكان، واستطاع أن يفطن إلى جورج، يخطو خارج المبنى الملحق الجديد. التفت جورج للوراء وأنحنى مُتكئًا بيده على إطار الباب، ليفحص بلاط الأرضيّة، ثمّ خرج يحكّ إبهامه بسبابته. رأى جان وأمال رأسه أن قد فطن إليه، ثمّ قصد نحوه.

"ذلك الملاط طباشيرى" قال ولا يزال يحكّ إبهامه بأنمله. دفع أصبعه إلى فمه لينظفه ومسح شفتيه بلسانه الضخم الشبيه بلسان كلب.

"تتشوّف للعودة للديار ؟ أحسبُ أنّك تشعر قليلا ببعض الارتياح. أعلم أنّى كذلك ".

كى أكون أمينًا معك، كنت أتساءل أى وطن سأعود إليه".

"أوه. أتفهّمُ ذلك ".

"بلى ".

"الأمور ليست على ما يرام إذًا مع زوجتك ".

"كلا".

"طيب، ثمّة ولداك على الأقل ".

"إنّهما ابنا أمهما ".

"بنتاى لطالما كانتا حنونتين جدًا ".

"لم أكن أبًا جيدًا. الشباب مشغولون جدًا بأمور أخرى، بحيواتهم العمليّة. أعلمّ أنّى كنتُ كذلك. تعودت أن أبتئس عند مرافقتهما وأن تغضبنى ثرثرتهما. كُنا تواقين جدًا للنجاح بحيواتنا ".

"كُلنا هذا الرجل، فى هذا العمر ".

"الحرب، تعرف، نشأنا فى مواجهتها وبعدئذ كُنا دائمًا نجرها خلفنا. أنت تعرف كيف يقولونً إن الأمريكان من ربح الحرب وليس نحن لأنّه بعدها

كان كل ما أراده الناس هو أسلوب الحياة الأمريكى. حسنًا، هذا صحيح، تغيّرت الأمور. أهلى،

قوم هادئون بسطاء لكنهم سيئو الطبع على نحوٍ ما. تتكلم مع بلجيكى سيهزّ رأسه بشأن ما اقترفه النازيون ثمّ يقول لك،"لكن الفرنسيين ! الحرب الأولى، كان ذلك حالا أكثر سوءًا ". دائمًا يتذكرون كيف حكم الفرنسيون آنئذٍ، كان الضباط فرنسيين، والمشاة بلجيكيين، " !Avant " ليأمروا والبلجيك، الخطباء الفلامنك، ينسحبون. لكن سوء النية هذا بسبب الكبرياء، وبالنسبة إلى الناس بسطاء مثل أهلى كان يُثقلهم هذا أيما إثقال، لِما؟ ماذا فى عقولهم السليمة يمكن أن يحصل بشأن الفرنسيين حين ينظر لما اقترفه النازيون ؟ لقد جلبوا معهم معاداتهم للسامية، وقد أخذوا آلافًا من رجالنا ليعملوا فى مصانعهم. لقد لقى أبى حتفه فى واحد منها. لكن لا، الفرنسيون بغيضون، هكذا يقول أهلى.

"آه، لقد رتبنا كل شىء، كما نفعل دائمًا فى بلجيكا، متعودون أن نُغزى وأن نرجع للعمل. ورجال مثلى، نقول، لقد انتهت الحرب، كانت شأن آبائنا، لنريح بعض المال ونُثرى عائلاتنا، ولنترك التفكير بشأن الدول والأيديولوجيات. لكن قد نكون قد مضينا بعيدًا ".

"حسنًا، لا وقت لدىّ للأيديولوجيات. الحياة الحقيقية تُعاش فى حين ينشغل المثقفون فى وضعها داخل صناديق. كانت الحربان مختلفتين، كلتاهما مروعتان، لكنا كُنا على صواب فى الثانية، مُحقين فى خوضها. قد تقول إننا كنا محظوظين؛ لأن الخيارات كانت واضحة جدًا، وكان الربّ إلى جانبنا، أتوقع ذلك.

كان علينا أن نصطف فى مواجهة الشرّ، أردنا أن نبقى مع أسرنا، طبعًا أردنا، لكننا قلنا إنّ بعض الأمور كانت أكثر أهمية مما أردناه ".

"هل عرفت أن اليهود كانوا يُقتّلون ؟".

"لم نخض الحرب لأجل ذلك، ولا لأجل البولنديين وكل الآخرين. كان علينا أن نوقف النازيين الّذين جاءوا يقرعون أبوابنا الأماميّة ".

هزّ جان رأسه،" أنا حقًا مشوش، تعرف ".

:"لقد فعلت ما فعلته يا رفيقى. لا ينبغى أن تقلق بشأن الحرب، لقد جرت وانفضت قبل أن تستطيع أن تفعل شيئًا حيالها. كان ثمة مزيد من الفرص الماثلة لك أكثر بكثير ممن ولدوا بعدها. تعرف، كانت الأمور مختلفة بالنسبة إلينا. اشتغلنا، اشتغلنا لكن عجزنا عن عمل شىء البتة. لطالما كُنا نبيع أغراضًا. تغيرت الحرب كثيرًا . كفّ الناس عن الذهاب للكنيسة كثيرًا، ومضوا يشربون. أضعنا الإمبراطوريّة وكل شىء، لكن تبقى تلك الأيام عقب الحرب كانت ثمّة دولة الرفاهية والتيقن من اعتنائنا بذوينا. أنا فخور أن جمعت معاشى. صحيح. لقد أنفقت عمرًا. سأخبرك شيئًا، لم نكن نملك شيئًا، ما من أحد ملك شلنين يحكهما معًا. أتعرف، أغلب العائلات آنئذ، لوباعت كل أغراضها، ما كانت لتتحصّل على أكثرً من مائة جنيه لقاءها. طريف، أليس كذلك ؟".

"نشأت أسرتى لتكون جاهزة حين تشرق الشمس، اشتغلنا معًا لصيانة المزرعة. فى العاشرة عند المساء

كُنا جميعًا نتهالك منهكين ـ ما من أحد يسأل عمّا نفعله تاليًا ـ نمنا، أشقائى وأنا فى فراش واحد وأختى فى فراش آخر. كل من عرفناهم يا جورج كانوا مُزارعين مثلنا. تاجروا فيما بينهم فى قرية تضم نحو خمسة آلاف نفس، اقتصاد كامل. وحده الطبيب كان يطلب دفعًا فوريًا، كما تعرف، وأحيانًا طبعًا ليمتنع عن هذا. مضت كل سنة كما ينبغى لها، أيام مجيدة وهكذا. ثمّة عمل أيام الصيف الشاق، أكوام من فطائر مُحلاة عند نهاية الصيف حين نفرغ من الحصاد، ذبح وتمليح الخنازير من أجل الشتاء. كل يوم له جدوله أيضًا، الوجبة الأولى عند الشروق، الوجبة الثانية كانت فى التاسعة صباحًا، بعض الخبز مع دهن الخنزير أومربى الفاكهة، كان الغذاء عند الظهيرة، لحم خنزير وبطاطا، وربما فطيرة تفاح، ثمّ شريحة من الخبز مرّة أخرى فى المساء مع جبن. عشرون، ثلاثون عامًا مضت على الوتيرة نفسها ".

"طريقة حياة مضت، أليس كذلك ؟".

:كان لدينا أسلوب حياة مُغاير، سوى أنّى لا أحسب أنّى كنتُ حقًا موفقًا فى الأساليب الجديدة. يقينًا أنا وزوجتى كُنا لنصير أفضل لوبقينا فحسب محض شريكين فى العمل، حسب الطريقة القديمة التى جرت عليها الأمور. لم آخذ أبدًا وقتًا لأفهم آنّيمايك أو إيجاد طريقة للانسجام معها، أظن أنّى رأيت ذلك كمشروع تقاعد ".

"حسنًا، أحسبُ أنّك تسببت بفوضى، ألا تتفق معى...".

ابتسم جان؛ لقد وعى الآن مغزى العبارة الإنجليزيّة " مواساة هادئة ". تعوّد أن يتلقى نصيحة فاترة أكثر من مواساة هادئة. الطريقة التى تكلّم بها جورج معه، برزانة عنيدة، أحسّها أبويّة. أخذه على محمل الجد. لقد أمضى جان عمرًا دون أبّ.

"بلى. هذا غريب، تتوقع أن يلقاك الموت بمنتصف الطريق، حتى الآن أتوقعه. تمنيتُ، المجىء هنا كى أحظى بترضية مع زوجتى يمكننى أن أستعيدها معى إلى الديار، وأن أتقاسمها مع الولدين أيضًا. لا تفكر بأن الموت سيأتيك حين تعلم أنّك تسببت بفوضى ".

"إنهما ولداك ما يؤثر فيك أكثر. عليك أن تضع الأمور فى نصابها مع ابنيك. أن تفعل ما يجب عليك أن تفعله. ابنتاى تعلمان ما أحسه، لن أضع أغنية أورقصة بهذا الشأن قبل أن أرحل، لا أريدُ أن أقول وداعًا. لا أريدُ أن أبقى مع حقائبى محزومة، أنتظر. يصيبنى هذا قليلا بالعصبية ".

"إنّه هبوط مفاجئ طويل الأمد. لم تستهونى أبدًا أعياد الميلاد أيضًا. تقول لنفسك أنّك تستحق بعض المشاعر الأفضل ممن يحيطون بك، تسأل نفسك لِما هم ليسوا ودودين معك، وتصيبك المرارة. هذا ما تسبب بإقصاء ابنىَّ بعيدًا عنى، أحسب أنّه الإحساس بالمرارة ".

تنهد جورج. "لا أدرى ما أقوله لك يا رفيقى، عدا أننى أرجو أن يأتينى الموت على حين غرة. أعرف أنّها أنانية سوى أنّى كنتُ أنتظر أن يأتينى الموت أولا. الآن،

لا أدرى. يبدوالأمر كأنها رحلت فعلا، تمشى وتتكلم، لكنها فى طريقها للغياب، تستطيع رؤية هذا. على العموم، لقد عزمت على كتابة مذكراتى، من أجل البنتين. أدون باختصار الماضى قبل أن تمضى بما تبقى ".

"فكرة سديدة" قال جان مبتسمًا: "ما رأيك بشراب عند البار، دورى ؟".

رمق جورج ذراعه العارية كأنه حمل ساعة. "لقد آن الوقت "قال،" يمكننا تناول قطعة بيتزا أيضًا ".

"بيتزا. طبق إنجليزى رائع، سمعت ذلك، مثل اللازانيا ".

"كلا. إنها إيطالية يا بنى" قال جورج وهو يمضى قدمًا.

-٦٠-

سجّل جان، جالسًا فوق الأريكة القريبة من الباب الفرنسى الموارب قليلاً، ملاحظات فى كتابه. كان يسجل تأثير "الإجازة" كتب، "تضع فى حسابها ترضية للتصور الليبرالى للرجل مع عرفه المحافظ". لاح له أن الحاجة لإجازة كان جزءًا من الظرف الإنسانى، مسكن مقبول لعلة بشرية تعرف بالكاد كيف تشكو منها، الحياة التى صنعناها.

تيقّظ فيما شرعت آنّيمايك بتوضيب الحقائب. جورج ودوروثى شرعا هما أيضًا باليوم نفسه .وبدأ بيلّ فعلا بتخزين واحد أو اثنين من قمصانه المصنوعة فى هاواى، لم يعد يضع سراويله الداخلية فى كيس فى انتظار الغسيل لكن تركها تتقيح فى ركن الدولاب، لينقلهم إلى الحشوة المضغوطة بحقيبته مساء الإثنين بناءً على طلب خدمة الغرف. وعرض جاسون وميسى لفكرة عشاء لذيذ ما أخير، مبقين العدد المضبوط للتجهيزات معلقًا، لكن بحلول مساء الثلاثاء، شرعت ميسى بطى أفضل قمصان جاسون بوسوسة أمّ جديدة.

بقى يومان على انتهاء الإجازة لمجموعتهم. كانوا يضيعون الوقت، كل منهم يجرجر نفسه أونفسها بين المسبح والبار بطريقة كلب يدور حول نفسه ليقرَّ فى ذات المكان.

على العشاء وعند المشرب، عند الغداء وفى المساء، تحوّل جاسون إلى هاتفه الخلوى بشكل متوقع، ينشد رسائل لا تجىء، مُعبرًا عن انزعاجه بصوت عالٍ من تعطل الجهاز. عرض عليه بيلّ أن يُقرضه هاتفه الخلوى ورمقه جاسون كأنّ بيلّ يسرقه بشكلٍ ما. دسّ بيلّ الهاتف مرّة أخرى فى غمده الجلدى الناعم على هيئة تمساح وأغلقه. أنهى شرابه وحده بمفرده تلك الليالى الأخيرة.

كانت لوريا تُمضى يومين فى رحلات غطس. كانت مُتعبة حين تعود كل مساء، بعد فنجان قهوة فى البار، واستعلام بشأن الأصدقاء المُشتركين، كانت تمضى إلى الفراش، عازمة ـ حسب قولها ـ على أن تكون بهيئة طيبة من أجل رحلة العودة.

"إلى أين؟"سألها بيلّ دون اكتراث كما يمكن لأيرلندى ضخم وقح أن يكون.

هزّت كتفها،" آه، نيويورك" قالت،" لأسبوع فحسب تقريبًا".

"مكان مناسب لإمعان الفكر قليلا".

"أى مكان مناسب للتفكير".

"ماذا عن المجيء معي إلى بلفاست؟" قال، بلهجة جعلها تبدو مداعبة. ندت عنها قهقه عجلى قوية وفريدة، مثل جلبة حقيبة تنغلق.

- ٦١ -

تذكّر جان، متمددًا بجوار المسبح، وجهه لأسفل وظهره مثل شاهد قبر، العالم الحقيقى. الفلاندرز. الحقول الشمالية، ظاهريًا ساكنة ومع ذلك متحركة حين تدنو من الأرض وتضع أنفك فيها. بعينيه موصدتين، رأى الطين الجاف فى فناء المزرعة بالصيف، واحة داكنة حيث رقد طفلا فى المكان، الّذى اختاره الكلب، دافعًا الكلب المهجّن بعيدًا كى يُصغى لخفقان الأرض.

كانت الأرض له ليأخذها، بالقبضة، تلقائيًا. عرف وهو طفل كل شبر منها، كانت أرضه مملكة من الطين كبحت انتشار العشب. لعب فيها، مبلولا وجافًا، عرفها بالنمط، من الحرش الثرى بالدبال أو الحقل الجاف مثل باليتة ألوان مائية من لون واحد، جاهز لينساب فى لوحة بلمسة واحدة. قدر على سماع موسيقى الأرض، حبات التراب فى المسافة الضيقة بين أسنانه وهو يزيل الطين من تحت أظافره.

الآن، والشمس تتوهج عبر شعره الخفيف، تمدد، رجلا ناضجًا فى مكان مجدب، سمع مرّة أخرى صيحة أوضحكة من طفولته، صوت تكسّر الماء

المتجمد يطقطق فوق بركة الماء والصوت المكتوم للسكات الّذى يحل كل مساء، نائمًا فى حجرة مع أشقائه وأخته. ككثيرين آخرين، نبذوا مدارس الكنيسة فى القرية وطافوا على دراجاتهم ذهابًا وإيابًا كل يوم، وأحيانًا فى وقت الغذاء أيضًا. فى سنوات قليلة، مئات السنوات من التاريخ راحت وأخذت الدولة على عاتقها التعليم والرفاهة فى شمال أوروبا وحلّت محل الأسرة، والمجتمع والكنيسة، كلهم فى آن. قهرهم العصر الحديث بفعالية أكبر دون توقع أكثر ممن غزوهم من قبل. كان جارفًا. صار التعليم مجانًا، وأصبح شقيقه طبيبًا. لم يكن أحد ليتصور أن ابن مزارع يمكن أن يكون طبيبًا، ووبخ الكاهن الآباء من فوق منبر الوعظ.لكن الكنيسة الكاثوليكية كانت تفقد قبضتها. قليلون يختارون دفع الراتب الأسبوعى لمدرسة الكنيسة المحليّة. فى الوقت نفسه تقريبًا، دخلت الكهرباء القريّة. كانت المناطق الريفية متأخرة بهذا الشأن، لابد وأنها الخمسينيات حين دخلت الكهرباء القرية كاملة. فى البداية كانت الأنوار تُضاء نادرًا ومخارج الكهرباء كانت فحسب هنا وهناك، وفى الغالب بأماكن لا يحتاجونها بها. وقفت أمه تحت الضوء الجديد مرّة فى المساء، عند الباب الأمامى، ترفع كتابًا نحوه ثمّ أحضرت كرسيها لتجلس تحته، سوى أنّها أطفأته بعد دقائق قليلة، وهى تهزّ رأسها.

خلال السنوات، فى طريق عودته للبيت من أحد البارات فى القرية كان يرى الأنوار تتزايد أكثر فى الظلام ـ نجوم زائفة ـ فى أعوامه المبكرة، كانت

القرية تهجع هادئة عند المساء. ببطء فى البداية ثمّ مع زخم احتشد مع نهاية السبعينيات جاءت أجهزة التليفزيون والهواتف، وأدركت أمه العجوز أن ما كان بعيدًا صار فى متناولهم وأنّ ما كان قريبًا، المراقبة الهادئة للأرض، صار نائيًا.

باعد العصر الجديد بينهم متنمرًا. لكن جان كان عنيدًا. كان فى جوهره متعصبًا للأرض، ليرجع إلى الأرض.

سمع الصوت الناعم لشخص يقعد بجواره، التراجع الخفيف للأريكة بالقرب منه، وأحسّ يدًا فوق ظهره، بين نصلى كتفه حيث توافقت، مثل كوب يوضع فوق طبق.لم يتحرك. بعد هنيهة أحسّ بالانسحاب واليد ترفع وأحسّ بالغياب أكثر مما أحسّ باللمسة. سمع جرجرة حذاء يُلبس مرّة أخرى وبعد برهة فحسب قارب سمعه صوت وقع أقدام فوق بلاط الأرضيّة، على مسافة، وهو يغيب. أدار عنقه خفيفًا وفتح عينًا واحدة ليرى لوريا تمضى عائدة إلى الفندق. كان حذرًا من التعجل خوفًا من آلام أسفل ظهره وفكّر فى المورفين بحجرته. أغلق عينه وأرجع رأسه حيث كانت، وابتلع ريقه، راجعًا إلى الظلام.

-٦٢-

"أردتُ أن أقول وداعًا، قبل أن أرحل " قال بيلّ.

مسح جان فمه دون أن يلتفت . كانا على الفطور، قدامه جورج وقد وضع سكينه وشوكته، وقد غطى مُقلتيه قشرة متلألئة زائفة من النضج، لاحت ضبابية حتى هذا الصباح. كانت سيماؤه ذات حدس ومع ذلك، تستطيع قراءة وجهه مثل كتاب. وفكّر جان، عند رؤيته الرجاء يعتلج وراء كل عضلة فى وجه صديقه، فيما عليه أن يفعله. كان قد رأى بيلّ يخرج من مكتب برنز، وما من وهلة يُشك فيها بذنب الرجل. عزم على تجاهل بيلّ، لكم استعد لتلك اللحظة، لكنه الآن نهض من الطاولة، وأومأ ومضى ليصافح بيلّ بيديه، ويرد على وداعه.

"هل يمكن أن نتكلم ؟" سأل بيلّ، ولا يزال ممسكًا بيد جان. أومأ جان مرّة أخرى ومضى خارج حجرة الفطور وعبر الرواق إلى الشرفة." كان علىّ أن آتى إليك قبل الآن" قال بيلّ،" هناك ما أحتاج أن أخبرك به".

:"كلا" قال جان، يمطّ شفته العلوية قليلا ويهزّ رأسه. أخفض بصره نحو شجيرات الخبيزة وبعيدًا

ناحية البحر. شقّت السماء بعض السُحب، كصفحة قديمة ممزقة عند الأطراف."أعرف ما تريد قوله لى وأعرف لِما تريد قوله، لتلقى بها عن كاهلك، سوى أنّه من غير المريح لى الإصغاء لهذا الكلام ".

"ما رأيك ببعض القهوة" قال بيلّ ينقل حمله من ساق إلى أخرى إلى جانب جان، وعيناه مسلطتان على وجهه.

"لقد شربت فنجانًا للتو".

ندت عن بيلّ تنهيدة صغيرة." أنت محقّ " قال،" إنّه لأجلى. أشعر أنى مثير للاشمئزاز فحسب يا رجل. كما ترى، يبدو الأمر كأنى تصرفت ضدك، لا مرّة بل مرتين، دون أن أقصد أبدًا هذا ".

رفع جان حاجبيه.

"عجزت عن رؤية الرجل يزج به فى السجن، لهذا تكلمت مع برنز ".

"لم يكن الأمر يصل إلى ذلك ".

"لا تستطيع التيقن ! ونحن لا نعرف مدى قوة الشرطة ولا نظام القضاء فى هذا البلد. لكن الأكثر من ذلك يا جان، فكّرت أنّه علىّ أن أفعل الصواب، بكامل إرادتى. أنا مؤمن ببراءة الرجل ".

"بناءً علام؟ " قال جان، متجهًا صوب بيلّ الّذى أشاح ببصره بعيدًا.

"بناءً على معرفتى بزوجتك ".

"أنت تعرف زوجتى ؟".

"بمعنى ما" أضحى وجه بيلّ قرمزيًا، كان مبللا تحت إبطيه وعند منتصف ظهره.

"كفاية لتعرف أنّها كاذبة؟ ".

"كلا -ليس بالضبط. لكن كفاية لأعرف أنّ لها موقفًا ما حيال...".

"الجنس. لقد نمت مع زوجتى ".

"بلى ".

أشاح جان بوجهه بعيدًا."أى نوع من المسيحية تلك التى تمارسها ؟".

أخفض بيلّ بصره وهزّ رأسه."لم أكن أعرف أنها متزوجة، ولم أكن أعرفك ".

"كان عليك ألا تحاول صداقتى بعد أن اقترفت شيئًا كهذا ".

"لكن لِما لا ؟ كان الأمر قد انتهى وصار بلا معنى. راح لحال سبيله وابتلعه النسيان. لكن يا جان، أنت وأنا، صرنا صديقين. طبعًا لوكنت قد عرفتك من قبل ما كنت لأرتكب هذا أبدًا ".

" انظر، لطالما عرفت ماهية زوجتى" ندت عنه ضحكة قصيرة ومدّ يدًا فوق وجهه."ما جرى ليس خيبة أمل كاملة، محض مزيد من الأنباء السيئة. لقد خاب أملى فيك أنت يا بيلّ. كل شىء يبدو بالغ الزيف بالنسبة إلىّ. هناك ما هو أكبر منك، مع ذلك، هناك ما تمثله".

"أعرف" قال بيلّ، وعينه فى عين جان.

أومـأ جـان بـبطء." أنـا عـجـوز ومـتـعب، بـسـبب السرطان كما أفترض. لا يتعلق الأمر بك، حقًا، بل ثمّة ما هو أكثر يتعلق بها وبى" قال. رفع بصره ورأى جورج عبر زجاج المطعم يراقبهما من الطاولة." لا أفهم، نحن جميعًا مخطئون بقدر ما يمكننى الرؤية ".

"أنـا آسف يا جان" قـال بيلّ،" آسف بـصـدق، كنتُ أرجو ألا يكون هذا قد جرى أبدًا ".

فكّر جان فى لوريا برهة. لم يحطّ شيئًا أبدًا فوق طبـقه، وحتى لـوحـصل، كـان يـرفـضه، لـقـاء مـا فـعله. أخفض بصره نحو حذاء بيلّ الجلدى الموسوم.

"لم أحسب أنّك انتهازى" قال.

بدا بيلّ مثيرًا للشفقة، كان يجتر فى داخل فمه ويطرف. مدّ يديه وقال،" وداعًا جان".

- ٦٣ -

كانت واحدة من أكثر البلاد التى سافر إليها بيلّ تدينًا، وفى طريقه للمطار عدّ كل ورقة عشب، كل ملتجأ مثلث، كل صليب، كل قبر، توبيخًا. أحكم إغلاق عينيه وحين فتحهما، تسلقت السيارة فوق مرتقى عبر مزارع قصب السكر ناحية وسط الجزيرة وبسطت الشمس أشعتها شبرًا زيادة، وبلغت داخل السيارة حتى المقعد الخلفى. تكورت الدموع هابطة فوق وجنتى بيلّ، فالتقط منديلا من حامل مزخرف بين المقاعد الأماميّة وتمخّط.

تأرجح صليب من سعف نخيل جاف من مرآة القيادة، ونظر السائق فى مرآته، رأسه ترتج من جانب إلى آخر، على نبض الأخاديد المتباعدة على نحو متساو.

"الفراق صعب " قال.

شكره بيلّ بأن رفع رأسه.

"أنت عائد للديار ؟ إنجلترا ؟".

هزّ بيلّ رأسه،" أيرلندا. قريب من تخمينك ".

"إذًا فلا حاجة بك للحزن. تبدو رجلا طيبًا ذا حياة صالحة.ابتسم. لا حاجة للحزن ".

قال بيلّ لنفسه أنّه كان مخادعًا. جالسًا هناك والنقود فى جيبه، وجواز السفر أيضًا، كأنه قد عرف إلى أين اعتزم الرحيل ولديه الوسائل للوصول إلى وجهته. استطاع أن يشعر بالحقيبة فى صندوق السيارة كأنها معلقة فى ظهره. أحسّ أنه بالغ الضخامة بالنسبة إلى السيارة، بالغ الضآلة بالنسبة إلى العالم فى الخارج. بالغ الغباء. بالغ الاضطراب.

"لقد صنعت بيدى سبب حزنى" قال.

"ما هو؟" سأل السائق.

هزّ بيلّ رأسه خفيفًا ونظر عبر النافذة. ثمة قارب صيد صغير عند حافة الشاطئ، فوق الساحل، مكتوب عليه الكلمات التالية بالجرافيت،"المسيح جميل".

ـ٦٤ـ

نامت مُعيدة رأسها للوراء وفمها مفتوح على آخره، ليباركها الله. لم تكن أبدًا ذات ما يسمونه تناسق الأنثى، ولا كان لديها ما يسمونه مكر الأنثى، لنكون منصفين. راقبها جورج نصف مستيقظة من نومها، تمسح زاوية فمها فى الغطاء الورقى لمسند الرأس وتعود للتنفس بصوت مسموع لأيما راحة نعمت بها. هزّ رأسه وابتسم ملء فيه، وحين جاءت المضيفة وكزها ونقر حافة كوب البيرة.

"أقول إنّ ريقى ناشف يا بطّة" قال،" إنّه العلوحسب ظنّى، أشعر بالعطش ".

"هل ترغب ببعض الماء؟" قالت بعيون مفتوحة على اتساعها برقة. تعوّد أن يُنظر إليه هكذا. بمقدوره أن يُضيق الفجوة، حتى فى سِنه، بين تلك النظرة والنظرة التى قد تعطيها لشاب. منحها أفضل ابتسامة لديه، كأنه مُتأنق وحليق.

"كلا يا عزيزتى، أعجز عن تحمّل الماء. ربما يكون مناسب بيرة وبعضُ الويسكى إن أمكن" وغمز لها بقوة.

"هل أنت واثق من استحسانك هذا ؟".

"لست عجوزًا كما أبدو يا حبيبتى. كانت لدىّ حياة قاسية ".

"أوه حقًا ؟" وصبّت البيرة.

"ثمّة ذلك ويستهوينى السفر متسترًا. لدىّ بعض مستحضرات التجميل لزوم التنكر، كما ترين. تحت هذا التخفى جلد مصقول مثل طفل ".

"مُذهل هذا الأمر" مدّت يدها بكوب البيرة مع العلبة وشرعت تضع الثلج فى كوب بلاستيكى حين أوقفها جورج.

"لا حاجة لذلك ؛ فهو يشغل حيزًا، أليس كذلك ؟".

تنهدت." افترض إذًا أنّه من الأفضل أن أجعله مزدوجًا" وناولته كأس ويسكى ضخمة جدًا."دعك منه إذًا، لنقل فحسب أنّ يدى انزلقت ".

" هناك الآن فكرة ! " قال جورج رافعًا حاجبيه فى الوقت نفسه. منحته واحدة من تلك الابتسامات المثيرة مضمومة الشفتين، عيناها متلألئتان عامرتان بالأسرار، فكان، ومذاق البيرة فى فمه ويداه تحوطان كأس الويسكى، رجلا تغمره السعادة.

كان يضع حقيبة سفرهما فوق حجره، مع كل الكراسات الدعائيّة والإيصالات وقسائم السفر. شرع يتفحصها، متسائلاً إن كان بوسع المرأة الشابة استعمال القسائم. ثمّة ترقيّة مجانية مع كل استئجار سيارة نهاية الأسبوع، تحليّة مجانية مع أى سياق

رئيسى والأطفال مشمولون فى أجرة البالغين برحلات القوارب. لقد انفتح دليل الرحلات وطوى عدة مرات، يوميًا تقريبًا. ثمّة حافظة بلاستيكية للشيكات السياحيّة، يمكنه إضافتهما لحسابهما بالمصرف؛ فما كانا ليكونا بحاجة لها، فقد دفع مصاريفهما الزائدة ببطاقتهما المصرفية. مائة وأربعة وأربعون جنيهًا. كان حريصًا، فالأشياء كانت غالية جدًا فى مكان كهذا. أول مرّة سافرا بها للخارج فى رحلة اصطحبا معهما الكثير من وجبات الطعام الخفيفة وأبقوها فى إفريز الشباك بالفندق كأنّها كانت طازجة وباردة فى أوستند. جلبا اللبن والحبوب لفطورهما، عبوات الشاى والملاعق. مضت وأخذت أكياس مخداتهما لتجعل إقامتهما أقرب شبهًا بالإقامة ببيتهما. لم يزعج نفسه ؛ فالطعام والشراب كانا شيئًا واحدًا، لم يكن بحاجة ليصطحب دُبًا منفوشًا متفطر القلب ليعانقه، أخبرها ذلك. شرح لها بتؤدة،" حين ترحلين، إنّها عطلة أليس كذلك، فأنت تمارسين الأشياء بشكل مغاير. لسنا بحاجة لنمارس حياتنا على الوتيرة نفسها " لكن طبعًا انتهى الأمرُ بهما لتناول الغداء كل يوم عند الواحدة، شرب الشاى عند الرابعة والنصف ـ شطيرة وقطعة كعك ـ فنجان ووجبة خفيفة عند السابعة والدخول إلى الفراش عند التاسعة والنصف. كان يُطلّ من النافذة، وهى نائمة ويرى الناس تطوف حول الساحة، قادرًا على سماع نعال أحذيتهم تنقر فوق ملاط العصور الوسطى أسفل النافذة. كان يشاهد

مدى رشاقة رجل أوامرأة لتقبض على الدرابزين النحاسى لباب بار فى أيديهم ويختفون عن نظره.

مع ذلك، لطالما كان بحوزتهما مبلغ مُدخر.لم يكونا أبدًا مبذرين، وكانت لتتحصل على حافظة جديدة مرّة كل نحو عشر سنين، أمّا هو فثلاث تقريبًا طوال حياته. تساهله كان مع الأحذيّة. كان يشترى زوجًا جيدًا كل بضعة أعوام. تحسست يداه صحائف الورق التى طواها وحشرها فى حافظته، بالأعلى ورق الفندق الذى شرع بكتابة مذكراته عليه. كان قد بدأ من حيث تزوجا.

حين تزوجنا عُقد حفل القران فى منزل أهلى فى إنفيلد .دعونا نحو عشرين صديقًا وقريبًا. اشترينا منزلاً من خلال جمعية بناء هاليفاكس بدفعة أولى قدرها ستة وثلاثون جنيهًا من المبلغ الإجمالى البالغ ستمائة وستة وثلاثين جنيهًا. كان علينا دفع قسط شهرى ٣,٤٠ جنيهًا فى حين كان دخلنا خمسة جنيهات أسبوعيًا. التحقت بعمل فى شركة تبريد تيرنبايك لان، والتى تشيد فى الغالب ثلاجات من أجل الجزارين. كانت غرف التبريد مصنوعة من الخشب، أحد الجوانب مغطاة بطبقة من الخشب الرقائقى أو لوح معدنى مطلى بالرذاذ الأبيض فعلاً. كُنّا نقلب تجويفها الجانبى ونقطع ألواحًا من الفلين لتتفق معه، ثمّ نرسل فى طلب الرجل ليغطى الداخل بالقار الساخن، ثمّ نضع ألواح الفلين فى هذا نحو بوصتين سماكة، ثمّ نضع قارًا وفلينًا مرّة أخرى ونضع ألواح الخشب الرقائقى أوالمعدن فوقها ونشيد الغطاء والقاع

بالطريقة نفسها. كُنّا نضمها معًا فوق أرضية النجارة ونثبتها معًا بمسامير برجى ست بوصات عبر فتحات وكُتل معمولة فعلا داخل جسم غرفة التبريد بالجوانب والغطاء. كانت القاعدة تُصنّع بالطريقة نفسها لكن زيادة أرضية أسمنت بفتحة تصريف تتجه صوب المؤخرة. تلك القواعد كانت توضع فوق كراسى عمولة مثبتة بالأسمنت حتى لا يضطر ديك لاصق الأسمنت إلى الانحناء لأسفل باعتباره رجلاً بدينًا. بعد نحو عام طلبتُ إن أمكن الخروج خارج المدينة لتجميع غرف التبريد فى محلات الجزارة وأخبرونى أنّ هذا ممكن. كنتُ فى العادة أتلقى قطعة لحم أوضلع كبقشيش.

الأسبوع التالى لزواجنا طُلب منِى أن أذهب إلى سميثويك بالقرب من برمنجهام لتبريد سير متحرك حيث يفترض بصاجات الخبيز أن تبرّد أثناء مرورها عبر المجمد الّذى علىّ أن أشيده فى حين يعمل السير حاملا الصاجات الساخنة. أعطونى بعض الكعك، لفائف الشيكولاتة الصغيرة. أمضيت هناك أسبوعًا ثمّ رجعت لعروسى.

لم نتمكن من تحمل شهر عسل بقدرٍ ما مع شراء البيت. مضيت للشغل فى كنيسة بالقرب من كوكفوسترز. كانت نقودهم قد نفدت لبناء الكنيسة فصنعنا طرفًا خشبيًا زائفًا لنواصل فيها. فى ذلك الوقت كان أبى يعانى المرض. كان فى السادسة والستين من عمره، وكان يذبل سريعًا نتيجة تصلب الشرايين. كان ناصحى، الرجل الّذى علمنى كيف

أتصرف، ووهبنى عشقه للموسيقى وشغل الخشب والذى دام معى طوال حياتى. مرّة جاءت الزوجة إلى الكنيسة، وكنت أنا ورفيقى نُثبّت صليبًا خشبيًا ضخمًا وكنا نوشك على الانتهاء. رفعت عينىَّ صوب التلّ ورأيتها تلوح. ترجلت سريعًا عن تلك السقالة كلمح بالبصر ؛ فأنت يا عزيزتى تعرفين كم أحببت والدى. حين مات، أصرّت أمى على نعش يجره حصان ومركبة لأنّها لم ترغب أن ترى دفنه مُتعجلا.

ثمّ تلت الحرب، بلا أحداث تُذكر فى مهنة البناء. التحقتُ بلواء إطفاء إنفيلد، أثب من أبراج تعلو تسعين قدمًا وأنقذ ناسًا محتجزين بأبنية تعرضت للقصف، وتعودت أن أمدّ بالهواء ملاجئ الغارات أيضًا، بخبرتى فى البناء. عام ١٩٤٢ استدعيت للخدمة فى القوات وصرتُ ساعيًا راكبًا بسلاح الإشارة الملكى فى أيرلندا ثمّ فى يوركشاير، ثُمّ إفريقيا فى الجزائر. بعد عامين هناك ذهبت إلى إيطاليا حتى نهاية الحرب وقضيت وقتًا رائعًا مع زملائى. كانت أحلى أيام حياتى.

بعد الحرب قررنا أننا نرغب بحياة خارج النطاق، فاشترينا مشتل طماطم وأقحوان وخضراوات. كُنا مدفوعين لممارسة معيشة كهذه. لم نحقق ربحًا يُذكر من المشتل خلال سنوات قليلة جدًا لكنى كنتُ أتمكن من إيجاد عمل لتمويله، وفى الغالب يكون العمل قيادة السيارات.

كان هذا نذرًا يسيرًا، لا كُل شىء. كان قائمة. ليكتبه هكذا من أجل الأحفاد، ليعرفوا كيف أنجز نصيبه، هذا هو بيت القصيد.

كان هذا بعد نحو خمسة عشر عامًا عقب الحرب، حين انتاب الأقارب الأكبر سنًا الّذين يرعونهم القلق واحدًا تلو الآخر، لأنه قال لها، هيا ليكن لكل منا سرير منفصل. كان قد رأى الأرملة آنئذ، وما من معنى فى الاستمرار على المنوال نفسه. ربماً بالقدر نفسه أراد حيزه الخاص، واستقام فمها وتجهم كما الموت دون أن ترفع حاجبًا، قالت فحسب،" كما تريد " تعنى، أنت الرئيس، كانت هذه هى طريقتها لتقول: ، أنا أمتك، ألستُ كذلك ؟ تعود أن يرسم على شفتيها ابتسامة، تعود أن يغيظها، لديها أصول ترجع للأبرشية الأيرلندية، فكانت مزحة بينهما بعض الوقت، فى السنوات الأولى. مرّة أومرّتان قرص فخذها، خطرت عفو اللحظة حين كانا فى البساتين معًا." ثمّة تساوق فى ذلك " قال. طماطم مزروعة فى البيت، رائحة لن تنساها. رائحة الخضرة مع بعض القشّ المحبب للنفس، شىء مثل العبث. لن تذق هذا أبدًا بالسوبر ماركت. لتقول" أغرب عنى" فى السنوات التالية للحرب وينشق وجهها عن ابتسامة، ثمّ تأخذ الابتسامة للداخل معها وتلصقها فى مئزرها. ما كانت لتجرؤ على عمل شىء حيال اللمسة.لديها أمها القعيدة كى تعتنى بها والتى كانت بقرة حقيقة وكانت قد استعادت عافيتها للتو حيث تُركت قبل أن يلتقيا، لتجعل حياة دوروثى مأساة لعينة.لم يتورط أبدًا فى هذا، ويجوز كان عليه أن يتورط.

نظر إلى دوروثى، فمها مُغلق الآن، رأسها متدلٍ فوق صدرها الوفير. كانت طباخة باهرة، من لاشىء

تقريبًا يمكنها صنع مائدة عامرة فوق الطاولة. كانت أمًا رائعة أيضًا، حاكت كل ملابسهم، وعملت سترات جديدة لأجلهم كل شتاء. ليست مثل المرأة الهولندية. كانت راهبة صالحة. رفيقة. ربت على يدها، والتقط يدها فى يده وشمها لحظة. رائحة مبيض ملابس، حتى بعد مضى أسبوعين. ضحك.

تحسس باحثًا عن حافظة الشيكات السياحية. فى الداخل، ثمّة زوج من الملاحظات بالغتا الصغر، سحبهما للخارج، مائتا جنيه. تحقق من تحرير بعض الشيكات. كانا قد أنفقا مائة جنيه من الشيكات فى المنتجع والباقى عبر بطاقتهما المصرفية، وقد بدءا بخمسة. اثنان مفقودان.

وكز دوروثى، لكنه منع نفسه. ماذا فعلت بهما؟ ربما تعرضا للخداع. فكّر فى المرأة، التى كانت تعتنى بحجرتهما. كلا، لا يمكنه قبول ذلك. يجوز تعرضا للسطو؟ تمتمت دوروثى بشىء ما وحين هدأت شفتاها كانت فى غير مكانيهما ومواريتين، فتركها على راحتها.

- ٦٥ -

رايدر (الابن) مستثمر ردىء. له دخل، بصورة شخصية، ويستغله غالبًا فى المضاربة بالسوق. هراء واضح. أعرف أباه أفضل. رئيس سابق لنابيسكو. رجل ذو نفوذ. شخص سيئ له قلب من ذهب. شفوق على عكس ابنه. كيف تتطور أمورك المالية؟ " ملأ برنز الرسالة الإلكترونية فى مجلده المعنون "لقطات أساسية" . دائمًا المعلومات التى نحتاجها تبدو وكأنها تأتى بعد فوات الأوان، فكّر. تمعن فى الماليات ببرنامج الإكسل، يفكّر فى أنّ اقتطاع بعض الأجور قد يحسّن النتيجة المالية، ويفكّر - بلفة سريعة من كرسيه وقدمه قبالة الحائط - فى كم العمل الّذى يمكن إضافته لحصته وفى نزوة، عاد إلى برنامج بريده الإلكترونى ليتحرى البريد الوارد. وجد رسالة ذات مظهر دافئ من Joanne@hotlips.com معنونة «بنات صغيرات مهووسات بك» وحذفها، ومزحة سيارة فحواها عرض عشرين اختلافًا بين الجنسين من صديق له فى العمل فى برمنجهام، هذا كل شىء. مع حذف كل رسالة من مجلده، كانت لوحة مفاتيحه تقرع مثل آلة فاكهة. يمكنه إبطال العملية، سوى أنّه أحسّ

بالراحة لدى المضى عاريًا، وقرر أن يجعل سطح المكتب كاملاً يبدو غير ذى شخصية مميزة وجذّابًا كأن الجهاز كان جديدًا. سحب رسالة استقالته، ونقّحها من نبرة تعبيرات النبالة الرسمية (مستخدمًا مزيد من مهاراته كان قد شرح كيف كان غير لائق للوظيفة) لصالح نسخة غير ماضية، ومع "موجب هذا" أخيرة محذوفة، نظر إلى الكلمتين الباقيتين، "استقيل". بعد ذلك رتّب سطح مكتبه الحقيقى، راح يضع كل الأوراق مكدسة فى أكوام داخل أدراج. وتفحص درجه المخصوص وعثر على مغلف ضخم خاص بالفندق يحمل اسمه بخط يد شخص عجوز متبوعًا بـ "المحترم".

عند فتحه وجد مغلفين أصغر وملاحظة لأجله. واحد من المغلفين كان موجهًا إلى "آدم واطس المحترم" والآخر إلى «شارلوت، فى طريق شوجرتاون.(يعرف آدم المكان) ».

عزيزى السيد برنز.

سأكون ممتنة إذا حرصت على تسليم كل من هذين المغلفين بأسرع وقت ممكن.مع شكرى العميق.

مدام. دوروثى ديفيز.

ولأن ولا مغلف كان مختومًا، تمكن برنز من فض لسان الخطاب لإلقاء نظرة سريعة على المحتويات. بداخل كل مغلف كان ثمّة شيك سياحى بقيمة مائة جنيه. عاد يجلس فى كرسيه ووضع قدمه الحافية فوق مكتبه، ساقًا فوق أخرى عند الكاحلين. طرقع

أصابعه وابتسم. مدخرات المرأة العجوز. لِما واطس؟ تساءل. يجوز تدين له هى الأخرى نظير خدمات مُقدمة، واتسعت ابتسامته.

"كأنّى أدير ماخوراً " هذا ما قاله للرجال الّذين رجعوا للديار، خلال احتساء بيرة. ستكون إدارة ماخور حقيقى أمرًا مُسليًا، تسلية خالصة نافعة، ويمكنه ربح بعض المال. وعمل بعض الخير، كالتسرية عن بعض الأرواح القليلة البائسة. الآن كان هذا يستحق التفكير بشأنه، يمكنه عمل بعض الأبحاث على الويب، بادئًا بالآنسة جوانا هوتليبس. وضع يدًا على حجره والأخرى على الفأرة. بشكل عرضى، من حيث لا يدرى، خطرت القناعة المباغتة والراسخة أنّ عليه إتمام تفويضه لمدام ديفيز. جوانا والآلاف مثلها، مرجأين فى نوع من النسيان الأبدى من المفاجأة الجنسية المرئية، كل الشفاه المزمومة والأجزاء الوردية، حسنًا، كانت ستنتظر.

-٦٦-

عبرا ظلام الليل الكاريبى إلى النهار الأوروبى، والطائرة تندفع عبر الليل، تتعجل العودة للوطن.

كانت آنّيمايك تجلس إلى جوار الشباك، منصرفة عن جان. تأملت اقتصاد دموعها، منبثقة مع توقيت الفواق، كل دمعة شقّت طريقها من عينها اليسرى، والتى كانت فوق الأخرى، فوق أنفها لتسقط داخل عينها اليمنى، لتتجمع فى كتلة وزخم أكبر قبل أن تهوى فوق مسند الكرسى وتحت المقعد. رقدت على هذا النحو لساعات. ما من أحد يمكنه رؤيتها أوسماعها. وكان جان يحسبُ أنّها نائمة.

وصلا فى الصباح إلى بروكسيل. كان الطقس شمال أوروبى بامتياز، رأت، وهى ترفع الستار عن نافذتها وتنظر للعالم المنمنم بالأسفل دائب الحركة. حين حطّت الطائرة فوق ممر الهبوط، رأت الرذاذ الصافى فوق النافذة. هبطا الدَّرج فى انتظار الباص. شروق الشمس يمكن تجاهله، نسيانه، لكن المطر يتغلغل. كان حمالو الأمتعة يرفعون ياقاتهم، وقد انهمكوا بأشغالهم عابسين، يدفعون أذى الطقس بكفاءة.

كان ابنهم الأكبر، ماركوس، فى لقائهم، واحتل جان المقعد الأمامى فى حين جاست آنّيمايك فى الخلف. بعد أن أجابا على استفساراته انصرف كل منهما للنافذة التى بجواره، يتفحصون المطر، يراقبون الحقول تصافح أسوجة الأشجار والبيوت. مرّة أواثنتان حدق ابنها فى المرآة ليلاقى وجهها، أعطته نصف إجابة، لا أكثر.

حين بلغا المنزل، وقد مضى ابنها لجلب بعض اللبن والخبز، استأذنت لعمل مكالمة. ثم عادت إلى المطبخ حيث قعد جان يشرب فنجان شاى بليمون وأخبرته الترتيبات التى اعتزمتها.

"كنتِ مشغولة تلك الأيام وقبعت حبيسة فى حجرتنا بالفندق" قال،" لقد رتبت لخلق حياة جديدة". جلسا متقابلين حول طاولة المطبخ الصغيرة، التى تناولوا عليها كل وجباتهم الخفيفة على مدى سنوات طوال، فطور، شاى، قهوة، مشروبات آخر الليل." أظن أنّه ما من شىء يُقال على أية حال " نهض ومضى يتمدد فى حجرة الغيار، التى كانت حجرة بن، فى حين حزمت حقيبة فى حجرتهما.

"لا أريدك أن تذهبى" قال، بمفرده فى الظلام، قريبًا من الباب.

حين سمعت ابنها فى المطبخ راحت إليه وقالت إنه يجب أن يبتعد. أمسكت مقبض الباب طوال فترة حديثها، قبالته، وظهرها للمنزل وقد انهمر الرذاذ البارد فوق وجهها. شرحت له أنهما قد اعتزما العيش

منفصلين، وأنها تنوى العيش مع أندريه دى فرايس. عرض عليها أية مساعدة تحتاجها وعانقها بوقار. كان وجهه مكرمشًا وقاسيًا، تمامًا كوجه والده.

"هذه ليست نهاية حكاية جنيات، لكن علينا أن نكون واعين حسبما افترض" قال وهما يدخلان عائدين بعيدًا عن البرد،" علينا أن نتصرف حسبما ترغبان. لقد كان أمرًا قاسيًا عليك يا أماه. شخصيًا، ربما أرجو لوتقدرين على التمهل حتى النهاية " ثمّ وقد قرأ وجهها أردف،" لكن النهاية، وهذا حقيقى، استغرقت وقتًا طويلا فى مجيئها. لا تقلقى، سنساعدكما جميعًا لاجتياز هذا الأمر، كلاكما" أضاف، رافعًا بصره نحو الإفريز الضيق فى مطبخهم حيث تدبرت حلى الأسرة الصغيرة، التى تراكمت فى حياتهم. ثمّة قدور الأطفال الفخارية المعمولة يدويًا، فنجان بيض زائف، صور مؤطرة للأجداد، قرميدة ماركة ديلفت من مطبخ جدتها، مزهرية اشتراها الولدان من أجلها فى عيد ميلادها، الأنتيكات التى لا تقدر بثمن لأية عائلة. ثم أحنى رأسه ـ كان طوله يتجاوز الستة أقدام ـ وعبر المدخل إلى داخل باقى المنزل، ينادى بصوتٍ خافت،"أبى؟" رغم اعتياده على نداء أبيه باسمه الأول فى السنوات الأخيرة.

أصغت إلى النبرات الخفيضة لحديث متبادل بينهما وظهر جان وقد وضع يده فوق ظهر ابنه، يقود الشاب خارج البيت، وراح يهزّ رأسه مؤكدًا أنّه سيكون على ما يرام.

"ماذا قال لك ماركوس ؟" سألته.

"قال إنّه علينا أن نسعد هنا والآن، أن علينا أن ننسى الماضى. قال ألا شىء آخر له أهمية الآن ".

أعطاها ظهره متذرعًا بنيته المضى لإحضار كتاب. فى الحقيقة، عانقه ابنه وتكلم بلهجة اعتذار. قال،" أنا بغاية الأسف لأجل كل هذا. أشعر بالسوء جراء ذلك. لقد ارتكبنا جميعًا أخطاء يا أبى. كلنا. ما من آباء على خطأ تام، وما من أبناء محقين دائمًا. أرجو أن تعرف أنّى وبن، كلانا نحبك ".

ردّ جان،" بل أنت الابن، ومسموح لك بارتكاب أخطاء. أرجو أن تتعلم منى ".

نظر إلى ابنه فى تلك الغرفة وفمه ينفتح وينغلق بين الأفكار ورأى وجهه قد خلا من التجاعيد ـ أنظف وأكثر عذوبة ومهابة ومسالمة. ربما كان من الممكن أن يفر بنفسه، رغم كل شىء، مرّة. ربما يستطيع الارتحال عن نفسه مثل قدم تتفصل عن حذاء.

- ٦٧ -

بعد ساعة ونصف، أطلقت آنّيمايك العنان لنفسها لتمضى عبر باب المطبخ دون إلقاء المزيد من تحايا الوداع، واستقلت سيارتهم الصغيرة، الرينوكليو، وتركت له السيارة الأودى. لم يكن عسيرًا حزم حقيبتها ؛ فهى لم تأخذ مقتنياتها الثمينة معها إلى الكاريبى، بل كانت ناضرة ومطوية فى أدراجها. احتاجت لما يكفيها فحسب بضعة أيام، وكانت على وشك لقاء أندريه فى رواق أوتيل بوديفخن فى دى ماركت، فى وسط براغ. كان هناك حين وصلت، وقد بدا مشدوهًا ومستثارًا. تبادلا الأسئلة عما إذا كان كل شىء على ما يرام ثمّ ذهبا مباشرةً إلى الغرفة التى تدبرها، واحدة من أفضل غرف الفندق، تطل على ميدان السوق وفيها سرير بأربعة أعمدة. ثمّة أدوات زينة إنجليزية فى الحمام، مناشف كثيفة وشراشف ناعمة وأغطية للفراش، ثمّة حتى موقد، ونار مشتعلة. خلعت ملابسها واستبدلتها بروب الحمام تحت عينيه جالسًا فوق كرسى، فى معطفه المكوى الواقى من المطر، عيناه جادتان كعينى هرّ. بعد حمام لبست ثوب نوم ماركة لابيرلا، بنى خفيف برباط كريمى ناعم

يحوط ياقته. بخّت بعضًا من عطر جين باتو "جويب" فوق معصميها، ثمّ مشطت وجففت شعرها فى الحمام وحين عادت رأته فى سروال قصير، جالسًا فوق الفراش، يحمل كأسًا من الشمبانيا فى يده.

"حياة جديدة ؟". سأل وابتلع رشفة. أومأت فالتقط كأسًا مملوءة من الطاولة المجاورة للفراش ومدّ يده بها إليها، ممسكًا بطنه طوال الوقت، كما رأت. تفحصها وهى تشرب، ثمّ التقط نفسًا عميقًا عبر أنفه. رأى أنها لبست قرطًا من الألماس فى أذنيها وطلت شفتيها بلون خمرى. أغلق عينيه برهة. رمق، متعريًا، كيسها الكبير من لويس فيطون عند قائم السرير، رأى الجوارب الشباشب المنفوشة وبعض الملابس الداخلية، والأقمشة الناعمة لثيابها المطوية.

كل تلك الأمور، حجرة الفندق وأدوات الزينة والشمبانيا، كانت الرمز لعلاقة حب رسمية. ليست مزيفة، فتلك الأشياء ملائمة لتأسيس مسافة بينهما شكلت كمالا. حين جذبها داخل الفراش إلى جانبه، كانا كغريبين، صهرتهما فحسب هذه اللحظة ، دون ادعاءات أخرى يطلبها أحدهما من الآخر.

"أنت تريدنى، ألست كذلك " تمتمت فى أذنه وقد أفسح لها، فأسكتها بقبلة قوية فى فمها.

-٦٨-

حين غادر جان بلجيكا سافر بالقطار من بروج إلى بروكسل ومن ثمّ بالقطار السريع إلى باريس. لاحت بلجيكا، من نافذة القطار، كأنّها قطعة نشاز بأوروبا الشرقيّة، تُقاسي قطرات مطر أسمنتيّة هبّت من سموات بولنديّة. رأى الأكواخ الرمادية الصغيرة بجانب خطّ السكّة الحديد، خلو من الغاية كأنّها لوحة لعب مهجورة، امتد وراءها مشهد ريفى كئيب، مسطح، رمادى. الكنائس التى لم تكن أبدًا كاتدرائيات رغم حجمها، تكدست فوقها السقالات. كان الريف ملؤه خضرة بدجة كافية، حين تقترب منه، ثمّة وفرة من أوراق الشجر، وفرة من القُرّاص والعليق. كانت البيوت مُتقنة وغير واضحة. مبانى الستينيات والسبعينيات بتطلعاتها الممتثلة لـ «مجتمع واحد» كانت ذات أشكال هندسية بسيطة،منحوتة بظلال زرقاء وبنيّة فاتحة. شرفة من حديد مشغول هنا وهناك لّمحت للطابع الفرنسى، لكن النوافذ كانت مُبقعة بالمطر الحمضى. مقابل تلك الرزانة، ليُصقلُ شيءٌ ما سخيف، أحيانًا. لاحظ إعلانًا فاسقًا بدرجةٍ ما، بتوريّة مزدوجة تربط صورة حلمة امرأة بعرض سيارة، وشاحنة توصيل

بيضاء مطلية لترسم شخصية ذات شعر أحمر، عاريًا عدا ورقة تين تعد بأن "ويلى فان دِن إست "*سيقيم مهرجانًا*.

على متن القطار مجموعة من أربعة رجال سعلوا وشجعوا بعضهم مثل رِفقة من الماعز، مرتكزين على المغالاة الذكوريّة. شواربهم الشبيهة بمقود دراجة كانت لتصمهم بالمثليّة بأى مكان آخر فى العالم. هنا، نساؤهم المخفورات جيدًا جلسن معًا فى الجانب الآخر منهم، أربعةً آخرين، يكتمون كلماتهم وأيديهم فوق حقائبهم، يتمرنون على الترمل.

شاهد جان بنتًا صغيرة سمحة قعدت بجوار أمّها البدينة. البنت زرقاء العين، بحجاب ثقيل، وقورة لكن مفعمة بالحياة، والأم لاهثة، مكفهرة الملامح، منهكة. هذه المرأة قعدت مغمضة عينيها كى تصون طاقتها، ذراعان ضخمتان كساقى خنزير معقودتان فوق ثدييها، ورأسها قد تدلى داخل صدرها مثل خيمة سيرك كبيرة راحت تهوى.

شىءٌ ما فى عينى البنت الذاهلتين استدعى بنتًا ألمانية صغيرة تعودت اللعب مع ابنيه، وكان أبويها قد انتقلا من هامبورج إلى ضاحيتهم فى براغ . رغم أنّ البنت كانت فحسب فى السادسة من عمرها تقريبًا حين عرفها، إلا أنّها أقضت مضجعه. تعودت أن تّقبل على بيتهم وتقول بطريقة واضحة،" أريد شيئًا" وعيناها ملؤهما حلم فى حين كشف فمها عن حاجتها. هل كانت حاجتها شرابًا أم طعامًا أم دمية ما

؟ مؤكد كعكة مُحلاة ؟ لا،لا،لا . ربما زلقت نفسها بحال من الاهتياج مع ولدين صعقهما الحبّ تمامًا، ومن ثمّ، بالنهاية، لتأخذ ملء رئتيها هواء وتعلن أنّ هذا ما أرادته، احتاجت فحسب هواءً، بعد كل شيء.

فكّر في لوريا، التي كانت تشبه البنت الصغيرة، في الأمرين معًا، في مباشرتها وأيضًا كبريائها المصطنعة جراء ارتباكها حيال الجسد، الذي وقعت في شركه، غير واثقة كيف تستعمله. ربما هذا ما جعلها محببة للنفس، حين حطّت عيناها عليك، هنيهة، فكّرت أنّه ربما بعد كل شيء أنت من تحتاجه هي.

"بعد مدريد، سأكون في فندق تروا إتوال في باريس، لأسبوعين، ثمّ سأرجع " كانت لوريا قد أخبرته،" إلا إذا... طيب، إلا إذا بدلت رأيي ". كانا قد تبادلا كلمات الوداع في ردهة استقبال المنتجع، حين رآها آتية تعبر الردهة إليه، خطرت له القناعة المباغتة أنّه في لحظة يمكنه تغيير كل شيء، أحسّ بالجموح كأنه يستطيع اصطفاء الحياة خلال الموت.وحين دنت منه أحسّ قلبه يهدأ ويستسلم، وتوجّب عليه أن يقف جانبًا، ليتقهقر عن مكانيهما، كأن شجرة تهوى.

استغرق لحظة كي يستجمع نفسه ومدّ يديه في إشارة تنم عن دفء عائلي تقريبًا وتكلّف ابتسامة،"وداع أوروبي "قال، يقبلها بثبات فوق كل من وجنتيها، براحته، يكبس ذراعيها قبالة جسمها.

"وداع؟" قالت متشككة، تتشبث بذراعيه وهو يسحبهما منها.

مالت الابنة فوق الطاولة وقد تمعنت عيناها بالمشهد الّذى راحوا يخلفونه وراءهم، ثمّ دفنت رأسها الّذى عقدت شعره ذيل حصان داخل هيئة حرف M صنعتها بذراعيها فوق الطاولة، تحجب النور عن عينيها.

ابناه، الولدان، بالغان الآن، شاحبان وصارمان كأمهما، كانا يؤسسان معيشة محترمة فى هذا البلد المحترم. ذلك كان شيئًا. وداعًا لهما، فكّر. وحظًا طيبًا للبنت.

ـ ٦٩ ـ

ثمّة فندق صغير تديره أسرة فى إل سانت لويس فى باريس أقل كلفة من الفنادق ذات الأسماء الكبيرة لكنه مع ذلك يحاول اكتساب أسباب مباهاته الخاصة. الرواق عامر بالمفردات المُرهفة، مزهريات بأغطية موضوعة فوق طاولات بأرجل مغزليّة تتحرّك أثناء عبور المرء، لافتةُ الانتباه للجمال العابر لأشياء مصنوعة فى الماضى.كان جورج مضطراً، بحقيبته الضخمة، أن يستقل المصعد إلى حجرته بالطابق التالى. وفى مسعاه للإفلات من معونة الشاب فى الاستقبال وقلقه بشأن المكان الخانق والبوابة الحديدية، نفد صبر جورج .

"أتركنا بمفردنا فحسب، شكرًا لك، سأتدبر أمورى! " أمر جورج مساعده.

:"لكن طبعاً، كما تحبّ يا سيدى " قال الشاب بابتسامة ملتويّة.

:"فرنسا لا بأس بها، لكن الفرنسيين الحمقى يدعون معرفة كل شىء، ألا تتفقين معى بالرأى ؟"قال جورج، فى الهاتف لجانيت من غرفته. ثمّة نقرة فوق الباب، تبعتها مزيد من النقرات القليلة، وأخبر جورج

ابنته أن تبقى على الهاتف لحين عودته. كان الشاب مرّة أخرى.

"أرجو، يا سيدى، أن تغفر لى تطفلى الزائد، لكنك تركت محفظتك فوق مكتب الاستقبال ".

أخذ جورج المحفظة من الرجل، وأومأ برأسه ثمّ أوصد الباب.

"إنّه هو مرّة أخرى. أجهل ماهيته، حقّاً. يعمل هنا. شوكة فى الظهر. عمومًا يا بطّة، أنا هنا على نحو آمن. كانت ركوبة القطار متعة حقيقية، لن أنساها أبداً. رجل إنجليزى لطيف كان يطبخ الطعام. يتركونك بمفردك، الإنجليز. أحبُّ ذلك.كيف حال أمّك؟ تعتنين بها ؟ لأنّها ستحلّق كما تعرفين. أوصدى الباب، ستضايقك بشكل متواصل بشأن المفاتيح وكم ترغب فى الرجوع للبيت الآن، لكن كونى صارمة فحسب معها. أخبريها فقط،" أنت فى البيت " ضعى عينك عليها فى الباص إلى توتنهام. كلا، أنا لا أعذّبَ نفسى، لا، لا، الجو خانق الحرارة هنا، سأضطر أن أفتح الشبابيك. أنت وشقيقتك ـ حتمًا لرؤية منزل الإقامة هذا الصباح، أليس كذلك ؟ ليس سيئًا، صحيح. مع ذلك لوتعاونا لن نحتاجه. بلى، طبعًا نعلم أنّه هناك. ذلك حقيقى، أليس كذلك؟ ليس بمكان آخر، صحيح؟" حقّاً، لن أبقيها عالقة بعيداً فى حين أكون مهيأً وقادراً. يا بطّة، لنكفّ عن الخوض بهذا الشأن. ابقّ على الخطّ، لحظة واحدة فقط. لا أطيق هذه الحرارة المهلكة ".

نهض وخلع سترته، ثمّ مضى إلى الشباك وفتحه على مصراعيه. كان يومًا رماديًا مكفهرًا. عرضت له حمامة بجانبها وأمالت رأسها نحوه." هيا أيتها الحمقاء الضئيلة القذرة، أغربى عنّى" قال جورج مُشيحًا بإحدى ذراعيه نحوالطائر، وعاد إلى الهاتف.

"كلا، إنّه طائر تلك المرة. حمامة. انظرى، كما كنتُ أقول، يمكننا تدبر الأمر، فلا أحد يعلم لمتى يدوم. أنا على ما يرام. هذه الراحة القصيرة ستريح أعصابى. لكم أنت بنت صالحة لإسدائى هذا المعروف. اعتنى بها فحسب، ماشى ؟ أشعر بالقلق ".

حين فرغا من الكلام، أعاد السمّاعة وتمدد فوق الفراش، محملقًا بباب الدولاب الضخم المغطى بمرآة فى مواجهته. رأى قدميه الضخمتين، الحذاء الّذى بدّل نعله بجلد جيد مؤخرًا، وحين رفع نفسه معتمدًا على مرفقيه رأى وجه الرجل العجوز الّذى أحيانًا ما يباغته. نظر إلى ساعته، كانت الخامسة عصراً. كان جان يعتزم لقاءه هناك نحو السابعة وكانا يخرجان للعشاء. يمكنه أن يغفو قليلاً، سوى أنّه افترض أنّه لن يكون فى باريس مرّة أخرى، لذا شال نفسه وغمر وجهه ببعض الماء فى حوض غسيل اليد وحطّ مفاتيح الغرفة ومحفظته فى جيبه، قائلا لنفسه،" فتى عجوز سخيف" كل ما ينقصنا بالنسبة إلىّ أن يشرع فى إفقادى صوابى" رمى بنفسه خارجًا وهبط الدّرَج المكسو بالسجاد الكثيف مائلا بجسده بسبب ضيق بيت الدّرَج.

بذل قصارى جهده لتفادى الشاب بالاستقبال وكان على وشك الخروج من الباب الأمامى حين أمطره الرجل بالهتاف." سيدى ! سيدى! ".

التفت جورج متثاقلاً.

"هلا أبقينا المفتاح هنا من أجلك ؟ هذا معتاد ".

صعد جورج إلى المكتب وشكره بأسنان تصدر صريرًا.

"مسيو؟".

"ماذا الآن ؟".

"إنّها تمطر. شمسية؟".

"كلا. لدىّ قبعة. شكرًا لك. إنّها قبعة جيدة بدجة كافية"ومضى جورج إلى الرصيف الضيق متحسسًا جيبه بحثًا عن قبعته المدببة المألوفة واسترجعها بكبرياء. وضعها فوق رأسه وعاد إلى الباب، مشيرًا بها للشاب، عبر الزجاج.

تجوّل نزولا على طول الشارع الّذى قبع فيه الفندق. أسعده الرذاذ الخفيف، ورؤية قوارب اللهو عند بوابات البيوت، التى شقّت طريقها بمحاذاة نهر السين والناس محشورة داخلها. لاحظ ـ وقد راح يقحم رأسه داخل بعض المطاعم والبارات ـ نارًا أو نارين مكشوفتين، ومصابيح واطئة، واكتشف أنّ لديه شهية، وكان قد أكل قطعة لحم مشوية على الغداء. Pas de cheval merci " كانت جانيت قد أخبرته كيف يقول " لا لحم حصان" Pas de cheval ,merci قال

الآن، مراوغًا امرأة فى منتصف العمر. ثمّة متسع فوق الرصيف لماشى واحد فحسب.

من محل لعب ساطع الأضواء ظهرت امرأة تدفع عربة أطفال وهبطت الدرجة إلى الرصيف بصعوبة. حاول جورج مساعدتها وأشرق وجهها بابتسامة جعلته يتورّد. فوق لفائف شعر طفلها أوطفلتها قبعة وقد جلس عاقدًا قدميه عند الكعبين فى حذائه طويل العنق ماركة ويلنجتون، مرتاحًا مطمئناً، ممسكًا بزرافة خشب. مشى وراءهما وحين توقفا عند متنزه صغير به أرجوحة وزلاقة ودكّة واحدة، توقّف أيضًا وقعد يراقب الأم تدفع الطفل فى الأرجوحة. حين كركر الطفل، كركر هو الآخر بصوت عالٍ وهكذا أمضى خمس عشرة دقيقة سعيدة من حياته. التقطت الأم الطفل من الأرجوحة وراحت تلاطفه ببعض الكلمات، ومشى الطفل بعض الخطوات المترددة وشرع بهرولة قصيرة مباشرة نحو جورج الّذى مدّ يديه كأنّما لالتقاط الطفل، لكنه عاد أدراجه وفرّ مرة أخرى. ظلّ قاعدًا بيديه ممدودتين، جُلّ تركيزه منصب على الطفل للحول دون وقوعه. رأسه للأمام، لسانه فوقه شفته السفلى، رَبِلَتا ساقاه مشدودتان. حين ذهبا، نهض ومشى عائدًا إلى الفندق.

كان جان قد وصل إلى الفندق وسجّل اسمه وكان فى حجرته. وبناءً على طلبه، هاتف الشاب حجرة السيد دى جروت وتناول جورج السمّاعة منه.

"مرحبًا يا رفيق، حسبتُ أنّك لن تصل هنا أبداً. بلى، رحلة رائعة، شكرًا. أتضور جوعًا الآن. أقول يا

صديقى، يمكننى التهام حصان! " تنهد الشاب بحدة، ولحظ جورج ذلك." خُذْ حماماً، نعم، وسنلتقى بالأسفل هنا، لنقل خلال نصف ساعة. رائع !".

أعاد سمّاعة الهاتف للرجل بأدب،" شكرًا لك" وشقّ طريقه نحو الدَّرَج. كان على الدَّرجة الثانية أوالثالثة حين ناداه الشاب مرّة أخرى.

"مفتاحك يا سيدى".

كان جورج ليضع نقودًا فى كفّ الشّحاذ، الذى بقى منتظرًا حتى ارتقى الدرج.شدّ المفاتيح بقوة.

"ربّما تقدر على تذكرهم وأنا ما أزال عند المكتب فى المرّة القادمة. أنا رجلٌ عجوز كما ترى، ليفيدنى ذلك".

" De rien مسيو، أنت على الرحب والسعة" قال الشاب بنبرة مبتهجة، وعاد إلى سجله.

- ٧٠ -

بعد بابين نزولاً من الفندق كان ثمّة مطعم به العديد من الطاولات الخالية، تتوسطه نار مكشوفة، وقوائم تحوط المكان تقترح نوعين أوثلاث فحسب. تنشّق جورج قليلا،" يلوح لى أنّه من غير الممكن إزعاجهم" وأقترح جان أنّ ذلك يعنى أنهم يجيدون القليل الذى يقدمونه." أوه، بلى"،" هو كذلك، طبعًا" وغطى قشرة الخبز البيضاء بالزبد وراح يأكل، متفحصًا المكان وخصوصًا امرأتين جلستا بالقرب من النافذة.

امتلأ المكان سريعًا وأجبرتهما الأحاديث العالية وموسيقى الخلفية الصاخبة على الانخفاض فوق الطاولة ليتمكنا من سماع بعضهما. طلب جان نبيذًا ألمانيًا أبيض حلوًا من أجل جورج، وأخرى من النبيذ الأحمر.

"لن أستطيع شرب حصتى يا رفيق ".

"سأنضمُ إليك ".

"يلوح لى أنّه نبيذ كثير. هل تتوقع رفقة ؟" أومأ جورج ناحية الطاولة عند الشباك ورفع حاجبيه عدة مرّات،" إيه ؟".

راقب جان جورج يشقّ فتحة كيس سكّر صغير ويفرغ معظمه فى كأسه، ويحركه بمقبض سكين المائدة. وعندما تلاقت عيناه مع جان، هزّ جورج رأسه،" لاذع جدًا، كل النبيذ، يصنعونه لاذعًا جدًا. لِما لا يصنعون نوعًا حلوًا، لا أدرى " أومأ جان نحوالنادل وقال،" Beaumes de venise من فضلك ".

"ماذا تقول ؟".

"سأحضر لك نبيذًا ستحبه ".

"لا مزيد ! ".

"لِما لا ؟".

"هل المكان رخيص هنا ؟ لقد حسبته نوعًا ما حجرة امرئ الأمامية ".

"لِما علينا الانشغال بالنقود الليلة ؟ فضلا عن أنّى من يدفع ".

هزّ جورج رأسه،" لن أسمح لك بعمل هذا يا رفيقى. زوجتك، هل توافق على خروجك فى عطلات نهاية أسبوع مع رجال، إذًا ؟".

أخذ جان جرعة كبيرة من النبيذ، مفرغًا كأسه تقريبًا. نبيذ أحمر ـ يشبه الدمّ. شعر بالاتقاد، وبلغت الحرارة رأسه سريعًا مسكنةً قلقه وغمرت تجاويف قلبه بذات الوقت، وارتسمت على وجهه ابتسامة.

"أوه، إنّها لا تمانع" يؤرجح رأسه ثمّ دافعًا نظارته للوراء فوق جسر أنفه.

"رائع " قال جورج، "كل شىء كان على ما يرام حين عدتما للديار، أحسبُ ذلك ".

أحضر النادل لهما طبقهما الرئيسى، شريحتان من اللحم الطيب مصحوبتان بالمقليات الفرنسية.

" Mou-trade (*) من فضلك" نطق جورج كلماته بتثاقل ثمّ احمر وجهه وأشرئب بعنقه كأنه يتوقع خناقة.

"حين رجعتما للديار، كنتُ أقول...".

:"ما من مكان يدعى ديار " قال جان وقد انتصب رأسه رافعًاحاجبًافى حين التقط سكينه وشوكته.

"ما هذا الكلام ؟ كلا، تربينا على أنّ "ما من مكان مثل الوطنى".

"بلى ".

"يعنى الكلام أنّه ما من مكان آخر مثله ملائم ".

"كيف حال زوجتك، العزيزة دوروثى ؟ ألم تمانع فى مجيئك ؟".

"كى أراك ؟ طبعًا لا. بل على العكس هى سعيدة جدًا. إنها فترة راحة لها أيضًا، ألا توافقنى الرأى ؟ فرصة لتلحق بالبنتين، ومشاهدة الهراء، الذى تحبه فى التليفزيون، وأنّ تمارس هواياتها...".

"هل هى بخير ؟".

"أوه بلى. لا أحسن ولا أسوأ ".

ابتسم جان لرؤية الخردل يفترش بعض الشعيرات فى شارب جورج.

"كى أكون أمينًا" قال جورج وهو يمط نصفه العلوى إلى الأمام متكئًاعلى مرفقيه والسكين والشوكة

(*) Mou-trade بالفرنسية فى الأصل.

كل واحـدة فى يدّ مثل قائمى تزلج،" كنتُ أحسب أنّك ربما كنت على اتصال بلوريا تلك ".

"لِما تقول ذلك؟".

ربت جـورج جـانب أنـفه بسـبـابته."أُبـقى عينـين مفتوحتـين، صحيح ؟ كلاكما كان خدن الآخر تقريبًا. إنّها سيدة جميلة ".

"بلى، هـذا صحيح، سوى أنّ تلك العلاقة تعقد الأمور كثيرًا".

"لا أعرف شيئًا بهذا الشأن. لطالما يتكلم الناس عن أشياء تتعقد، صحيح ؟ حسبتُ أنّه من المفترض بنا تيسير كل شىء فى الوقت الحاضر.حمولة من الهراء. طيب، لم يفت الأوان بعد بالنسبة إليك ولها . أراهن أن رقمها لديك ".

"لا".

"طيب، يمكنك التلفنة لذلك الرجل برنز، أخبره أن لديك شيئًا يخصها تود أن تعيده لها" وارتسمت على وجهه ابتسامة شهوانيّة،" مثل سوتيانها ".

نحى جان سكينه وشوكته جانبًا ولفّ كأسه المملوءة بين أصابعه." لقد فكّرت فيها، طبعًا" أومأ جورج وهو يمضغ، كان على وشك الانتهاء من طبقه فعلا. التهم طعامه مثل ذئب، رابض، عدوانى قليلا، دون أن يُهدر فرصة. فكّر جان فى نفسه كيف يكون الحال إن كانت لوريا من يجلس مكان جورج، تقذف مقليّة فرنسية فى فمها المرسوم بالطلاء بدقة، تبث فيه الدفء بمغازلاتها، لتجعل دماغه تدوخ أسرع من

النبيذ. اندفع الأدرينالين فى عروقه عندما خطرت له تلك الفكرة. حَلمَ بها منذ عادوا، أكثر من مرّة، وأريقت أحلامه على مدار اليوم، لتتركه قلقًا بقلب موجوع، كأنّ خطبًا ما ألمَّ به، أمه تحتضر أوابنه فى المستشفى، وقد عجز فحسب عن استدعاء ماهية هذا الشىء، أحسّ بالانزعاج فقط. أحسّ بنفسه قريبًامنها جدًا فى حلمه، مقيدًاللغاية بها.

تجشأ جورج، جانبًا. بصوت عالٍ، رغم ذلك.

"معذرة يا سيدى" أصرّت واحدة من السيدتين على الطاولة القريبة من الشباك. استدار جورج ومنحهما ابتسامة مبتهجة وتلويحة بيده.

"يلوح لى أنّى لست الوحيد الّذى لطشته الريح " قال، وهويرتشف جرعة ضخمة من النبيذ،" هل سمعتها؟ " كأنك تصطحب ولدًا كبيرًا للعشاء بالخارج وتعطيه الكثير جدًامن شراب الصودا والكعك المُحلى." طيب، عمومًا، يمكنك الحصول على رقمها. سأسديك هذا المعروف لأجلك. سأضطر للاتصال بذلك المدعو برنز؛ لأنّى لم أحصل أبدًاعلى رقم بيلّ العجوز وعلىّ أن أهاتفه أوأن أكتب إليه ".

لم يقل جان شيئًا.

"رجل لطيف. أعرف أنكما تشاجرتما قليلا مع بعضكما. لم أسأل أبدًا ولن أسأل الآن" توقف جورج فى حين يضع مزيدًا من الخردل فى طبقه،" لكنه كان من نوع طيب، لقد تكلمت معه بخصوص المسكينة دوروثى، كما تعرف، ذاكرتها الضعيفة، وقد قال لى بعض الأمور المشوقة جدًا. قال إنّه فكّر فى أن الذّاكرة

مثل نوع من الحساب المصرفى، حساب المدخرات هو ما لا تستطيع حذفه، وأنّه فى نهاية اليوم، هى الشىء الوحيد ذو المدلول الّذى أحرزناه طوال حياتنا. دعك من السيارة والمنزل، إنّها الذّاكرة ما يهم. قال إنّه لا غرو أنّى منزعج لحدٍ ما بشأن دوروثى، فما حدث كأنّها تسطو على المصرف. حسابنا المصرفى. وهكذا على أية حال فكّرت فى نفسى: طيب، سأتأكد بنفسى فحسب من إغلاق الحساب والحفاظ على الغنيمة بنفسى، تحت الفراش، إذا جاز التعبير، وهذا ما جرى حين شرعت بكتابة المذكرات. عُدت للحظة ولادتى، الذكريات المبكرة. لكم استمتعت بها، وأشعر بالسعادة عند كتابتها، لأن لا أحد منا يعلم متى يعتزم المرء الموت، صحيح ؟".

رفع جان حاجبًا وهزّ رأسه، وحطّ سكينه وشوكته بجانب شريحة اللحم اللذيذة الموصى عليها، التى بقيت بمفردها فى طبقه البيضوى.

"لذلك أنا سعيد أنّك وزوجتك على ما يُرام. أترى، لديك تاريخك، صحيح ؟ ذلك يعنى شيئًا حين تنجزُ أمرًا".

"بالتأكيد. هلا طلبنا تحلية أو بعض الجبن ؟".

"قطعة شهية من اللحم، بدت نفاية لكنها كانت طريّة "رأى جان أنّ طبق جورج كان نظيفًاعدا لطخة خردل." أنا ممتلئ يا رفيقى. سأتناول قطعة بودنج، رغم ذلك. ماذا لديهم ؟" طلبا كأسًا من النبيذ الحلو(*) من أجل جورج وقهوة لجان.

(*) Napoleon de la Maison

كان جورج يحتسى كأسه الثالثة من النبيذ الحلو الّذى طلبه جان لأجله وقد دفع سلّة السكّر جانبًا. "الآن ها هونبيذ طيب. لِما لا يصنعون كل النبيذ بهذا الشكل ؟" انكب على شريحة الكعك الموضوعة أمامه، بأدب، يلعق الملعقة بتأن، كلها، صعوداً إلى المقبض. "لقد أحبّك ؟".

"مَنْ؟".

"بيل.لقد أحبك فعلا، تعرف. قال بعض الأشياء البالغة اللطف عنك ".

"بلى.أوه، كما تقول، كان من النوع الطيب. خارج عن السيطرة قليلا، مع ذلك ".

"يعجز عن الاكتفاء بنصف معدة، أنت محقّ فى ذلك ! العزيز الغالى، بمقدوره غرف الطعام كله كأنّه ما من غد، يستطيع ذلك. أخبرنى أنّه يعانى حُرقة رهيبة بالمعدة، لا مجال للعجب. مرّة فى الليل بعد العشاء مررت له زجاجة رينيس، أحضرتها من الحجرة وجلسنا نحتسى كأسًا أخيرًا. لن أنسى ما قاله لأنّى عددته كلامًا طيبًا. قال أنّ ثمّة نوعين من البشر فى الدنيا ـ قال إن أحدًا مشهورًا قال هذا الكلام سوى أنّى أعجز عن تذكر اسمه ـ الورعون الّذين هم بالأصل آثمون، والآثمون الّذين هم بالأصل ورعون، وقال إنّه تمنى أن يكون ضمن الأخيرين سوى أنّه من الجائز ألا يكون لأنّه قد فكّر بنفسه كثيرًا جدًا. قال ذلك لأنّك فكرت بعض الشئ فى نفسك، أعزّكم الله. طريقة غريبة فى الطرح لكنك تنجرف فيها. كلام ظريف يُقال بشأن إنسان ".

ضحك جان ووضع كفّه فوق فمه. استرخى حاجبه ونظر بالأرجاء صوب المدفأة، مراقبًا وميض اللهب المتكرر لكن دون أن يتشابه أبدًا. هل سأفكّر فى النار ؟ هل سأفكر بعبارات من أغنيات بعينها، أم سأفكر فى باريس؟ تساءل. ماذا سيحدث ؟ هل سأجيء إلى هنا مرّة أخرى، وأحسّ بذات الشعور ؟.

"أعجز عن معرفة لأية الفئتين أنتمى" رمق جورج الكأس المضببة بين أصابعه الدّبقة." قلتُ له، طيب لا أظننى ذلك الفتى العجوز اللئيم، فهل أنا مدان إذًا ؟".

"ماذا قال ؟".

"قال إنّه لا يدرى. قانون الحمقى، أليس كذلك ؟ "هزّ جورج كتفيه." حسنًا، أما وقد وجدت خلاصى مُعلقًا فى الميزان، هل سيكون من المناسب المضى لمكانٍ ما، هل تظن هذا ؟ لمادام أردتُ التجول فى بيغال. زقاق الخنازير كما دعاه الأمريكان أثناء الحرب، لكم سمعنا حكايات عنه. تمنيت لوكان لدينا زقاق خنازير فى إيطاليا. أودُّ التجول بشارع الشانزلزيه أيضًا. لا زال الوقت مبكرًا، صحّ ؟".

"اسمح لى بدفع الحساب وسنذهب لهناك" وأشار جان إلى النادل.

"هل تعرف الاسم الّذى أطلقه الألمان على الفطور الفرنسى، هكذا سمعت، أثناء الحرب؟ هل تعرف ؟ سيكارة وامرأة. حمقى مغفلون" رسم جورج ابتسامة بطيئة علامة الإعجاب الواضح. " أودُّ الذهاب إلى روما مرّة أخرى وللأبد. أن أرى ما صارت إليه الآن. ثمّة أماكن قليلة ما كنت لأمانع برؤيتها. علىّ أن

أنسجم معها. لن تقدم زوجتى على ذلك، مع هذا، لذا سيكون علىّ أن أذهب إليها بمفردى. أريد عمل هذا وأنا بصحتى ".

"سأجىء معك ".

"حقًا؟ ماذا، إلى روما ؟ جميل. متى سنذهب إذًا؟".

"ما رأيك فى غضون أسبوعين ؟".

"كُن معقولا يا رفيقى ".

"حسنًا، أنا أعى ما أقول ".

"أوه " أخفض جورج بصره إلى الطبق، وحين رأى ساق الكأس، أنهى الشفطة الصغيرة الباقية فى قعره. تدلى فمه، انشدّ لأسفل تحت وطأة فكه، يغوص.

"حسنًا، علينا الذهاب متى كانت لدينا القدرة " قال،" أنت وأنا. علينا التمتع قليلا" نظر إلى أعلى نحوجان وابتسم." فى النهاية من الرائع أن يأتى فتى شاب مثلك معى ".

"من الرائع أن يأتى فتى شاب مثلك معى. أرجو فحسب ألا تورطنى فى متاعب كثيرة ".

"عدد وفير من الجميلات، هؤلاء الفتيات الإيطاليات. سيكون علينا إنفاق بعض المال ".

"سننفق. لما لا ؟ سنعبث مرّة أومرّتين. نحن رجلان حسنا المظهر، ناضجان ومُهابان ".

"هذا صحيح ".

وضع النادل الفاتورة بينهما فوق طبق صغير ومدّ جان يده إليها.

"العدل عدل" قال جورج وهو يدفع ورقة نقدية عبر الطاولة وينهض. مال نحو جان وهمس،" هِرّ، كيف تقول طاب مساؤك بالفرنسية ؟" أصغى بعين واحدة مغلقة، رافعًا أصبعًا وأومأ، ثمّ مضى ليلاقي معطفه وقبعته، ووقف هنيهة أمام السيدتين ليقول، بانحناءة خفيفة،" Bon- soir,'dames "

ـ ٧١ ـ

"وداعًا سيدى الجنرال" صاح صاحب متجر البورنو.

"هل سمعت ذلك " قال جورج،"يحسبنى مونتى".

نظر جان للوراء، كان الرجل متكئًا على شباك متجره، فاغرًا فاه بالضحك، وعيناه مجعدتين، تحوطهما الألوان المبهرجة للمشغولات السخيفة فى صناعة يلبى فيها تسوق التذكارات رغبة جسدانيّة.

"لم أتصوّر أبدًا أنّ الأمر سيكون هكذا" قال جورج، مستقرًا، مثل جان، على الجلد البارد للبطانة النظيفة فى سيارتهما الأجرة.

"ليس مثيرًا كما فى أمستردام، لكنت تستمتع فى أمستردام".

"يبيعون حمولة من النفايات، ألا توافقنى الرأى؟ مَنْ يشترى ذلك الهراء ؟رجال هرمون قذرون ؟".

ضحك جان،" مثلك ومثلى ".

أحجم جورج، وقد أسند رأسه للوراء على المقعد، ذقنه مستقيمة.

"كلا".

كانا ممتلئين بالمتعة، وقد تقاسما زجاجة أخرى من النبيذ فى كافيه صغير فى مونتمارتر وهبطا الدرجات أسفل Sacre Coeur (١) هرولةً.

كان سائق سيارتهما الأجرة رجلاً هرمًا، له بعض الخصلات القليلة من الشعر الرمادى الممشط بإتقان خلف رأسه المرقش، وقد وضع سمّاعة طبيّة فى أذنه كانت تصدر طنينًا مزعجًا، لاحظها جان والرجل العجوز يثب ليفتح لهما الباب. تكلّم وضحك جان مجددًا.

"إنّه يسأل إذا كنت جنرالا؛ سمع ما قاله الرجل فى المتجر ".

مال جورج للأمام بين المقاعد وابتسم للرجل.

"فى إيطاليا " قال،" كنت مصدر إزعاج عام"(٢)

أومأ الرجل بجديّة، ينقر بيد مسطحة جانب رأسه، يحاول إصلاح ما فسد بسمّاعته.وراح الطنين يتخذ درجة جديدة أعلى ولعن الرجل وخرف.

Ditesque mon pere etaitaussi General Pour Lasisitance

قال، مستديرًا لينظر إلى جان، بعينين مسلطتين،"".

"يقول إنّ أباه كان جنرالا ـ فى المقاومة " قال جان، رافعًا حاجبيه، مردفًا،" جميعهم يقولون ذلك" قال الرجل شيئًا آخر وضحك بحلق جاف وأومأ.

(١) Sacre coea بالفرنسية فى الأصل.

(٢) General تلعب المؤلفة على المعنيين المختلفين لذات الكلمة. (المترجم).

"ماذا يقول ؟".

"يقول لوتحبّ لقاء بعض الفتيات الجميلات، يمكنه إطلاعنا على مكانهن. لأجل عيون جنرال لطيف مثلك...".

"كلا " قال جورج مطلا خارج الشباك والسيارة تطوف حول الكونكورد،" في سِني أفضل رشفة ويسكي. لكم أحببت أن أرى بعض الحسناوات الفرنسيات كما تعرف، جوبات قصيرة وكعوب عالية وأحمر شفاه. لكم أحببت ذلك، مع ذلك لم أفكّر كثيرًا في زقاق الخنازير، وتلك المتاجر" تذكّر جان كيف عرض صاحب آخر متجر دخلاه على جورج، شريط فيديويعدُ بانِكات شرجيّة. التقط جورج نظارته من الجيب العلوي بسترته ذات السحّاب وتفحّصه عن قرب. لم يحجم عن لقطة الغلاف لقضيب مُحتقن بالدم موجّه ناحية شرج امرأة شابة. حملق في الغلاف عبر عدساته ومن فوق نظارته، يُقرب الشريط ويُبعده عن بؤرة نظره قبل أن يعيده.

"كلا، شكرًا ".

قصد المالك، الّذي تسلى بالأمر بوضوح، إلى قسم عليه علامة XXX وعاد بشريطين أو ثلاثة أخرى ليعرضها على الرجل العجوز. كان جورج قد أعاد نظارته بحزم إلى جيبه العلوي وهزّ رأسه،" ليس ما احتاج شريط فيديو، أعلم كيف تفعل ذلك. لا تنسى".

"خُذنا إلى الشانزليزيه" طلب جان من السائق الّذى أومأ إلى الجندى المجهول (١) بعد دقائق قليلة من الصمت، وهم ينسلون تحت الأنوار المتألقة فى الشارع العريض، بدأ جان يدندن"(٢) طائر القبرة طائر قبرة لطيف وانتبه جورج للأغنية وراح يردد كلماتها وانضم جان إليه وسرعان ما كانا يرددان السطور القليلة للأغنية، وقد بالغا فى التشديد على الآهة التى تسبق الأزمة، بعلو حسهما. عبث السائق بسماعته الطبيّة، يضبطها ظاهريًا هاتفًا باهتياج.

أشار جان إلى قبر الجندى المجهول تحت قوس النصر، وسأل جورج إذا كان يودّ التجوّل بشارع الشانزليزيه، فهزّ جورج رأسه نافيًا وربت على ركبة جان.

"كلا يا بنى، لقد أمضيتُ وقتًا طيبًا، لقد وفرت لنا جولة بهيجة، سوى أنّى منهك الآن. متعب. لنعد إلى البيت، هيا؟".

وافقه جان وكان عليه أن ينقر السائق على كتفه حتى يُعيد سماعته فوق أذنه كى يتمكن من سماع توجيهاتهما.

---

(١) jusqu'au soldat inconnu بالفرنسية فى الأصل.

(٢) Aloutte gentil gentil'aoutte بالفرنسية فى الأصل أغنية أطفال شعبية مشهورة فى فرنسا.

-٧٢-

كان جان جالسًا فى الفراش، قدماه معقودتان عند الكاحل، والشباك مفتوح على اتساعه والمصباح المُعلق فوق سريره يبثُ نورًا يكفيه فحسب لقراءة كتابه. أعاد كتابه عن الحضارة الأوروبيّة لغلافه الأصلى وبلغ عدة صفحات داخل الفصل الأول. كان عند المكان نفسه ثلاث مرّات فى السابق. كانت آلام ظهره شديدة، وعاجلا جدًا عليه أن يواصل تحويلة المورفين. أخبروه أنّ المورفين يعطيه سيطرةً على تدبر وجعه، وألمحوا أنّه يمنحه نوعًا من الحرية. تكلموا بهذا الشأن، أطباؤه، كأنّه أمرٌ عجيب، كما لو كان يمنحه حياةً جديدة. لا يريد الشعور بالوجع أبدًا، يريد فحسب أن يكبس الزرّ فيشفى. كانت طريقًا باتجاهٍ واحد، الطريق المباشر للديار. تناول كبسولاً من المورفين كان قد أحضره معه وصبّ لنفسه كوب ماء من الزجاجة البلاستيك بجوار فراشه حين سمع دقّة على بابه، وصوت جورج يقول،" معذرة على إيقاظك يا رفيقى،إنّه أنا ".

مضى نحو الباب ووقف أمام جورج الّذى كان قد خلع سترته الصوف المحبوكة وقميصه، وكان الآن

يلبس صدارى على بنطلون. كانت حمالتا بنطلونه مرتخيتين عند الجانبين، وبدا منزعجًا.

"تلقيت مكالمة للتو من ابنتى البكر. أصيبت دوروثى بسكتة دماغية اليوم،حالتها مستقرة وهى فى المستشفى الليلة لعدة أيام قليلة كما يأملون. لقد ثبتوا لها محاليل لعلاجها ".

"هل هى على ما يرام ؟".

"لقد فقدت القدرة على استعمال جانب من وجهها، حسبما تقول جانيت، لكن قد تستعيد قدرتها فيما بعد" لعق جورج شفتيه وابتلع ريقه." لا يمكننى البقاء هنا، مع ذلك، وهى فى هذا الحال. سيكون علىّ الرجوع غدًا يا رفيقى، فى الصباح الباكر".

"طبعًا ".

"سأحجز تذكرة أخرى".

"للقطار ".

"بلى،فكارول تنوى لقائى فى آشفورد ".

"سآتى معك إلى المحطة ".

"كلا يا رفيقى، سأغادر فى الصباح الباكر، قبل السادسة أظن ".

"جيد".

"أنت بحاجة للنوم".

هزّ جان رأسه وابتسم،" كلا، أشعر أنّى على ما يُرام يا جورج بعد ليلتنا أمس بالخارج. سأجىء معك لأتأكد من أنّك بخير ".

"لا بأس" مدّ جورج يده وصافحه جان بقوة." نَمْ جيدًا يا بنى ".

" وأنت أيضًا ".

راقب جورج يشق طريقه خلال الرواق الضيق، يستند بيديه على الحائط ليعدل نفسه. رأى ثنية اللحم الوردية، التى فصلت الصفوف القليلة من الشعر الأبيض القصير فى مؤخرة رأسه عن قطن صداريه البيضاء تحتها. رأى أن يدى صديقه كانتا مرقشتين مثل دماغ السائق وأنّ جلده خلف أعلى ذراعيه قد تدلى مرتخيًا، مثل لحم دجاجة. حين التفت جورج عند نهاية الرواق ليرفع يده اليمنى بتحية المساء، فشل جان فى رؤية عينيه، محضُ الانعكاس المتألق عن نظارته من الثُريّا الكريستال المثبتة بالحائط.

عاد إلى حجرته ونظر إلى الفراش ببطانيته البسيطة وشراشفه المحشوة حول الفراش رغم أنّها مُثبته فى مكانها. اختار الكرسى القريب من الشباك وجلس عليه ومدّ يده إلى الهاتف. كان قد عزم على مكالمة ابنه البكر، وأن يطلب منه لقاءه عند محطة القطار فى بروج فى ظهيرة الغدّ." أحضر بِن " ليقول له وليدعوه وشقيقه إلى عشاء طيب ويدعهما يعودان لحالهما مبكرًا. سيرى وجهيهما فى ضوء الشموع فى نُزُل كان يعرفه.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «ماري نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسي «بيير بيجي».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصري «خيري شلبي» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصري «محمد عفيفي مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح .. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا في حياتي».. للكاتب المصري «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصري «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١- «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالڤينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢- القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ - أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطىء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج ٠ م ٠ كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفتس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ - شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بيريياروبيا.

٣٢- مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ - اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ - البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ - بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦- بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ - عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ - العار.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ - قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. ر واية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد تويوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داى.. للكاتبة الإسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديڤاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيڤين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غداً.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة چورچ بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ـ المرأة المسكونة.. چيوكوندا بيلى.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس ١٩٧٨.

٢ ـ بيتر كامينتسند.. هِرْمَنْ هيسّه.. عدد خاص.. جائزة نوبل ١٩٤٦.

٣ ـ بيت السيد بيسواس.. ف. س. نايبول.. جائزة نوبل ٢٠٠١.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

الرواية

هل ثمة وجع أعمق من إدراك المرء أن حياته، وهى على وشك الأفول قد راحت هباءً؟ بالنسبة إلى أولئك الذين لا يحدقون فى الموت مباشرة، يظل السؤال قائماً "كيف يمكننا التعامل مع ما نحن عليه"، مالم نعد نرغب أن نكونه، أو ما لم نعد نرغبُ بالحياة معه.

البعضُ يلجأ إلى العطلات، لكن بالنسبة إلى "لويز دين" تبقى العطلات "مُسكناً مقبولاً لعلة بشرية تعرفُ بالكاد كيف تشكو منها".

"أن نُصبْحَ أغراباً" رواية تتحدى الشرط الإنسانى، أو بالأحرى تتأمل الأساليب الاستثنائية التى نتعامل عبرها حين نُجابه بالموقف الأكثر صعوبة، وهو هنا المراحل الأخيرة من مرض السرطان، والأولى من مرض الزهايمر، ولذا تأتى إجابات الرواية عن أسئلة الوجود مُكئبة فى أغلب اللحظات: فالحياةُ محض هراء، والعلاقات البشرية تنمو مبتسرة، ويجب أن تُطرحَ جانباً وأولئك الذين يخسرون طالما اشتاقوا إليه أو الذين نالوا ما تمنوه يصيبهم الإحباط عند اكتشاف الحقيقة.

الروائية: لويز دين، روائية بريطانية.
الجائزة: جائزة بيتى تراسك عام ٢٠٠٤.

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN 978-99953-0-2824-8

ISBN# 9789774217323

6 221149 019638

١٥ جنيهاً